



عَلَمُ الدِّينِ

لمعة العالم، افاضل، احب المادة

علي باشا مبارك

واعلم الاشغال العمومية المصرية

بمصر

الجزء الرابع

مكتبة
الملك
الحمادي

الاسكندرية

١٢٩١

٤٠

١٨٦٢

مكتبة الملك الحمادي

مكتبة الملك الحمادي
الاسكندرية
١٢٩١
٤٠
١٨٦٢



كَلِمَةُ الدِّينِ

لحضرة العالم الفاضل صاحب السعادة

علي باشا مبارك

ناظر الاقوال العمومية المصرية



الجزء الرابع



طبع في مطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية

١٢٩٩

سنة

١٨٨٢



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المعاصرة السابعة والتسعون

الجمعية الشرقية

ثم ان الخواجاج فتح الصندوق واطلع على ما فيه ثم اقبله وقال لابن الشيخ وعدتك بنظارة ونحن بالركب فما هي فخذها واحفظها وهي نفسك فانك متوجه معنا فاخذها ووضعها في غرفته وغير ثيابه ورجع وكانت العربية حاضرة فركبوا جميعا الى المدرسة الشرقية ليلقي الشيخ فيها درسا فصاروا قليلا فوجدوا رئيس الجمعية على بابها فتلقاهم وحياهم واخذ بيد الشيخ بغاية ما يليق من التعظيم والوقار وما ينبغي من الاحترام والاعتبار وكان على الشيخ يومئذ حلة نصرية مما يلبسه العلماء فشخصت العيون اليه وكان لا ير

باحد الا قام له ونظر اليه وتامله وما زال ذلك الرئيس آخذا
 بيد الشيخ الى ان ادخله محل الدرس فوجد به جمعا لا يشق له
 غبار وجميع الطلبة في الانتظار فلما قدم عليهم قاموا جميعا نعتيا
 له واجلالا وتلقوه بما يليق بمثله فشق الشيخ صف الحلقة ودخل معه
 الرئيس والخوارجا وابنه حتى اجلسوه على كرسي قد هيئ له في وسط
 الحلقة فكان الشيخ وحده مرتفعا على جميع الحاضرين فاشرق راسه
 مليا خاشعا لله تعالى ولما جلس الجميع واستقر كل في مكانه افتتح
 الشيخ الدرس فقال بعد التعوذ والبسلة نحمدك اللهم على ما اولبتنا
 من النعم التي لا تعد وللمنن التي لا تحصى خلقت الارض والسماوات
 واسكنت فيها انواع المخلوقات الفرد الصمد لا شريك لك في الملك
 يا مدبر الفلك ومجري الفلك انت الاول الاخر الباطن الظاهر
 فاليك المرجع والمستند وعليك التوكل والمعتمد اللهم وقتنا لما
 يرضيك يا رحيم واهدنا الصراط المستقيم اما بعد . . . سأتى حضرة
 الرئيس المعظم والاستاذ المفتي ان اتروح بيمين مسائل علمية وفنون
 ازهرية عقلية وتقلبية فلم تسعني مخالفتي بل رجعت على طاعته
 ومحالته مع اني اعلم من نفسي العجز عن الخبة المتوسع
 وعدم القدرة على ان احوم حول هذا الرتب وارجمكم ايا السادة
 الاساتذة والاحبار الجهابذة ان تغضوا العرف عن المنوات وصفحوا
 عما يقع من الزلات فان من الواضح الغني عن البيان ان الاسان
 محل النسيان كما قيل

وما سمي الانسان الانسيبه

ولا القلب الا انه يتقلب

واستل الجميع ان ينظروا الى القبر بعين الرضى والقبول
في كل ما يفعل او يقول فقد قيل

وعين الرضى عن كل عيب كليله

كما ان عين السخط تبدي المساويا

والله تعالى يوفى واياكم الى اقوم طريق ويهدينا معالم التحقيق

بجاه سيدنا محمد خير الانام عليه وعلى سائر الانبياء افضل الصلاة

والسلام ثم قال اعلوا ان الله تعالى لما خلق الانسان علمه البيان

فخلق آدم وعلمه الاسماء كلها وكان تكلم بالسريانية فالسريانية هي

اول اللغات ثم نوع اللغات الى انواع فجعل اقصها وافضلها اللغة

العربية فنريد التكلم في طرف ما يتعلق بها فتقول ان اول من

تكلم باللغة العربية نبي الله اساعيل بن نبي الله ابراهيم الخليل عليها

السلام ، ما زالت تسبح جيلا بعد جيل الى ان صارت لا يحيط

بها من نمة اللانة الا التليل وقد طلبتم مني لحسن ظنكم في ان امي

عليكم منها بعض دروس نذكر انفاهب غوامضها كالشموس فما

وجدت اقرب من الدواوين التي نشتل على ما كانت تستعمله

العرب في تغرياتهم وما كانوا ينولونه في حلوم وتقلاتهم ورأيت من

احسن ما صنف في هذا المعنى ديوان حامل لواء الشعراء وامام كل

شاعر فوق الثبراء وهو امرء القيس المشهور الذي ورد فيه الاثر

المأثور واسمه جندح بن حجر بن عمرو وجندح بضم اوجه وثالثه
وسكون ثانيه على وزن قنقد ومعناه في الاصل رملة طيبة تنبت
الوانا وامه فاطمة بنت ربيعة اخت كليب ومهلل وامرء القيس لقبه
وكيته ابو وهب وابو الحارث ويلقب ايضا بذي القروح لقوله في
بعض قصائده

وبدلت قرحا داما بعد صحة

لعل منا يانا تحولن ابوسا

ويلقب ايضا بالذائد لقوله في بعض قصائده

(اذود القوافي عني ذباذا)

ومعنى امرء القيس في الاصل رجل الشدة لان القيس في
اللغة الشدة وقيل ان القيس كان اسما لصنم فنسب اليه ولهذا كان
الاصمعي يكره ان يروي قوله الاثني

عقرت بعيري يا امرء القيس فانزل

فكان يقول يا امرء الله وكان ابوه حجر طرده في صغره من
اجل عبيزة التي كان يشيب بها فلما طرده صار يتقلب في احياء
العرب ويتبع صعا ليكم وهم اللصوص وكان ابوه ملكا على بني
اسد فعسفهم عسفا شديدا فتالوا على قتله فقتلوه فلما بلغه قتل
ابيه وكان يشرب الخمر قال اليوم خمر وغدا امر ضيعني صغيرا
وحلني ثقل النار كبيرا وقام في اخذ ثار ابيه في خبر طويل سنكلم
عليه اذا دعا الحال اليه وما زال في طلب ثار ابيه الى ان وصل

اقتره فطعن في ابطه فنزل هناك بجانب جبل يقال له عسيب
وتفرق عنه اصحابه وكان بجانب الجبل قبر لبعض بنات الملوك
وفيها قول

دارتنا ان الخطاب تنوب * واني منيم ما اقام عسيب
جارتنا ثا غريبان ههنا . وكل غريب للغريب نسيب
من تسليبي تسعدني يدي . وان تقطيني فالغريب غريب
فيا مات دفن بجانبها وكان اخر ما نكلم به (رب طعنة
معينة يخنابه حفنة مدعثة وفصيدة محيرة تبتى غدا
بانفة المتعجزة ان ال الجفنة التي يسيل ودكها فشبه الطعنة
بالجفنة التي يسيل منها الودك وهو الدهن والجفنة القصة الصغيرة
والمدعثة المكسورة والمبهرة المشتمة واقتره بفتح الهزة وسكون النون
وكسر القاف معرب المشهور به وهي عمودية التي مات بها امرء
القبس ثم شرع يثني عليهم من حفظه ويأنتق في تعبيره ولفظه
ويجمل ويونح ويكنى ويصوح ويطنب فلا يمل ويوجز فلا يخل
وكان من جملة ما التفت عليهم عند الكلام على قول امرئ
القبس

قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل

بسط اللوا بين الدخول فحومل

ان قال ان الالف في قفا يجمل ان تكون للتثنية لان
العادة لمن اعوان الرجل في الغالب اثنان راعي ابله وراعي غنمه

وكذلك الرقعة ادنى ما تكون ثلاثة ويحتمل ان يكون الخطاب
لواحد وإنما جرى خطاب الاثنين على الواحد لمرور الستم عليه
كقوله

فان مزجرائي يا ابن عفان ازدرج

وان مرعياني احم عرضا منعا

وان تكون مبدلة من نون التوكيد والأصل قفن فابدلها
ألها في الوصل قياسا على ابدالها في الوقف ويحتمل ان المراد تكرير
الأمر مرتين والأصل قف قف فالحق الألف اشارة دالة على ان
المراد ذلك كما قاله في قوله تعالى حكاية عن اهل النار قال رب
ارجعون ان المراد منه ارجعني ارجعني ارجعني ثلاثا فجعلت الواو
علامة مشعرة بان المعنى تكرير الفعل مرارًا والدخول بفتح الدال
اسم مكان وهو مفرد ولفظ بين يقتضي الاشتراك فلا يدخل الا على
مثنى او مجموع كقولك المال بينها والدارين الاخوة وكقوله
شوقي اليك نفي لديك هجوعي

فارقني فاقام بين ضلوعي

فان وقع بعدها مفرد فلا بد من العطف عليه بحرف مشرك
وهو الواو نحو المال بين زيد وعمرو وقد وقع بعدها هنا مفرد وهو
الدخول وعطف عليه بالفاء ثم اجاب بان الدخول اسم واقع
على عدة امكنة فهي وان دخلت على مفرد لفظا فهي داخلة على
متعدد معنى فلذلك عطف عليه بالفاء الموضوعه للتعقيب لا

للاشتراك فقال له بعض من بالمجلس اذا اشعرطنا في لفظة بين
ان لا تدخل الاعلى متعدد فما تصنع في قول القرآن في صفة
الناطقين مذبذبين بين ذلك فان لفظ ذا لا يشار به الا الى مفرد
فقال له الشيخ لو دقت النظر لوجدت الجواب واضحا وذلك
ان اسم الاشارة وان كان مفردا لفظا لكنه متعدد معنى لانه ادى
تأدية شيئين ونائب مناب لفظين وقد كشف سبحانه هذا التأويل
بقوله بعد لا الى هولاء ولا الى هولاء وكان تقدير الكلام في الآية
بين ذينك الفريقين ونظيره لفظة احد في قوله تعالى لا تفرق بين
احد من رسله فان هذه اللفظة وان كانت مفردة الا انها
تستغرق الجنس الواقع على المفرد والمثنى والجمع وما يدل على ان
اسم الاشارة هنا نائب عن شيئين نيابة في باب ظن عن المفعولين
نحو ظننت ذلك فتلخص من هذا ان بين لا يقع بعدها الا متعدد
او ما يؤدي تأدية المتعدد فقال له اخر انا كان كذلك فحيث
لا يصح ان يقال المال بين زيد وبين عمرو

فقال الشيخ وهو كذلك بل الصواب في مثله حذف بين
الثانية كقوله تعالى يخرج من بين فرث ودم لنا خالصا سائغا
للشاربين

فقال ذلك السائل فما تقول في قوله تعالى حكاية عن قول
فرعون لموسى فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه فان بين الثانية
مضافة لضمير المخاطب وهو مفرد وقول موسى لشعيب ذلك بيني

وبينك ايما الاحلين قضيت فلا عدوان عليّ وقوله هذا فراق بني
 وبينك فان بين في الموضوعين مضافة لمفرد الاول ضمير المتكلم والثاني
 ضمير المخاطب فلمَ جاز ذلك ولم يميز ان يقال المال بين زيد وبين
 اخيه فقال الفرق بين الموضوعين ان المعطوف في الايات قد عطف
 على المضمير المجرور وقد شرط جمهور النحويين في العطف عليه
 تكرير الجار فيقولون مررت بك وبزيد ولا يميزون مررت بك
 وزيد ولهذا لحنوا من جر الارحام في قوله تعالى واتقوا الله الذي
 تسألون به والارحام عطفنا على الضمير المجرور حتى قال بعضهم
 لو اني صليت خلف امام فقرأ بها لقطعت صلاتي وبعضهم وجه
 الجربان الواو للقسم فيكون الباري سبحانه قد اقسم بالارحام نوبها
 بفضلها وتشبيها على تاكد حثها ووجوب رعايتها ثم سمع النبي رجلا
 من وسط الحلقة يقول

وبينا المرء في الاحياء ينتبط

اذ صار في الرمس تسعة الاعاصير

كانه يعرض بالاعتراض على التخييم في استبداده في نفاذ بين

ان تضاف الى متعدد

قال الشيخ ليس يبدع ان يتخير حكم كلمة بتفسير ما نصم الله
 لان التركيب يزيل الانشاء عن اصولها ويحملها عن اوضاعها الا
 ترى ان ربّ الجارة لا يليها الا الاسم كقولك ربّ اجلم تله امك
 فاذا اتصلت بها ما غيرت حكمها واولها الفعل كقوله تعالى ربما

بود الذين كفروا لم كانوا مسلمين وكذلك لم اجازمة فانها حرف
 فاذا زيد عليها ما وهي حرف ايضا صارت اسما في بعض المواطن
 بمعنى حين ونظير ذلك في الافعال قل و طال فانها فعلان لا
 يستفيان من الاعل كما هو حكم جميع الافعال فان كل فعل
 لا بد له من فاعل فلا يلي الافعال الا الاسماء لفظا او تقديرا
 وهذان الفعلان لما دخلت عليهما ما الزائدة وتركبت معها استغنيا
 عن الفاعل و جاز ان اسمها الفعل نحو قولك طال ما زرتك و قل
 ما هجرتك وكذلك لم اشياء تتناب اساءوها باختلاف اوصافها فانهم
 لا يقولون لقدح كأس الا اذا كان فيه شراب ولا للبشر ركية الا
 اذا كان فيها ماء ولا لادلو سجيل الا اذا كان فيه ماء ولو قل ولا
 يقال له ذنوب الا اذا كان ملانا ولا يقال للبستان حديقة الا اذا
 كان عليه حائط ولا للانا كمر الا اذا كانت عليه عروة والا
 فهو كوب ولا المجلس ناد الا وفيه اهله ولا المرأة ظعينة الا وهي
 في الهودج ولا للستر خضر الا اذا اشتمل على امرأة ولا للقح سهم
 الا اذا كان فيه نصل و ريس ولا للسرب نفق الا اذا كان نافذا
 ولا للخط سمط الا اذا كان فيه نظم ولا للماء الفم رضاب الا ما
 دام في الفم ولا لما يتخذ لتقديم الطعام عليه مائدة الا اذا كان عليه
 الطعام والا فهو خوان ومنل ذلك كثير في كلامهم وهذا من اسرار
 اللغة العربية التي لم يطلع عليها الا من تتبع مواقع استعمالهم وتصلح
 من موارد كلامهم

ثم قال له اخر لماذا لقبوا امرء القيس بذي القروح وبالناثد
مع ان له كلاما كثيرا غيرها

قال الشيخ لا بدع في ذلك فان الانسان قد ينسب الى ما
اختره وقد ينسب الشاعر نفسه الى بعض كلامه ومن ذلك قول

دعبل الخزاعي انا ابن قولي

لا تعجبي يا سلم من رجل * لعب المشيب برأسه فبكي

وقول ابي تميم انا ابن قولي

قل فوادك حيث شئت من الهوى

ما الحب الا للحبيب الاول

كم منزل في الارض يألفه الفتى

وحنينه ابدأ لاول منزل

وقول محمد بن وهيب انا ابن قولي

ما لمن تمت محاسنه * ان يعادي طرف من رما

لك ان تبدي لنا حسنا * ولنا ان نعمل الحدقا

قال له اخرو كان له اطلاع على دواوين الشعراء اظن ان

دعبلا سرق معنى بيته السابق يعني قوله لا تعجبي الخ من قول مسلم

بن الوليد

مستعبر يبكي على دمنة * ورأسه يضحك منه المشيب

قال له الشيخ نعم الا ان دعبلا جاء به اجود فصار احق به

منه وقد تفتن الشعراء من بعده في نظم هذا المعنى فنه قول بعضهم

تسم الشيب بذقن الفتي * بوجب مع الدمع من بُخفته
 حسب الفتي بعد الصبا ذلة * ان يضحك الشيب على ذقنه
 ولما علم الشيخ ان لم يفن البديع بعض المام قال وفي هذه
 الايات عند علماء البديع من الجناس ايها التضاد وهو الجمع بين
 معنيين غير متقابلين بلفظين يوهان ذلك وذلك لان المراد من
 ضحك المشيب وتسمه ظهوره وهو بهذا المعنى لا يقابل البكاء ولا
 مع الدمع وانما يقابله بلفظه فلذلك سمي بايها التضاد وكما كثر
 عدد المقابلات كان الكلام ابلغ فقد تكون المقابلة بين شيتين
 كالايات المقدمة وقد تكون بين ثلاثة كقوله

ما احسن الدين والدنيا اذا اجتمعا

واقبح الكفر والافلاس بالرجل

وكقوله

فلا الجود يفني المال والمجد متبل

ولا الجمل يقي المال والمجد مدير

وقد تكون بين اربعة كقوله

قابلتهم بالرضى والبشر منشرحا

ولوا غضابا فيا حزني لغیظهم

وقد تكون بين خمسة وخمسة كقوله

ازورهم وسواد الليل يشفع لي

واتني وبياض الصبح يغري بي

وكفوله

راحت تحب دجى شباب مظلم

وغدت تعاف ضحى مشيب نير

وقد تكون بين سنة وستة كفوله

على رأس عبد تاج عز يزينه

وفي رجل حر قيد ذل يشينه

فقال له بعض القوم سمع ان هذه القصيدة وهي قفا

نبك الخ يقال لها احدى المعلقات السبع فما المعلقات وما سبب

تسميتها بذلك

فقال الشيخ كانت العرب في الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر

في اقصى الارض فلا يعبا به ولا ينشده احد حتى يأتي به مكة

فيعرضه على اندية قريش فان استحسنوه روي عنه وكان فخرا للتائله

وان لم يستحسنوه طرح ولم يعبا به فكانت العرب في الجاهلية تجتمع

في كل عام بمكة وتعرض اشعارها على هذا الحي من قريش واول

شعر علق على الكعبة شعرا مرى الفيس هذا فعلقه على ركن من

اركانها ايام الموسم حتى نظر اليه اهل الموسم فتبعه الشعراء وعلقوا

قصائدهم من بعده ولما كانت ايام بني امية اخذوا بعض امرائهم

منها سبعا فسببت المعلقات السبع فهذه احداها وهي من البحر

الطويل وعدتها ثمانون بيتا الا بيتا والثانية لطرفة ابن العبد وهي

من الطويل ايضا ومطلعها

رہ اطلال بركة ثمديد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وقوفا بها صحبي علي مطيم يقولون لا تمهلك اسي وتجلد

وهي مائة بيت وبيتان

والثالثة لزهير بن ابي سلى المزني وهي من الطويل ومطلعها
امن ام اوفى دعنة لم تكلم بمجومة الدراج فالمثلم

ودار لها بالرحمين كانها مراجيع وشم في نواشر معصم

وهي اثنان وستون بيتا

والرابعة لليد ابن ربيعة العامري من الكامل ومطلعها

عفت الديار محلها فمقامها بنى تأبد غوها فرجامها

فمدافع الريان عرى سبها خلقا كما ضمن الوحي سلامها

وهي سبعة وثمانون بيتا

والخامسة لعمر بن كعثوم من الوافر ومطلعها

الا هي بصحنك فاصبحنا ولا تبقي خمور الاندرينا

مشعشة كان الحمر فيها انا ما الماء خالطها سخبنا

وهي مائة بيت وواحد

والسادسة لعنترة بن شداد من الكامل ومطلعها

هل عادر الشعراء من متردم ام هل عرفت الدار بعد توهم

يا دار عبله بالجواء تكلم وعمي صباحا دار عبله واسلي

وهي خمسة وسبعون بيتا

والسابعة للحارث بن حلزة البشكري من الخفيف ومطلعها

اذتتنا بينها اسماء رب ثاور يمل منه الثواء
بعد عهد لنا ببرقة شأ فادنى ديارها الخلاء

وهي ثمانون بيتاً

وكان سبب انشاء امرئ القيس لتصيدته هذه انه كان
يعشق عنيزة ابنة شرحبيل وكان لا يحظى بلقائها ووصالها فانتظر
ظعن الحى وتخلف عن الرجال حتى اذا ظمنت النساء فسبقن
الى الغدير المسمى دارة جلجل واستخفى هناك اذ علم انهن اذا
وردن هذا الماء اغسلن فيه فلما وردت عنيزة والعدارى
اللواتي كن معها ونصون ثيابهن وشرعن في الماء ظهر امرئ
القيس وجمع ثيابهن وجلس عليها فلما رأته اكبرن هذا الامر
وشق ذلك عليهن وناشدنه ان يخلي سبيلهن فحلف ان لا يدفع
اليهن ثيابهن الا بعد ان يخرجن اليه عوارى فخصمه زماناً طويلاً
من النهار فأبى الا ابرار قسمه فخرجت اليه او فحهن فرمى نياجهن اليها
ثم تابعن حتى بقيت عنيزة واقسمت عليه فقال لها يا ابنة الكرام
لا بد لك من ان تفعلى مثل ما فعلن فخرجت اليه فراها مقبله
ومدبرة فلما لبسن ثيابهن اخذن في عنائه فقلن له فد جوعتنا
واخرتنا عن الحى فقال هن لو تغرت راحلتى لكن انا كلن فقلن نعم
فعفر راحلته ونجزها وجمعت الاماء الحطب وجعلن يشنوين اللحم
وياكلن الى ان شبعن وكان معه ركوة خمر فسقاهن منها فلما
ارتحلن اتسمن امتعته فبقي هو فقال لعنيزة يا ابنة الكرام لا بد لك

من ان تحمليني واحمت عليها صواحبيها ان تحمله على مقدم هودجها
فحمله فجعل يدخل رأسه في الهودج ويقبلها وهو يشبر الى ذلك
كله في قصيدته ومع علو منزله امرئ القيس في البلاغة
وشهادة الاولين والآخرين له بذلك فهو قائد الشعراء الى النار
يوم القيامة لان ابامرة اغراه على قبائح مارت سنة عنه وصار قدوة
فيها وان كان من اهل الفترة وقد قال الله تعالى وما كنا معذبين
حتى نبعث رسولا فتعذبه من بين اهل الفترة بحكم يعلمها
الباري سبحانه

واستمر الشيخ يتحفهم بلمحه الى ان جاء الوقت المقدر للقيام
وكاد من كثرة ما اتى عليهم ان يخرج عن المقام وقد بهرت عقولهم
جلالته وملأت قلوبهم مهابة لرقه تعبيره ودقة تقريره واتساع فهمه
وغزارة علمه فلما ختم الدرس وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم
قام اليه صاحبه الانكليزي ورئيس الجمعية ونائبه ووضعوا ايديهم
في يديه ومشوا ومعظم اهل المجلس حافون به الى ان وصلوا محلا
قد اعد للاستراحة فخصوا الشيخ بصدر المجلس وكان قد بقي في
نفس بعض الطلبة بعض مسائل هاب ان يسأل عنها في اثناء
الدرس فلما شربوا الازهوة قال قد ذكرت لنا ايها الاستاذ ان
العرب كانوا في ابتداء امرهم لا يلتفت الى نظمهم وتترهم الا بعد
شهادة قريش لهم فمن قريش وما قدر ما حازوه من فنون
الادب حتى اذعن لهم جميع العرب

فقال الشيخ قد سألت عن علاصيتهم وشاع واتشر فخرهم
 في البقاع خلاصة ولد فحطان وصفوة سلالة عدنان ومن بلسانهم
 نزل القرآن قوم كانت البلاغة شعارهم والنصاحة دثارهم
 حازوا الفضائل تفصيلاً وجلا واحسبوها نهلا وعلا قوم قد
 تباعدوا عن عننة تميم وتلتله بهراً وكشكشة ربيعة وكسكسة بكر
 وططمانية حمير وغنمة قضاة فقال ما ذاك ايها الحبر لقد زدني
 شرقاً لبيانك ونظماً لبيانك

فقال اما عننة تميم فانهم يدلون من الهمة عيناً ومنه قوله
 اعز تومت من خرقاء منزلة

ماء الصباية من عينك مسجوم

يريد اثن تومت

واما كشكشة ربيعة فانهم يدلون كاف المخاطبة سينا فيقولون
 ما بش وما لس يريدون ما بك وما لك ومن ذلك قوله
 فعيناش عيناها وجيدش جيدها

ولكن عظم الساق منس دقيق

ومنهم من قلب الباء ميما والميم باء انا كانا في اول الاسم
 فيقولون في نحو بكر وبجر وبدر مكر ومجر ومدر وفي نحو مسجد
 ومعبد بسجد وبعبد ومن ذلك ما يحكى عن ابي عثمان المازني
 وكان يحكم بلك اللغة قال دخلت على الواثق فقال لي من
 الرجل فقلت من مازن فقال من اي الموازن مازن تميم ام قيس ام ربيعة

قتلت له من مازن ربيعة فكلمني بلغة قومي وقال لي بسمك وكان
اسم الشيخ بكر قال فكرهت ان اجيبه بلغة قومي كراهة ان اواجهه
بالمكر فقلت له بكر يا امير المؤمنين ففطن لما قصدته وكان من
الفطنة بمكان ومن فطنته ما حكى انه كان بخضرته جارية نغيبه

قول القائل

أظلم ان مصابكم رجلا اهدى السلام نحية ظلم
فاختلف من بالخبرة في رجل فمنهم من نصبه على انه
اسم ان ومنهم من رفعه على انه خبرها و التجارية مصره على ان شيخها
ابا عثمان المازني لعنهما اياه بالصعب فسأله عنه فقال الوجه النصب
فقال ولم ذلك فقال لان مصابكم مصدر بمعنى اصابكم فعارضه
بعض من المجلس فقال له المازني هريرة لقتلك ان ضربك زيدا
ظلم فرحلا مفعول مصابكم والدليل عليه ان الكلام معلق الى ان
تقول ظلم فتم الكلام فاستحسن الواثق الجواب وامر المازني بالف
دبنار واما كسكسة بدر فانهم يزيدون على كاف الموشة سينا عند
الوقف ليبينوا حركة الكاف فيقولون للمرأة مررت بكس واكرمتكس
واما نغيبه قضاة فصول لا يفهم تسليح حروفه

واما طمطانية حير في ما في لغتهم من الكلمات المستنكرة
فمنهم من يجعل اداة التعريف ام بابدال اللام مما فيقولون طاب
ام شراب يريدون طاب الشراب ومنه ما روي عن النبي صلى الله
عليه وسلم لما سأل سائل وكان حبريا امن امير اصيام في ام

سفر فقال له النبي صلى الله عليه وسلم وكان يكلم كل قوم بلغتهم
ليس من امبرءامصيام في امسفر واما تثلثة بهراء فانهم يكسرون حرف
المضارعة فيقولون انت تعلم بكسر التاء ونحن نعلم بكسر النون وهو
يعلم بكسر الباء

ثم قام في المجلس سائل فقال للشيخ ولم سميت قريش قريشا
فقال له لان القرش في اللغة يطلن على دابة من دواب البحر تغلب
ولا تغلب فسمي احد اجدادهم قريشا تشبيها بتلك الدابة وكل من
كان ينتهي نسبه اليه يسمي قريشا

وقد اخلف المؤرخون في ذلك الجدل الذي لقب بقريش
قبيل هو فخر بن مالك بن النضر وقيل هو النضر بن كنانة كما
قال صاحب السيرة

اما قريش فالاصح فهر جماعها والاكثر النضر
فقال السائل وحيث كان هذا الجدل عظيما فلم صغر اسمه فقال
الشيخ تصغيره ليس للتخثير بل للتعظيم على حد قول القائل
ما قلت حبيبي من التخثير

بل يعظم اسم الشيء بالتصغير

فقال السائل وهل ورد عن العرب التصغير لغبر التخثير قال
نعم من سنن العرب تصغير الشيء اما لتخثيره كقولهم في رجل
رجيل وفي دار دوية واما لتكبيره وتهويله كقولهم ابيد

وكل اناس سوف تدخل بينهم

سوية تصغر منها الانامل
واما لتقيصه كما يقال لم يبق من بيت المال الا دُنَيْبَاتٌ واما
لتقريبه كقول امرئ القيس يصف فرسه بطول الذيل
وانت اذا استدبرته سد فرجه

بضاف فويق الارض ليس باعزل
اي بذيل طويل فضاف صفة اوصوف محنوف وكقولك ازورك
بعيد العيد وجماعي فلان قبيل الظهر لان التصغير في الظروف
بمعنى التقريب

واما لآكرامه والشقة عليه كقولك يا بني ويا اخي وكقول
لهمان لانه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم
واما لتشريفه وتعظيمه كما هنا وكفى اولئك اليوم شرفا على
سائر الانام قول نبينا عليه الصلاة والسلام ان الله اصطفى كنانة
من ولد اسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفاني من قريش فانا
خيار من خيار من خيار فقال له كيف يحفظ نسبهم الى اسماعيل
وقد مضى له من الزمن اجيال فقال له ان العرب عموما من عاداتهم
المحافظة على انسابهم فكيف نسب من كان منهم سيده العالمين
وصفة الله من الخلق اجمعين فهو محمد ابن عبد الله بن عبد
المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن
كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة

بن خزيمة بن مدركة بن الياس ابن مضر بن نزار بن معد بن
عدنان بن اذ بن اد بن اليسع بن الهميسع بن سلامان بن نبت
بن حم بن قينار ابن اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليها السلام لكن
النسب الصحيح تفصيلاً ينتهي الى عدنان وهو المجد المئتم عشرين
وما زاد على ذلك الى اسماعيل فلم يرد فيه حديث صحيح وقد جمع
بعضهم اباؤه صلى الله عليه وسلم في بيتين من الشعر على طريق
الرمز الى كل اب باول حرف من حروف كلماتها وهما
علقت شفيحاً هال عني قرانه

كتاب ميين كسب لي غرائب

فدى معشر نفسي كرام خيرة مدا الفهم بذنيل مجد عواقبه
فالعين في علقت اشارة الى ابيه عبدالله والشين في شفيحاً
اشارة الى جده شيبه الحمد وهو عبد المطلب والهاء في هال اشارة
لهاشم وهكذا

وكان من عادة الشيخ اذا فتح له باب في الكلام يطنب فيه
ولا يخرج منه حتى يستوفيه فلذلك قال وكان اسماعيل حين
اسكه ابراهيم بمكة كما هو مذكور في القرآن وحد بها قبائل من
جرهم بن قحطان وهم العرب العاربة فلما كبر اسماعيل تزوج منهم
امراً فولد له منها اثني عشر ولداً ذكراً وقبيل لهم ولذريتهم العرب
المستعربة وانما قبيل لهم ذلك لان لانة اسماعيل كانت عبرانية فلما
تزوج من جرهم تكلم بالعربية فمعنى المستعربة اي المكتسبة للعربية

بجلافة العاربة فعناه المأصلة في العربية وكان قبل جرم بن
فحطان عرب يقال لهم طسم وجديس وكانت مساكنهم بالهامة من
جزيرة العرب ولكنهم اقترضوا عن اخرهم ولم يبق لهم اثر ولم يثقل
عنهم بعد ذلك خبر وذلك ان الملك كان في طسم فاستمروا على
ذلك مدة من الزمن حتى انتقل الملك الى رجل منهم غشوم
ظلم جعل سنته ان لا تزف عروس بكر من جديس الى بعلاها
حتى يدخل هو عليها فأنت جديس من ذلك وديروا
في قتله ودفنوا سيوفهم في الرمل وعملوا له ولخواصه طعاما دعوه
اليه فلما حضر في خواصه من طسم عمدت جديس الى سيوفهم
فقتلوا الملك ومن لخموه من خواصه فهرب رجل من طسم الى تبع
ملك اليمن وشكا اليه ما فعلته جديس بملكهم واستنصر به فسار
ملك اليمن الى جديس واورق بهم حتى افناهم عن اخرهم فلم يبق
لطسم ولا لجديس بعد ذلك ذكر فلذلك سميت العرب البائدة
ولذلك جعل المؤرخون العرب ثلاثة اقسام بائنة وعاربة
ومستعربة فالبائدة هم العرب الاول الذين ذهب عنا تفاصيل
اخبارهم لتقدم عهدهم وهم عاد وثمود وجرهم الاولى وكانت على عهد
عاد

فلما اظنبت الشيخ في وصف العرب ونسبتهم وتفضيل عنصرهم
ولغتهم قال له بعضهم ايها الاستاذ قد اجمع اهل الملل واصحاب
النحل من المتأخرين والمتقدمين على ان القران عربي مع اننا نجد

فيه الفاظ منها ما هو فارسي وما هو سرياني وما هو عبراني وما هو باللغة الحبشية وما هو بالعجمية كالارائك في قوله تعالى على الارائك ينظرون فانها حبشية ومعناها السرور وكلمت فانه اسم للشيطان او الساحر وهي حبشية ايضا ومعناها بها كذلك وكالدري فان معناه المضي وهي حبشية ايضا ومعناها بها كذلك وكالباريق فانها فارسية ومعناها طريق الماء او صبه على هيئة ونحو سراق فانها سريانية ايضا واصلا سرادر ومعناها الدهليز او سرا برده ومعناها ستر الدار ونحو حسب في قوله تعالى للكفار انكم وما تعبدون من دون الله حسب جهنم فانها زنجية ومعناها حطب ونحو سري في قوله تعالى لمريم قد جعل ربك نحتك سريا فانها زنجية ومعناها النهر ونحو غساق فانها تركية بل طارية ومعناها البارد المتن ونحو الفوم فانها عبرية ومعناها الحنطة ونحو القسطاس فانها رومية ومعناها الميزان او العدل ونحو اليم في قوله تعالى لام موسى فاذا خنت عليه فالتقيه في اليم فانه سرياني ومعناه البحر وهكذا فامن لغة الا ونجد منها في القرآن الفاظا

قال الشيخ لا يخفى ان لغة العرب منسعة جدا حتى قال بعض ائمتنا انه لا يحيط بها الا نبي ومع ذلك فلا مانع من وجود بعض كلمات في القرآن بغير لغة العرب وقد ورد في الخبر الصحيح ان في القرآن من كل لسان على انها الفاظ محصورة يمكن عددا وهذا لا يخرج القرآن عن كونه عربيا فان وجود كلمات

يسيرة غير عربية في خلال كلام عربي لا يخرج عن كونه عربياً
ألا ترى ان القصيدة او الرسالة الفارسية مثلاً لا تخرج عن كونها
فارسية بوجود لفظ او بعض الفاظ فيها غير فارسية ولعل حكمة
وقوع مثل هذه الكلمات في القرآن وان كان كل كتاب انما
نزل بلغة القوم الذين انزل عليهم انه حوى علوم الاولين
والآخرين ونبأ كل شيء ومن لازم ذلك ان يكون فيه الاشارة
الى انواع اللغات والالسنه لتم احاطته بكل شيء وايضا فان
النبي صلى الله عليه وسلم مرسل الى سائر الامم فلا بد ان يكون
في كتابه طرف من لغة كل قوم وان كان اصله بلغة قومه
فاخبر له من كل لغة اعذبها واخفها واكثرها استعمالاً للعرب
وبعد ذلك كله فلا مانع من كون هذه الكلمات كانت في الاصل
غير عربية ثم وقعت للعرب قبل نزول القرآن فعربتها بالسنه
وحولتها عن الفاظها الاصلية الى لغتها فصارت عربية ثم نزل
القرآن وقد اخلطت هذه الكلمات بكلامهم فانزل القرآن الا
بلغتهم فقال السائل قد وقع في كلامك ذكر الشعار والدثار
والعلل والنهل فامعنى ذلك فقال الشيخ الشعار هو الثوب الذي
يلبي جسد الانسان لانه ملاصق لشعره والدثار الثوب الذي لا
يلبي الجسد بل يلبس فوق الشعار والنهل الشرب الاول للاهبل
والعلل الشرب الثاني لان الاهبل تشرب مرتين في العرضة
الواحدة الاولى نهل والثانية علل وهذه الالفاظ من جملة الفاظ

مزوجة من كلام العرب منها الهياط والمياط والعطيطة والاطيطة
والحي والي والمخ والمخ والساخ والبارح ومنها شذر ومذر
والشاح والباح والصادح والصابح وشاع وذاع وعزوبز والعجر
والجرو والطارف والتلبد والصادر والوارد والهزة والهزة والنصم
والنصم والنخضم والقضم والتامور والجمامور وكظ وبظ والعامر
والغامر والهدير والهير والفرح والمرح وحيص وبيص والهج
والثج الى غير ذلك فعجب السائل من كمال استحضار الشيخ وقال
لولا خوفاي من ملاك لسألت عن كل ما يخاطر ببالي مما سبقت
الإشارة اليه فقال الشيخ اني لا امل من ذلك بل هو عين
البغية فقال قد عبرت عن ابليس اللعين فيما مضى بأبي من فهل
له ابن يسمى مرة فقال الشيخ هذه كنيته ولا يلزم ان يكون له ولد
يسمى بذلك بل مجمل ومجمل لان العرب عدمهم في الاعلام
اسم ولقب وكنية فالاسم ما وضع على الشيء اولا واللقب ما اشعر
بمدح كزبن العابدين او ذم كاتق الناقة والكنية ما صدرت بأب
او ام كابي الفضل وام الخير ولو لم يكن للمسمى ولد يسمى
الفضل او الخير وهذا القسم وهو الكنية كثير في كلام العرب حتى
لغير الادميين وكما يكنى الشيطان بابي من يكنى ايضا بابي كدوس
وان شئت سردت لك جملة من كنى الحيوانات فقال السائل
اني اريد ذلك

فقال الشيخ ان كنية الاسد ابو الحمارت وابو فراس وابو

حفص وأبو الأبطال وأبو الزعفران وأبو العباس وأبو شبل وكنية
 الأعموان وأبو حيان وأبو يحيى وكنية ابن آوى أبو دثب وأبو كعب وأبو
 وائل وكنية البرذون أبو الأخطل وكنية البرغوث أبو طامر وأبو
 الوثاب وأبو عدي وكنية البغل أبو الأحمج وأبو المحرون وأبو الصقر
 وأبو كعب وأبو قهوص وأبو مختار وأبو ملعون وكنية البومقام
 خراب وأبو الصبيان وكنية التنين أبو مرداس وكنية الثعلب أبو
 الحصين وأبو النجم وأبو نوفل وكنية الثور أبو عجل وكنية
 الجرادة أم عوف وكنية الحداة أبو الخطاف وكنية الحرياء أبو
 قادم وأبو الزنديق وكنية الحرام أبو صابر وأبو زياد وكنية الخنزير
أبو زرعة وأبو عتبة وكنية الخنفساء أم الأسود وأم مخرج وأم النسو
 وكنية الدب أبو جهينة وكنية الدحاجة أم الوليد وأم إحدى
 وعشرين وكنية الديك أبو حسان وأبو اليقظان وكنية
 الذباب أبو جعفر وكنية الذئب أبو جعدة وأبو حدقة وأبو كاسب
 وكنية الرخمة أم قيس وأم جمران وكنية الزرافة أم عيسى وكنية
 السرطان أبو بجر وكنية السنور أبو خدش وكنية الصقر أبو
 منهل وأبو شعاع وكنية الظبي أبو الخشف وكنية الضبع أبو
 عامر وكنية الضفدع أبو المسيج وكنية الطاووس أبو الحسن وكنية
 النعام أبو البيض وكنية العصفور أبو محرز وأبو يعقوب وكنية
 العقاب أبو الحجاج وكنية العقرب أم عريط وأم ساهر وكنية
 العنكبوت أبو خبيثة وأبو قشعم وكنية ابن عرس أبو الوثاب وكنية

الغراب ابو حاتم وابو الجراح وكنية الفار ابو خراب وكنية
 الفرس ابو مضاء وابو مدرك وكنية الفيل ابو الحجاج وابو كلثوم
 وكنية القرد ابو خالد وابو حبيب وكنية القطا ام ثلاث وكنية
 القهري ابو ذكري وكنية القنفذ ابو سفيان وابو الشوك وكنية الكركي
 ابو عريان وابو نعيم وكنية النسر ابو الاصبع وكنية الناقة ام مسعود
 وام حوار وكنية النعجة ام الاموال وام فروة وكنية النمر ابو الاسود
 وابو جهل وكنية النمل ابو مشغول وكنية الهدد ابو الاخيار
 الى غير ذلك وقد يكون للواحد كنى كثيرة

فقال المحاضرون ايدك الله ايها الشيخ قد انعمت ارواحنا
 وازلت اتراحنا وجلبت افراحنا ثم قام الشيخ وقاموا ليودعوه فكان
 من جملتهم الطلياني الذي كان اجتمع به في مرسيليا فقال
 للشيخ اريد ان تشرفني غداً انت وصاحبك الانكليزي ومن تحب
 فقال له الشيخ يكون ذلك ان شاء الله ثم مضى مع الانكليزي الى
 المنزل وكان الشيخ لم يصل الفرض الذي عليه فلما انصرف
 الانكليزي الى النوم قام الشيخ فتوضأ وحبلى ثم التفت الى وئده وقال
 كيف كان الدرس فقال ما رأيك في جلالة منل ما رأيك
 في هذا اليوم ولقد كان قايي في هذا الامر بمنقن ولساني من
 هيبة المجلس يكاد ان لا يطق الى ان افتتح الدرس فاتجلى ما لي
 ونهب اضطرابي فكانت كل كلمة نطقت بها تسري في بدني كسريان
 الماء او الدواء اذا وافق الداء ولقد رأيك تارة تنأت في الكلام

وتطلب في توضيح المرام وتميط عن مخدرات المسائل الحجاب ونكشف
 عن وجوه مشكلاتها الثاب ولعبري لقد سررت في هذا اليوم
 اكثر من فرح الاطفال بعيد الصوم سيما وقد رأيت اهل الجمع
 كلم يشنون وبفضلك يعترفون فما جدلك مثلاً الا كما قال القائل
 غموض الشيء حين تذب عنه ثقال ناصر الخصم المحقق
 تضيق عقول مستبعيه عنه فيقضي للعجل على المدقق

فضمه والده اليه وقبله بين عينيه وانشد

ما ابيض وجه المرء في طلب العلا

حتى تسود وجهه في المبداء

ثم قال وانا اخبرك بما حصل لي وهواني كنت قبل قدومي
 عليهم احسب مجلسهم لا يعتريني منه ادنى نخيل ولا يمر بفكري منه
 وجل فلما قدمت اليهم واجلسوني على الكرسي مرتفعاً اعتراني
 بعض فتور وخشيت ان يفرط مني بعض هنوات فيتوهوا في
 التصور فلما استعدت بالله واستعنت به وفقني للصواب واتسع لي
 ميدان الخطاب وقد استغربت مهابتي لهذا المحضر مع اني كثيراً ما
 قرأت دروساً في جمع اعظم من هذا بالازهر وقد تم المجلس بفضل
 ذي الجلال والحمد لله على كل حال واريد الان ان ارجع بدني
 لان الخواجا في انتظاري لخرج الليلة للنزهة فان كان لك غرض
 في الخروج معنا فقم ادِّ فرضك وارح بدتك

المسامرة الثامنة والتسعون

البركة في الحركة

فخرج ابن الشيخ من عنده ابيه وأدى ما وجب عليه ثم ذهب الى يعقوب في غرفته فالح عليه يعقوب ان يدخل فأبى وقال إنما جئت لآخبرك بان والدي عازم على الخروج هذه الليلة مع الخوارجا للنزهة وقد أذن لي في الخروج معه وان حضرة الخوارجا في انتظاره فهل انت ذاهب معه فقال يعقوب ذلك غاية رغبتي لولا العذر وكان ابن الشيخ حريصاً على صحة يعقوب لما كان ليعقوب من العلم بالامور لكثرة تغريبه واسفاره فكان دائماً يستفيد منه معلومات تحسن بها آدابه وكان كل منها نانس بالآخر فلذا قال ابن الشيخ ان لم تكن معنا فلست بمتوجه معهم فقال يعقوب لا يلبق بك ذلك واضن انهم عازمون على

التوجه الى التياتر فتوجه انت معهم لتنظر ما هناك وفي غد
 نستأذن وتوجه نحو العين التي كنا بها سابقاً واتم لك هناك ما
 كنا شرعنا فيه ثم سمع نداء والده عليه فذهب اليه فوجده متهيئاً
 للخروج فمشى خلفه فوجد الخواجا في انتظارها والعربة حاضرة
 مهيأة للركوب فقال الشيخ اظن ان المشي انفع لنا واكثر فائدة لما
 فيه من التمكن من الاطلاع على كل ما نريه فستفيد منه علماً
 فقال الانكليزي هذا صواب ولكني اخشى عليك التعب وما اريد
 ان اشق عليك

فقال الشيخ جزاك الله عني خيراً فان لكبر السن حكماً
 وللعادة احكاماً وقد صدق القائل لكل امرء من دهره ما تعود
 فاني كنت وانا صغير في بلدي كثير الحركة والتقل فكنت صحيح
 الجسم سليم البنية قوي الحواس لا يقاومني في النشاط وخفة الحركة
 احد من اترابي فلما جاورت بالازهر رأيت حركاتهم قليلة بسبب
 طول الجلوس في المطالعة وليس عندهم وقت للنسجة فلاجل
 تحصيل العلم سلكت مسلكهم ولازمت السكون مع علي بان هذه
 عادة سيئة بالنسبة للصحة خصوصاً مع برودة البلاط وعدم الحائل
 الكثيف الذي يمنع برده عنهم ولقد صدق المثل من عاشر القوم
 اربعين يوماً صار منهم فكت اخرج من منزلي اول النهار الى
 الازهر فلا اعود اليه ولا اخرج من الجامع الا ليلاً بل لا اتحول
 من مكاني الا لأزالة ضرورة اوائه عبادة وكذلك في الليل

اجلس مجلساً واحداً للمطالعة حتى يتصف الليل فانام مكاني
وصار هذا ديدني مدة اقامتي بالازهر فتولدت لي بذلك الامراض
وتسلطت على جسدي الاستقام حتى آل بي الامر الى ان كنت اصلي
بعض الصلوات من جلوس لانه قد اعتراني تقاعد يشبه العجز
فان الجلوس يجبس الدم عن الجريان في العروق والاعصاب
ولقد صدق المثل ان في الحركة بركة ولما قدر الله لي السباحة
واجتمعت بمحضرتكم داخلني الشاط ودبت الصحة في جسدي بسبب
كثرة الحركة والانتقال وازدادت قوتي مع كبر سني فانا اليوم
اكره عدم الحركة حتى انا كنت منفرداً في غرفتي اراني احب القيام
والمشي فاقوم لانظر من الشايك واطلع على الاحوال فانا احمد
الله واشكره كثيراً على الامتاع بمحضرتكم وقد ادركت للسباحة
فوائد كثيرة حجة غير الحركة الداعية الى الصحة فمنها كثرة الاطلاع
وتحصيل الفوائد الدنيوية والاخروية ولقد صدق من قال
لو كان في شرف المأوى بلوغ مني

لم تبحر الشمس يوماً دارة الحمل

ومنها زيادة البركة في العمر فان كثرة الاطلاع بمنزلة زيادة
العمر وقلة الاطلاع بمنزلة قصر العمر كما قيل
وفي الجهل قبل الموت موت لاهله

فاجسامهم قبل القبور قبور

وقد قالوا ان الماء الراكد عرضة للتغير فكهوا الاغتسال فيه

بخلاف الماء الجاري فهو بعيد عن التغير ولا نكره استعماله بحال
فهو أكثر نفعاً ثم مشياً وابن الشيخ خلفها واستمر في الكلام على
الحركة

قال الخواجه لا شك ان الانتقال يبلغ الامال والتعود
يفيت المقصود والتعود على الحركة مما يتوي البدن ويبرئ كثيراً
من الامراض ولذلك مدحها الحكماء وحث عليها الاطباء واما
كثرة السكون فيتولد عنها الكسل وخيبة الامل وبرودة الدم
وكثرة العلل وما يدل على وجوب الحركة ان الخالق سبحانه وتعالى
حكم بها على جميع الموجودات حتى على الشمس والقمر وسائر
الكواكب التي في السماوات فان القمر يدور حول الارض والارض
تدور حول الشمس وبالجمله فلا شيء من العالم ثابت مطلقاً
فالكون وما حواه من حيوان ونبات وجماد وشموس واقمار
وغيرها ما لا يعلم كنهه الاً مكنونه يتحرك بجهلته فضلاً عن حركة
اجزائه صغيراً وكبيراً وما ذلك الا للحكمة بالغة اقتضتها ارادة
مدير الكون ومديره فالزلازل التي يظهر اثرها على الكرة الارضية
تنبئ عن حركة عظمى في باطنها وسر يبلغ اودع في جوفها
وكذلك الحوادث الجوية كالعواصف والصواعق فانها تدل على
ان السماوات دائماً في حركة فليس الحكم بالحركة خاصاً بالاجسام
الحيوانية والنباتية بل هو شامل لها ولبغيرها حتى الجبال والبحار
وقد قيل ان جبال الجهة القطبية الشمالية تشقت في قدم الزمان

وتهددت وانتقلت صخورها الى الجهات القطبية الجنوبية وبعد
ان مزقت حرارة الجهات التي مرت بها طبقاتها الثلجية فمنها ما
رسب في قاع البحر ومنها ما استقر في صحاري اسيا وافريقيا فكل من
مر بها وتأمل هياتها ونظر الى تركيبها علم انها ليست من جنس
الارض التي هي بها بل انتقلت اليها من جهات بعيدة
لحوادث عنيفة واسباب قوية ولم تنزل مثل هذه الامور تحصل
الى الان فاحيانا ياخذ البحر صخوراً من جهة ويسير بها الى جهة
اخرى وتارة ينضم بعضها الى بعض فتقف بالشواطئ فتكون
سواحل وتارة تترام في جهة من قاع البحر فتكون جزائر فيكسوها
مرور الدهر اتساعاً ويكسوها تداول الايام عمراناً وارتفاعاً فسبحان
القادر على كل شيء وهو الفعال لكل شيء وكما فعل سبحانه
وتعالى فيما نراه فكذلك يفعل فيما لا نراه فمن ذلك ظهور الجبال
في ارض لم يكن بها منها شيء وكذلك ما يظهر وسط البحار من
الشعاب والجزائر والجبال التي لم تكن من قبل وما ذاك الا التحكم
بالحركة التي دبر الله بها الاكوان ورزق بها الحيوان واغرب من
ذلك دقيق الرمل والحصى فان اصلها صخور ضخمة تكون على
قم الجبال الشاهقة عرضة لتأثير حوادث الجو من الحرارة والبرودة
والامطار والثلوج والرياح فتفتت وينقلها السيل وتنسفها الرياح
فتارة تلقى في اغوار الارض فيرتفع بها ما كان منخفضاً ويخصب ما
كان مجدياً وتارة تلقى في البحر فتترام فيه ونعظم حتى تحوله عن

موضعه فانظر صنع الصانع كيف سلط على الحيال ما اثر فيها
ففتتها رمالاً وحصىً ثم ارسل عليها ما قذف بها الى البحار حتى
حولتها عن مواضعها فسبحان الحكيم العليم فمن تأمل في مجاري
الانهر واشجان ومصايبها رأى ان كل ما يحدث فيها من الجزائر
انما هو من الاجزاء الدقيقة التي جرت بجريانها ومن امعن النظر
وتبع كتب التاريخ والاثر وجد هذه الانهار قد تحولت عن
مجايرها الاصلية حتى صارت مواضعها الاولى ارضاً ذات مزارع
وبساتين ومساكن ونحو ذلك ومن ذلك اقاليم مصر البحرية فقد
قالوا انها انما تكونت مما تخلف عن نهر النيل من الطمي كما ان
ما يجلبه نهر الطونة والرين من تلك المواد الدقيقة كل عام يسد
مصبتها وكذلك نهر المسيسيبي بامريكا فانه لضعف جريانه لا يقوى
على دفع ما فيه من الزبد والرمل فيحدث من ذلك في كل سنة
ارض جديدة بخلاف نهر الكنج الذي هو احد انهار الهند فانه لقوة
دفعه وسرعة جريانه لا يبقى في قراره شيئاً ما يأتي به بل يأخذه
معه حتى يلتقي على شاطئه البحر الملح فمن مصادمة الصخور والشعوب
ونحوها لما يقذفه على مدا الازمان تكونت عنه ارض تبلغ مائتي ميل
وهناك اسباب اخرى لا ندركها تحدث احياناً بظواهر الكرة الارضية
فانا نجد في بعض الجهات ارضاً قد ارتفعت شيئاً فشيئاً واخرى
قد انخفضت كذلك ولا نشعر بها ولا ندركها لطول الزمن الذي
مرّ عليها فلما اطلعنا على حال الارض في الازمان السابقة وحالها

في الازمان اللاحقة لجزمنا بان الكرة الارضية وما فيها من اول
 خلقها الى الان دائماً في حركة وتموج كتموج المياه فيخفص ما
 كان مرتفعاً ويرتفع ما كان منخفضاً وقد استدلووا على ذلك بانحطاط
 ما بين مدينة صور وثر اسكندرية عما كان عليه ايام الرومان
 وبارتفاع ارض الروسية الشمالية عما كانت عليه فانها كانت غامرة
 بالماء ثم انجلى عنها فظهرت وبني بها مدائن وقد وجد في ارضها
 بعد انحسار الماء عنها كثير من العاج متخلفاً عن الحيوانات التي
 غشيتها تلك الحادثة حتى ابتلعنها الارض

وقد استفيد من التواريخ ان كثيراً من المين القديمة صارت
 الان ارضا قارة وان كثيراً من المدن صارت في قاع البحار فهذا
 ايضا مما يدل على ان كرة الارض دائماً في حركة ومن ذلك تأثير
 الشمس في البحر فيرتفع منه بخار فينعدد سحاباً ثم يسير الى الجهة
 التي يسوقه الله اليها فيسقط على الارض اما مائه سا او متجهداً ثم
 يناع لتأخذ منه ما يكفيها ويكفي ساكنيها جميع السنة ومن ذلك
 الرياح فانها هي التي تسير السحاب من جهة الى جهة على مقتضى
 ارادته سبحانه وتعالى وان كنا لا نعلم من اين تأتي ولا الى اين تذهب
 وبالجملة فلم يخلق الله شيئاً الا وفيه سر وله حركة اما على انفراده
 واما بامتزاجه مع غيره ولو اراد العارف استقصاء الكلام على ادنى
 شيء من المخلوقات لاستغرق فيه العمر ولا يفضى به الحال الى تفويض
 العلم بالحقيقة الى من له الخلق والامر

فقال الشيخ وقع لي كتاب قد مسحته يد الزمان والحقته في
 النسخ بنجر كان فتصفحته فوجدت فيه ما يقرب من ذلك وهو ان
 الله تعالى لما خلق الكون بقدرته ودبره بحكمته جعل الافلاك العلوية
 والكواكب السماوية بمنزلة الآباء وجعل الاركان الاربعة وهي
 التراب والماء والنار والهواء بمنزلة الامهات فاقضت حكمته تعالى
 انه اذا نصت اشعة الكواكب التي هي بمنزلة الآباء بالاركان
 الاربعة التي هي بمنزلة الامهات حدثت المواليد الثلاثة التي هي
 المعدن والحجون والنبات فما وجدت المواليد الثلاثة الا بحركة
 اتصال الآباء بالامهات وهذه الاركان الاربعة وان كانت
 كالامهات بالنسبة للمواليد الثلاثة الا انها متولدة عن غيرها ايضا
 لانهم يقولون ان الحرارة اتصلت باليبوسة فاتجنا ركن النار ثم اتصلت
 بالرطوبة فاتجنا ركن الهواء ثم اتصلت البرودة بالرطوبة فاتجنا ركن
 الماء ثم اتصلت باليبوسة فاتجنا ركن التراب فحصل في الابناء خلائق
 الآباء والامهات فكانت النار حارة يابسة فحارتهما من جهة الاب
 ويوستها من جهة الام وهكذا فانظر كيف جعل المولى كل صفة
 من صفات الاشياء مكتسبة وراجعة الى اصلها

وفي اثناء ذلك الكلام وصلوا الى باب بستان يسمى لو كسانبور
 وهو من الاماكن المشهورة المعدة للنزهة فدخلوه فوجدوا به خلنا
 كثيرا على عادتهم في اوقات نزهتهم فطافوا فيه برهه وتخبروا للجلوس
 ناحية منه قد راق منظرها وخضرتها وحلت في اعينهم نضرتها

اغصانها دانية وعينها هامية فالوا الى ذلك الموضع فكانوا يبحثون كل من يمر عليه فحجب الشيخ من كثرة المارين واختلاف حياتهم

فقال الانكليزي لو تأملنا في هؤلاء الخلق واختلاف السننهم واجناسهم واللوانهم وسألنا كل واحد منهم على حدته من قطره وبلدته واصل منشئه ومنبته لوجدنا فيهم من جميع الجهات من هندي وصيني وتركي وشامي وغير ذلك وها هو حضركم مصري والتعبير انكليزي قد فارقنا الاوطان وجمعنا هذا المكان فإيلا الحركة في طلب المعاش ما خرج احد عن بلده ولو عاش الى ان يرى ولد ولد ولده وليست هذه الحركة خاصة بنوع الانسان بل كذلك انواع النبات والحيوان فانها تنقل من جهة الى جهة ومن قطر الى قطر انما النبات لا يتقل حالة كونه نباتا بل بذره هو الذي يتقل فقد يأخذ الريح بذرا من ارض فلقيه في ارض شبر ارضه وقد يكون البذر في اجواف الحيوانات وحواسل الطير فاذا انتقلت من ارض الى اخرى القته فيها فينبت وابل هذا معنى ما قيل ان ربع ما على الكرة الارضية من النبات ابذر الاجنحة او شبه الاجنحة فيطير بمعونة الهوا حتى اذا سكن وقع فينبت حينئذ استقر ومن اسباب انتقال الحبوب والنباتات ايضا السيل والخلجان والبحار فكثيرا ما يأخذ البحر المحيط من جزائر انواعا من الفاكهة والنول واغصان الشجر ويسير بها حتى يلقها في مواضع شبر

مواضعها فنبت فلذلك نجد في بعض الاحيان نبات ارض قد
ظهر فجأة بارض اخرى لم يعهد بها من قبل

وتواريخ الامم والاثار القديمة منبئة بان النبات يبع في حركته
حركة الشمس في مدارها من المشرق الى المغرب فجميع ما نراه في
ارضنا هذه كان اصله في جهة الشرق ثم انتقل منها اليها وكذلك
جميع ما بالاعرض فمن ذلك شجر البن والشاي وقصب السكر
والاموز والتطن والكنان والتيل والفول والثناء جميعها اصل
منبتها ببلاد المشرق ثم انتقلت غير ان الاثين الاخيرين لم يدخلوا
بلاد اليونان الا بعد ايام اسكندر المقدوني وقد خلق الله سبحانه
وتعالى شجر الخبز وجوز الهند وشجر التمر وجعل فيها خاصة
الاقنيات وقيام منبت الانسان وتعيشه لكن لما اقتضت ارادته انها
لا تثر الا في جهات خاصة جعل حكمته الباهرة وقدرته البالغة
نباتات اخرى تثر في كل ارض ولا تخص بجهة دون جهة
وذلك كالحنطة والشعير والقطاني ونحوها فان انواع النبات عموماً
تبلغ نحو اربعة الاف نوع منها عشرون نوعاً صالحة للغذاء وصالحة
لان تزرع في كل ارض فتكون في الارض المحترقة بحرارة الشمس
كما تكون في الارض المغطاة بطبقات الثلج

فقال الشيخ اظن ان اول ظهور جميع الاقوات بل ما على
وجه الارض من الحيوان والنبات كان بالهند ثم انتشرت منه الى
سائر الجهات لما روي من ان ادم لما اكل من الشجرة التي نهي عن

قربانها واهبط الى الارض كان نزوه بملك البجته فعمل صنعة الحديد وامر بالحرث فحرث وسقى وحصد ودرس وذرى وطحن وعجن وخبزواكل فلما حضرته الوفاة احاطت به الملائكة فجعلت حواء تدور حولهم فقال لها ادم خلي ملائكة ربي فانه ما اصابني ما اصابني الا من قبلك فلما توفي غسلته الملائكة وحنطته وكفنته في وتر من الثياب وحفروا له وحملوه ودفنوه بـرنديب بارض الهند وقالوا لبيته هذه ستكم من بعده فهذا الابر يدل على ان اصل الاقوات بل والمعادن والحيوان كان مـرجداً قبل نزول ادم في هذا المكان ثم ما زال يتشر من مكان الى مكان الى ان اتى الطوفان وقسم نوح الارض بين اولاده فاخذ كل واحد منهم من ذلك مايسر ونهب به الى بلاده

فقال الانكليزي هذا كلام معقول ولذلك يقول اهل الهند ان مقدسهم ابراهيم نزل من السماء وعلمهم صنعة الزراعة واستعمل الحيوان فيها والمصريون نسبون ذلك الى ايزيس واليونان ينسبونه الى سيرابيس وواقفهم على ذلك سكان البيرو من امرنا في النرة خاصة ولذلك يزرعونها عندهم حول معبد الشمس في الارض المقدسة وهي ارض مرتفعة عن سطح البحر اثني عشر الف قدم والمستفاد من كتب التاريخ ان استنبات نباتات الغذاء ما وصل الى المغرب الا من جهة المشرق وان اول ظهورها كان باسيا وانا وان كنا نجزم بان بعض النبات نزل من الجنة لكننا لا

ندري متى نزل ولا في اي بقعة نزل

ويقال ان الامة الشركسية من بين جميع الامم هي التي وسعت
دائرة انتشار انواع الزراعة وان ما باوروبا من النباتات منقول
اليها فنحو الخوخ والقوق والبندق اصله من بلاد العجم ونحو
البرتقان من بلاد الصين ونحو البطاطس والذرة من الامريتا
وينسب ايضا اليهم زرع الارز والقطن في ساحل البحر
المتوسط

ثم صاروا كل ما نجح بارضهم شيئا زرعه فيما استولوا عليه من
الاقطار ولذلك لا نجد في اوروبا شيئا من الحبوب والفواكه الا في
امريتا نظيره وهم الذين غرسوا شجر الكرم بجزيرتي مدير وكناريا
وسائر ابلاد التبلة من افريتا وامريكا وكذلك القطن والارز
بمجات برنيليا والامازوني (الولايات المتحدة) وجوز الطيب
والقرنفل بجزيرة موريس وجزيرة بوربون وجزائر الهند وكذا الشاي
بيرنيليا والهند وجاوى وساعدتهم العرب في نقل شجر البن وقصب
السكر والنخل والقطن من بلاد الهند الى بلادهم ولم ينقل ذلك الى
الديار المصرية الا فيما بعد واما الصينيون فاخذوا زرع القطن
من بلاد الهند ستان كما تعلم اهل يابونا زرع الشاي من الصينيين
واما البر والشعير فوجودها باوروبا قديم

. وفي كلام بعض قدماء المؤرخين والشعرا ما يدل على ذلك

وقال بعضهم ان اصلها من الهند وان الذي نقلها الى افريقيا اهل
الاندلس

واما البر الاسود باوروبا فحدث فيها ويقال انه منقول
اليها من افريقيا وان نقله الى جرمانية كان في القرن السابع من
الميلاد على يد الملك شارلمان وقد كثر بها الان حتى صار
كافيا لاقتيات ثلث الاهالي

واما الارز فهو وان كان حادثا في اوروما فالعرب هم الذين
زرعوه في الجهات الجنوبية منها وكان قديما في بلاد المشرق وكان
اغلب القوت منه ولم يزرعه الامريقانيون الا في القرن السابع
عشر من الميلاد وقد كثر الان زرعه عندهم حتى صار يرسل منه
الى الجهات والامريقيون يقولون ان اصل ظهور الذرة كان نارضهم
ولكن لم يظهر لصحة ذلك دليل بل الظاهر ان اصلها من المشرق
بدليل تسمية الاوروباويين لها بتبع الترك وتسمية اليونان
لها بتبع العرب وقد شوهد من البساتين مثل الشوك ونحوه كثير نابجا
في خلال النبات النافع في الارض التي نقل اليها نبات الحنطة
ونحوها وذلك يدل على ان جميع ما هو في بلادنا من هذا النوع
قد ورد اليها مع الحنطة وغيرها وقد يعلق حب بعض تلك البساتين
بالانسان في ثوبه او متاعه فيسافر ولا يشعر به فينبت حول
مسكنه او مبيته

ومن الغريب ما قالوه ان كل نوع من النبات له ارتباط

واختلاف بنوع من الانسان بحيث لو وجد نوع منه في بقعة
 لاستدل العارف بذلك على من كان ساكنا بها مشرقيا كان او
 مغربيا وانه باختبار النبات وتقدير احواله وتقلاته يمكن معرفة
 تقلات الامم فان من النبات ما يتبع العيد ومنها ما يتبع عرب
 البادية والهنود ونحو ذلك ومن النبات ما ينتشر بنفسه حتى يملأ
 الارض التي انتقل اليها ويعطل ما كان قبله من النبات الطبيعي
 وغيره وذلك كالحرفوش والنخوخ فانها لما انتقلا الى الجهات الجنوبية
 من امريكا كثيرا بها ومنعا ما عداها حتى ضاقت المراعي على
 ماشيتهم وكذلك لما نقل بعض النبات الى جزيرة سنت هيلين انتشر
 فيها حتى اذهب نباتها الاصلي وحشائشها الطبيعية وكذا في بلاد
 الصين ارض يقولون ان جميع ما بها من النبات منقول اليها ولم
 يبق بها شيء من نباتها الاصلي وقد ورد الى بلادنا من المشرق
 انواع كثيرة من الفاكهة منها العنب والرمان والنخوخ والسريرز
 (الكرز) والذي نقل الرمان والليمون الى اوروبا هم العرب
 ثم ان الثمار بعد نقلها لا تبقى على حالتها الاصلية بل تتغير وتكسب
 خواص غير خواصها التي كانت لها في قطرها الاول فنجدها
 باوروبا كبيرة الحجم شديدة الحلاوة لذينة الطعم بعد ان كانت
 دون ذلك ولو نقلت الى قطر اخر لتغيرت ايضا وهكذا لان الغالب
 ان كل شيء انتقل الى مكان غلب طبعه عليه فاذا رجع الى مكانه

يعود طبعه الاصلي اليه ومن الامثال الصادقة ان للبقاع تأثيرا في
الطباع

وقال بعض المؤرخين ان لكل ارض نباتا ينسب اليها فينسبون
الدخان والبطاطس الى امريقا ولكن هذه النسبة ناشئة عن عدم
الاطلاع فان كتب التواريخ ناطقة بان الانداسيين ايام تملكهم وجدوه
مستعبلا في التحضيرات الكيماوية تتد اهل مكسيك وكان قبل
ذلك معلوما بين اهالي الصين وحاوي ولم يدخل اوروبا الا سنة
الف وخمسة وخمسة وتسعين وادخله البرتغاليون في بلادهم فكان
مستعبلا باجزاخاناتهم فقط فلا بد ان كان معروفا ببلاد اسيا
قبل استكشاف امريقا بزمن طويل

وقد تبين لك ما مر ان انتقال النبات من ارض الى ارض
لا بد ان يغير حالة الارض كما نذكر بذلك طبيعة النبات وتبين
ان تنقلات الحيوان والنبات نابتة في الجانب لمن سكن الارض
لما بينها وبين الانسان من الارتباط التام الذي يربط بينهما بقضاء
اوطاره وسترعورته وقد وقف كثير من الناس عند ظهور الاشياء
فزعموا ان الحيوان لا يتنقل من ارض الى ارض الا في خيش بها وليس هذا
الزعم بصواب ولو سلم ذلك بالنسبة للحيوان الاهلي لا يسلم بالنسبة
للحيوان الوحشي وان كنا لا نعلم كيف كان انتقاله في الازمان
الماضية لسكوت المؤرخين عن الكلام في ذلك كما سكتوا عن
تنقلات الادميين في تلك الازمان

وعلى ما مر من ان اول عمارة بني آدم الارض كانت بالشرق
يمكن ان يقال ان وجود جميع الحيوانات كان بالشرق ثم انتقلت
الى المغرب

وقد قال المؤرخون ان الخلق كانوا اول امرهم عشائر رعاة
ثم تفرقوا فلا مانع من ان تكون الحيوانات قد تبعتهم في ذلك
وبالجمل فالحيون والنبات كل منها يتنقل باسباب ووسائط
ديرها الخالق جات قدرته ومن تلك الوسائط المياه العظيمة فكل
نهر او خليج يتنقل في سيره الى البحر كيه عظيمة من ذوات الروح
وكثيراً ما شوهد في وسط البحر جمل من بعض الحيوانات متراكمة
بعضها فوق بعض تعوم فوق الماء وعلى سطحها الحمار والقوچ الذي
لا يعوم وحده فتكون له كالرؤوس الذي يركب عليه في البحر
كما يركب على السفينة وقد وجد كثير من هوام الارض والحشرات
والافاعي والدود والسبك والطيور والقوچ ونحو ذلك راكبة فوق
الاعشاب وغصون الاشجار العائمة في البحار فتتنقل بواسطتها
من جهة الى جهة وكذا الهواء قد يتنقل منها الوفا مولفة ويسير
بها الى حيث شاء الله وقد امتحن ذلك بعضهم بوضع لوحين من
زجاج خلف مصراعى شباك فوجد في التراب الذي اجتمع بينها
في مدة ستة اشهر بنر ثمانية انواع من النبات واحد عشر نوعا
من تقاوي عش الغراب واربع بيضات من بيض حيوانات صغيرة

مع جملة من تلك الحيوانات بل قد يأخذ الهواء ما هو أكبر من ذلك كالقارة والعرة والسبك ونحو ذلك

وقد وقع في بعض السنين مطر ببلاد فرنسا فكان كله سمكا

وكثيراً ما امطرت السماء ضفادع ومن الهوام الصغيرة ما يمد لنفسه

فوق البحر خيطاً دقيقاً ثم يسير عليه مسافة ثم يمد غيره ويتقل

وهكذا الى حيث اراد وقد اتفق انه سقط على بعض الملاحين

في سفنهم وكان بينهم وبين البر نحو ثلثائة ميل ولكون تلك

الحشرات لا تظهر الا في اوقات سقوط الندى ظن بعضهم ان تلك

الخيوط تنصل بذرات الماء وبعضهم يزعم ان لهذا الحيوان معرفة

بالكهرباء فان كانت كهربية الخبط سالبة طردتها كهربية الطبقات

السفلى من الجو وجذبها كهربية الطبقات العليا منه وكل هذا

ظنون غير ثابتة والله اعلم بالحقبة

واكبر داع لمفارقة الحيوان لوطنه ان يفقد قوته والله فخرى

الحمر الوحشية تترك بلاد التار وتجاوز صحاري اسيا في فصل

الشتاء الى الجهات الشمالية لاجل المراعي التي يشاطر بحر عنال

وقد تجتمع الوفا كثيرة وتسير الى شمال الهند وارض العميم لاجل

المرعى وبعض الحيوانات لجوعها تخرج من جهة القطب الشمالي

وتسافر الى الجنوب كارب بلاد السبيري وفار بلاد النرويج ونحوها

والدويبات الصغيرة جداً تسبح عادة متجمعة طوائف طوائف

حتى يرى البحر متغير اللون من كثرتها فيه وفي بعض الجهات

تظهر أنواع من الحشرات لا يعلم من أين أتت ولم يسبق لأهل تلك
الجهات رؤيتها وعانة تأتي سائحة فوق الماء أو دابة على الأرض
وكثيراً ما شوهدت الديدان تقطع البحار العظيمة والفيافي الواسعة
الشاسعة لطلب القوت لا يعوقها عن طريقها شيء وقد اقتضت
الحكم الأزلية أن ما يؤلف بعز وجوده وما يكره يكثر موجوده وبعض
ذلك كان مقوداً من أوروبا إلى القرن الحادي عشر ثم امتلأت
منه مثل دود القز فانه يميل إلى الأماكن التي اعتادها فلا يفارق
مغارس القوت وهي موجودة في الهند والصين قبل أن توجد
بأوروبا وغيرها بزمن مديد وأول ظهوره بالقسطنطينية كان في
القرن السادس جلبه إليها أحد القيسيين ثم نقل منها إلى اليونان
والذي أدخله أرض صقلية الملك روجير ثم منها إلى باقي الأرض
والنحل تهوى الجهات الغربية ولكن الآن صارت لا توجد في جهات
جبل أورال وقد بذلوا كل جهدهم فلم يمكنهم أن يعودوها على
أرض السيبيري مع أنها كانت غير معلومة في أمريكا إلى القرن
السابع عشر من الميلاد والآن بعد استقرارها فيها أخذت في
الازدياد حتى ملأت جميع البلاد والهند تسميها بالذبابه الانكليزية
ولم فيها كراهة عظيمة لانهم يستدلون بها على دخول الناس
بيض الوجوه في بلادهم وهم لا يحبون ذلك فهم يستدلون بها على
مسير المهاجرين إلى الجهات الغربية
وللنمل تنقلات عجيبة وهي وإن كانت تظهر لغير المتأمل أنها

في سيرها متفرقة غير مؤتلفة ولا منتظمة إلا أنها جيوش متتابعة
ولا تفضل عن طريقها أعمال بل تهتدي الى مقصدها مع الانتظام
وهي انواع

منها الاسود وهو كثير جداً واذ ظهر في مكان يكاد يستر
وجه الارض وياكل في سيره ما مر عليه من النبات ويدخل
المنازل ويملاها حتى لا يترك منها موضعاً إلا ويكلف ما به فلا
يسع اهل المنزل حينئذ إلا فراقه

فقال الشيخ الجراد في ثقلاته أكثر ضرراً واتسدا اذى لانه
لا يفي من الزرع ولا يذر ويقال انها تحفر لبيضا في الرمل ومن
حرارة الشمس يفرخ ويكبر في اقرب وقت ويكون اولا بغير جناح
فاذا هب النسيم سار به الى حيث يريد وكثيرا ما يملأ الفضا
فيغطي الارض ويحول بيننا وبين السماء

فقال الخواجا انها كذلك وسيرها من الشرق الى الغرب
وتقطع البحار والفيافي وتقع في بقاع مختلفة فتكون في افرقية وبلاد
الانكليز وارض جرمانيا وكثيراً ما حل القحط في الجهات التي
تحل بها لانه تهلك جميع النبات والشجر وكثيراً ما يجي عقب ذلك
الطاعون بسبب العفونة التي تنشأ عن رحها وكذلك السمك
وسائر الحيوانات المائبة لها انتقالات كثيرة ولا تحتاج الى اماكن
تستريح فيها حين عبورها كما يستريح الطير على صواري السفن
وكثيراً ما شوهد كلب البحر ملازماً للسفن السائحة في البحار

وقد اقتضت حكمة الله تعالى ان معاش بعض الامم يتوقف على سباحة انواع من السمك فيتظرونه في زمن معين ويصيدونه ويتفنون به وذلك كالبورى والثوبار وغيره وهو الذي يصنع منه الفسج في بلادكم وهناك نوع من السمك يسهونه اسكيري وتسميه الفرنج مكر

ومن غريب امره انه في فصل الشتاء يدفن نصفه المقدم في الطين ويظهر نصفه المومخر فاذا خرج الشتا خرج من الطين فينتقل الى الماء القليل المحركة ويبض فيه واغرب منه ثعبان السمك فانه يقضي اكثر حياته في البر وتحدده زمن الصيف ايام جفاف البرك يخرج ليلاً ويمشي في خلال النبات الى ان يصل بركة او ارضاً فيها ماء فينزل فيه واكبر سبب في وقوعه في ايدي الناس حبه لنوع من النبات يعرفونه فتكون شهوته سبباً في هلاكه وكثير من الاسماك لا يسير الا ليلاً على وجه الارض ويخرج منه مادة لزجة يلتصق بها في نوع من الشجر ليصيد نوعاً من الحاربهواه وكثيراً ما شوهدت السمكة والمخارة معاً فوق الشجر

واما الورل والثعبان والتمساح فلا تفارق مكان اقامتها بخلاف النوع المعروف بالبني الذي يوجد في بحار الهند الغربي وامريكا الجنوبية وهو المسمى عند الفرنج بكراب فانه يكون في بعض اوقات السنة بالمغارات بعيداً عن البحر مغشياً عليه وفي فصل الصيف يخرج منها في هيئة جيش متظم فتخرج الذكور ثم الاناث

وأخذ سعة عظيمة من الأرض نحو مائة متر ومتى اشتدت حرارة
 الشمس عليه استظل بالأشجار فإذا جاء الليل سار طوائف ويكون
 لها ديب تحس به الناس وسط النبات فإذا قربت من البحر
 الملح دخلت فيه جميعاً فتسبح فيه وتقطع في سياحتها بلاداً بعيدة
 فإذا تعرض لها أحد دافعت عن نفسها ويسمع منها قرض أسنانها
 في مدافعتها فإن لم تنجس بذلك تفرقت إلى جهات مختلفة ثم
 تنضم وقد يموت أكثرها في سياحة والطير كالسمك في التنقل
 بل أقوى منه حركة فتراه عند اشتداد البرد يترك الجهات الباردة
 الشمالية وينهب إلى الجهات الحارة الجنوبية ويقطع في سيره آلاف
 أميال ومنه ما يعيش في الاقطار الباردة والحارة كالغراب فإنه
 يكون بأوروبا على شاطئ البحر الأسود وبحر الخزر ويعتق ببلاد
 الهند والعجم كما يعتق بأمريكا جزائر البحر الباردة والحارة ومع هذا
 فلكل نوع من الطير وطن يألفه لكن يفارقه أحياناً التماساً لواد
 الغذاء أو فراراً من العوارض الجوية ومن عجيب أمرها أنها لا تخطئ
 أولان مفارقة وطنها ولا وقت عودها وت شاهد هذه الغريزة في
 المحبوس منها سواء كان مقتنصاً أو متولداً في البيت فإنه إذا
 أحس بصوت أبناء جنسه حن إليه ولو خلى سبيله سار معها
 وغالب الطير اللطيف لا يكثر بالبرد والحر ولا بالتقرب والبعد
 بل متى جاء الوقت المعلوم لها حرتة إلى الإمكنت المعبودة له خرج
 إلى تلك الجهات وإقام بها فيفرح به أهلها يتدل إلى طبايعهم

فيتلذنون بسماع تغريده ويانسون برؤيته ولكل نوع منها كيفية
 يكون عليها ومنهاج بنهجه في هجرته وتعديته البحر وقطعه للمفازات
 فالبعض يكون منفردًا والبعض يكون مجتبعًا ومنها ما يسير
 بالنهار ويسكن بالليل ومنها ما يسير بالليل ويستريح بالنهار
 فالاوز يسافر مجتبعًا معترضا والعصفور يسير متسلسلاً والجمع
 يسير على هيئة شكل مثلث وإذا صادفها في سياحتها بحر قطعه
 طيرانا فاذا هزلت وسقطت فيه قطعه سياحة ومن المسغرب جدًا
 طريقة سياحة الطير المعروف بالسماوي فانه اذا اراد مفارقة اوروبا
 الى افريقية صبر حتى نهب ربح شديدة من الشمال الغربي فاذا
 هبت رفع احد جناحيه كالقلاع وحرك الاخر كالمجذاف وترك
 نفسه مع الريح الى ان يقطع البحر المتوسط الاسكندري ويصل الى
 افريقية واماكن استراحته في الجزائر معلومة فلذلك تجد اهل تلك
 الارض يعرفون وقت وجوده بارضهم فيتجهشون لصيده ومثله اللقلق
 المسمى عند الفرنج سيجوني فمصيفه الجهات الشمالية الباردة من
 اوروبا ومشتاه وطنه الاعلى من افريقيا فيسمع صوته بجهة الاهرام
 وغيرها وحمام امريكا الشمالية يتقل في اوقات معلومة في عدة
 بقاع لا يعلم سكانها من اين اتى وينشر احيانًا في نواحي امريكا
 الشمالية والجنوبية معا واذا آن اوان بيضه اجتمع وبمحث عن
 المواضع التي تناسب ذلك فيبيض فيها فاذا افرخ رجع الى وطنه
 ولا يضل في طريقه ولو نقل بواسطة كالسكة الحديدية فانه يهتدي

الى وطنه ونوع البلبل يتقل في فصل الخريف من الشمال الى الجنوب كل عائلة على حدتها لكن اناثه تسبق ذكوره باسابيع فتذهب وحدها من مصر والشام وتقصد البلاد الشمالية ومنه نوع مهاجر اناثه فقط في فصل الشتاء وتبقى ذكوره ولما الحيوانات ذوات الثدي فلا تتقل من بقاعها المعدة لها الا اذا جاءت او تعدى عليها احد في ارضها ومنها ما يقله الانسان معه كالخيل والحمر الوحشية الى حيث يستوطن من البعاع وهي التي تناسلت في الناس وعمرت منها البلاد بامر بقا فانها ترحل في فصل الشتاء الى الجهات الحارة وكذلك الضباء والفيلة مع غلظ جنتها تترك مواضعها لطلب مراعيها وانجاموس الامريكانى الموحس يتقل من السهل الى الجبل وبالعكس على حسب الفصول فنتبع مجاري الانهار والسيول لالتماس المرعى بفريرة وذعبها الله فيه فيتبع المرعى حيث كان ولا تعلم احد طريق اعتدائه اليه

وللقرنة طرق عجيبة في قطع كبار الابر والخلجان التسعة ولما الحيوانات الاهلية فتقل تبعاً لانتقال الانسان فخيول اسيا وبلاد العرب الان كثيرة بامريكا ولم تكن موجودة بها قبل اختلاطهم بالاندلسيين وكذا النمر منها هناك كثير نانا ومعزاً وذلك بسبب تنقل الناس كما ان الانسان هو الواسطة في وجود بعض الحشرات والهوام في جهات لم يكن لها مجيد كما تقدم

وذلك كالفأر بأمريكا فإنه قبل دخول الأور وباو بين هذه البلاد
لم يكن له بها وجود أصلاً

وقد تقدم أن أول بقعة وجد بها الآدمي هي أرض الهند
وهناك علامات تدل على ذلك فإنها كانت في أول الزمن كثيرة
النبات والخير ثم أخذت أرضها ترتفع شيئاً فشيئاً حتى قل خيرها
فهاجر منها أكثر ساكنيها بأسباب وحوادث لا نعلمها واستمرت
آخذة في العلو والامحلال حتى صارت جبالاً لا تثبت فلم يبق
بها ساكن ولم يزل يتقل الإنسان من جهة إلى أخرى بحوادث
داعية إلى ذلك حتى امتلأت منه الأرض وعمرت جوانبها

فقال الشيخ هذا كله يدل على عظمة الله وقدرته حيث أودع
في كل نوع من المخلوقات قوى غريزية وطبائع مختلفة يقدر بها
على تحصيل قوته ويأمن بها على نفسه مدة حياته وفيما ذكرتموه
دلالة على أن الحركة أساس بديع لعلم الأكوان وقيامها وقانون
جليل عليه مدار انتظامها فكل مخلوق لا يستغني عن الحركة
في كل حاجاته ولكنها تكون على أنواع بحسب أنواع الحيوان
وطبائع البقاع فتكون كثيرة عند بعض وقليلة عند بعض آخر لانه
سبحانه كما نوع أحوال البقاع نوع ما ساكنيها من الطبائع فليست
طبيعة من يسكن الهواء كطبيعة من يسكن الماء ولا من يسكن
الأرض الحارة كمن يسكن الباردة

وحيث كان السعي في طلب القوت والمحافظة على حياة

النفس من اهم الامور كان ذلك ايضا يختلف باختلاف البقاع فيكون في الارض السهلة سهلا وفي الصعبة صعبا وكما سهلت طرق الاكتساب في جهة تساهلت سكانها في الكد والاجتهاد فيه وكما صعبت ازداد الكد والنصب فيين سكان الجبال ونحوها من الجهات الصعبة المحرث والغرس وابين اسكان الارض الخصبه ذات الانهار والنجبان بون بعيد وتباين في الطبايع والاوزاع وكذلك طرق التحفظ مختلفة باختلاف البقاع ففي البلاد الباردة تجمع البرودة اطراف الالياف الظاهرة من بدن الانسان فتزيد بذلك قوتها وبسرع رجوع الدم الى القلب وينشا عن ذلك للانسان من النشاط ما يساعده على الكد والعمل بخلاف البلاد الحارة فان حرارتها تمدد الالياف المذكورة فتتلاشى قوتها وتضعف بذلك قوة الاسان ويداخله الفتور ولا يقوى على العمل وبذلك تجد سكان البلاد الباردة اقوى من غيرهم فانه من انتظمت حركة القلب والالياف فقد انتظمت السوائل في اجزاء الجسم وتكون حركة الدم نحو القلب اتم فيقوى فعله وتزيد قوته وقوته فوائد كثيرة منها شدة البأس وقوة الجاش وملك النفس عن سرعة الانتقام وعدم الخوف على النفس ومتى قل خوف الشخص على نفسه كثر حبه للحق والتماسه له واتباعه اياه انما كان ويكون بعيدا عن الظنون والاهام عاليا عن الكذب والفتاق والخداع والمكر ونحوها فلا ريب في ان هؤلاء الناس يكون عندهم من

الاخلاق والطباع ما يغير طباع غيرهم من سكان البلاد الحارة
 مثلاً لو حبسنا رجلاً في مكان شديد الحرارة لتالم وهمدت قواه
 بحيث لو طلب منه فعل امر يحتاج في الاقدام عليه الى الجراحة لم
 يفعل اذ ضعف قوته يورثه ضعفاً في قلبه وثقلاً في حركته ولذلك
 تجد سكان البلاد الحارة في القوة اشبه بالشيوخ وسكان البلاد
 الباردة بضدهم ولو انتقلت سكان البقاع الباردة الى البقاع الحارة
 او بالعكس لتغيرت طباع كل الى ما يناسب الجهة التي انتقل
 اليها لكن بعد زمن وفي البقاع الشمالية التي ينزل بها الثلج دائماً
 يكون الانسان ضخماً الجثة قليل الهمة والنشاط وسببه ان قوة الالياف
 ينشأ عنها استجابات العصارة الرديئة من الغذاء فيحدث امران
 الاول ان جواهر الكيوس تصير صالحة لان تكسو الالياف وتغذيها
 فتكبر الجثة والثاني انه ينشأ من قلة جودة العصارة المستجبة قلة
 اللطافة في العصارة العصبية فيقل النشاط وتكون الاحساسات
 في البلاد الباردة ضعيفة بخلاف الحارة فانها فيها قوية جداً وفي
 المعتدلة تكون معتدلة وكذا تختلف درجة الاحساس عند الناس
 باختلاف الاقطار والعوارض وذلك ان اختلاف الاحساس ناشئ
 من كون جميع الاعصاب الواردة الى المنسوج الجلدي يتكون من
 كل منها مجموع عصبي ففي الجهات الحارة يكون المنسوج الجلدي
 رقيقاً جداً واطراف الاعصاب مفتحة فتحس باقل شيء ورد عليها
 من الخارج وفي الباردة بخلاف ذلك لانضمام المنسوج الجلدي وتجميع

اطراف الاعصاب فلا يصل الى المخ الا الاحساسات العظيمة
الحاصلة من مجموع العصب ولا يخفى ان القوى العقلية جميعها حاصلة
من احساسات صغيرة فمنها يكون الاحساس كثيرا في البلاد
الحارة قليلا في غيرها والالم كذلك فانه يحصل من تمزيق بعض
اعصاب الجلد او تفريقه فكما كثر كثير الالم والعكس في
الباردة التي جثة اهلها ضخمة واعصابهم غليظة يصعب ذلك التمزيق
لغظ جلودهم بخلاف اهل البلاد الحارة لرفه اعصابهم وجلودهم
ولهذا كان الم سكان الاقطار الباردة اقل من الم سكان الاقطار
الحارة ومن هذا التباين في الطباع الناشئ عن اختلاف البقاع
تكون اهل البلاد الحارة كثيرة الميل الى النساء ومنهم من يرى الميل
اليهن من اعظم النعم بخلاف سكان البلاد الباردة فان ميلهم
اليهن قليل اما اهل المناطق المعتدلة فيعتدوا الأحوال
مطلقا

فقال الخواجا ما ذكرتموه مسلم ولذلك نحد البلاد الحارة ميل
ابطاليا وما جاورها من البلاد انفة رجالها نساءها ليست كنفه رجاء
البلاد الشمالية الباردة بنسائها فانهم لا حظ لهم الا في الحركة كالصيد
والسفر والحرب والشرب وسبب ذلك ضخامة اجسامهم وثقلها
وقام الصحة ولهذا كان اكثر اهل تلك البقاع يميل الى المشروبات
الروحية وكما بعدوا عن القطبين وقربوا الى خط الاستواء نحص
هذا الميل واظنه تابعا لما يقذفه البدن من العرق ففي الجهات

الحارة يعوض ما خرج من الجسم بشرب الماء وفي الباردة يعوض
 بالمشروبات الروحية كالبيذ ونحوه للائتنعاش وبث الحرارة لتنبعث
 الحركة خيفة جمود الدم الأري أن الماء هو الشراب المألوف عند
 اهل المشرق من يوم خلق الله الدنيا بخلاف النيذ ونحوه فهو
 المألوف عند اهل البلاد الباردة واهل البلاد المعتدلة لا تنقطع رغبتهم
 في النساكن لا تبلغ بهم الى حد التهور فهم فيها على حال الاعتدال
 وتزداد تلك الرغبة بالتدرج بحسب البلاد الحارة ولو اخبرت اهل
 البلاد الباردة لوجدتهم اقرب الى الصدق والحق والامانة من اهل
 البلاد الحارة فان اولئك تغلب عليهم شهواتهم وتكثر فيهم الكبائر
 والمساوي فتراهم لا هم لم الا شهوات انفسهم وطاعتها فيما تقترحه
 عليهم من الاماني والشهوات البهيمية

واما اهل البقاع المعتدلة فلا ثبات لهم على حال فطورا في
 الفضائل وطورا في الرذائل يغشون كل ناد ويهيمون في كل واد
 وكلما زادت درجة الحرارة ضعفت القوى البدنية ويتعدى ذلك
 الى القوى العقلية فتتساوى، لديهم الامور فلا تنبعت خواطرهم الى شيء
 ولا يهتمون بشيء وينقلب عليهم الكسل ويحملون العذاب في
 الدنيا بلا ملل ولا يجتهدون بعقولهم في سياسة انفسهم فيكون في ذلك
 استرقاقهم ويرون الرق اهون عليهم من العمل ولهذا نرى القراء
 والدرابيش والشحاذين وامثالهم في تلك البلاد كثيرين وانا لنعلم
 بما تواتر عن السياحين ان الهود مجردون عن الشجاعة والبأس كما

هي طبيعة بقعتهم وقد شوهد ان من تناسل من الاوروبيين هناك
 يشبه طبعه طبع الهنود دون طبع ابيه واصوله ومن ذلك فللهنود
 عوائد فظيعة مستغربة كل الاستغراب منها ان نساهم بحرق
 انفسهم بالنار بعد موت ازواجهم ومنها انهم مع ضعف قواهم ونحافة
 اجسامهم يتوهمون اوها ماجسمة جدا فتوهمون امورا افزع من
 الموت فلا يبالون من الموت ولم صبر وتجلد على انواع
 العذاب

وهؤلاء القوم مخلوا انفسهم وسلامتها عن العوارض وقابلتهم
 واستعدادهم لكل ما يلقي اليهم يلزم لهم على سبيل التاكيد زيادة عن
 غيرهم ان تمنن لهم قوانين وتشرع لهم احكام حسنة يجعلونها بمد اولونها
 بينهم ويلزم ان تكون تلك القوانين امورا معقولة خالية عن
 الاوهام والوساوس ليحبلوا على احسن الاحوال حيث انهم على الفطرة
 الاصلية ليس في انفسهم شيء من التخليطات كالأطفال الذين
 يلزم لهم السياسة والتعليم والتدريب على ما به صلاحهم اكثر من
 الكبار الذين دخلت انفسهم تشويشات تعاليمها او تمنعها عن
 رسوخ التعاليم فيها وقد كانت الامم الشمالية زمن الرومانيين
 مستقلة بنفسها ومدافعة عن وطنها وحرمتها ومع جهلهم وعدم وجود
 قوانين لهم حاربوا الرومانيين زمنا طويلا حتى كسروا شوكتهم
 وخفضوا دولتهم ولو اضفت ضعف بنية الامم الشرقية عن العمل
 الى ما هم عليه من حب البطالة والكسل لمعرفت سبب ثباتهم على

قوانينهم وعوائدهم واخلاقهم فانك او قارنت بين ما كان في
سالف الازمان وما هو الال لم تجد الا فرقا يسيرا ومن نامل
احوال الامم وجد ان المؤسسين الذين وضعوا القوانين لسياسة
الناس هم الذين اكسبوا اهل بقاعهم ما هم عليه من العوید والاحوال
ضرورة ان كل طائفة عملت بقوانينها وسيست باحكامها حتى
صارت كالجبلة لم فبعض المؤسسين ساير اهل بقعته على ما هم
عليه من رديء انخصال وسيء الاحوال فلم يزدادوا بذلك الا
ضررا من الفقر ونحوه والبعض رفع لاهل بقعته عن الرذائل ل
وحملهم على التحلي بافضائل فتحسنت احوالهم وحمدت. خصالم
وافعالهم ففي اعتقاد الهند مثلا ان السكون والعدم هما الاصل
والبيها توول الاشياء فيرون البطالة احسن الاحوال ويستندون
في ذلك الى اسمه تعالى الثابت لانهم فهموا ان معناه الذي لا يتحرك
مع ان الامر ليس كذلك بل معناه الدائم الذي لا يزول
ازلا وابدا وسكان جزيرة سيام يقولون ان العيم الابدی هو كون
الاسان لا يجبر على الحركة واتمام الجسم فذلك كان السكون
وعدم الاشتغال عندهم امرا مرغوبا فيه في تلك البلاد الحارة المصعفة
لجميع القوى ولان الراحة عندهم امر طبيعي هو المقصود
بالذات

فلما استت القوانين على حسب قطرهم وما يناسب اوضاعهم
من الترغيب في الدعة وترك الحركة اعتبت مضار كثيرة بخلاف

اهل الصين فان قوانينهم مؤسسه على الاجتهاد والسعي والبحث
على ذلك فتجد احوالهم مستحسنه وقواهم متوفرة وارزاقهم متسرة فيبين
الفريقين بون بعيد مع انها متجاوران

- -

المسامرة التاسعة والتسعون
الاكلبي والبارو والكتاب

ثم اتنا وان لم نستوف الكلام في هذا الامام الا انا محتاجون
الى الرجوع الى البيت لناكل ثم نعود للتباير فانكم ما رأيتموه ولا
وقفتم على حقيقة ما فيه فقاما وركبا العربة واخذنا باطراف
الاحاديث الى ان وصلا مكانها فنحا كل نحو غرفته فلما خلا الشيخ
بانته قال له ما تقول فيما حدثنا به الخواجا في هذا اليوم فقال انتم
بذلك ادري وبالبحكم فيه احري فقال ما قال الا حقا ولا نطق

ألا صدقاً وإني جلت في بحر الفكر في شأن هذا الأمر مدة سيرنا
في الطريق فوجدته في مثاله صادقاً وبالحق ناطقاً ما كأنه إلا
ساح كل نعمة وإثبت له فيها سجدة وركعة وعاشر من استوطنها
من السكان في كل الأزمان فإنه لا يقف على تلك الأحوال
إلا من كان هكذا من الرجال فله دره عالماً تحريراً وفاضلاً
بالأمور خبيراً حازم من كل فن طرفاً فاخذ منه ملحا وظرفاً

فقال له ابنه ومن الغرائب والعجائب معرفته بجميع اللغات
فإني أراه يكلم كل ألسان بلسانه مع الزلاقة وحسن التعبير والطلاقة
كانه في كل لغة أصيل وليس فيها بدخيل ومن مزاياه أنه محبوب
عند كل من يعرفه

فقال الشيخ إن ذلك من علمه وإدبه فإن من تحلى بحلية
الأدب اغتاه ذلك عن الحسب والنسب

ثم قال يا بني قم بنا نذهب إليه فذهبنا فوجدنا الأكل قد
كملت هيأته فجلسوا جميعاً يأكلون وفي خواص الأظعمة يتحدثون
ثم بعد شرب القهوة ذهبوا للفرج على التياتر فاخذ الخواجا له وهم
تناكروا دخلوا فلما أخذ كل موضعه دارت الملاعب من كل
جانب فسرَّ الشيخ بما رأى

وكان الخواجا يترجم له العبارات اللعبية ويبين له ما فيها
من التذات الهزلية والجدية وفي الأوقات الخالية بين الألعاب
اجتمع بكثير من يعرف الخواجا فكانوا يحيونه ويمازحونه ويوآنسونه

ويراعون خاطره وهكذا الى اقضاء اللعب فانصرف الخواجا مع
الشيخ وولده وكان باللعب خلق كثير ما بين نساء ورجال
وشيوخ واطفال

فقال الشيخ اظن ان اهل هذه البلدة لا يدخلون تحت عدد
وازداد تعجبه من خلوص بالهم وانتظام حاله لانه رأى جميع اوقاتهم
ما بين اعمال جدية سديدة وهزليات والعباب غريبة مفيدة تكسبهم
ثياب ثروة ونزاهة وتفيدهم علوما باحاديث الفكاكة فما يمر عليهم يوم
من الايام الا وتتزايد اسمال الثروة والنزاهة عندهم فتضي عليهم
الايام والليالي في لذة بال

ثم وصلا الى المحل ونزلا عن العربية فقال الخواجا انها
الاستاذ ان البوسطة فتوجه غدا فان اردت ان ترسل كتابا فحرره
الليلة فقال له الشيخ حزيت خيرا ووقيت خيرا ثم ذهب كل
نحو غرفته وكان اكثر الليل قد مضى

فقال الشيخ لولده يا بني حيث لا ينبغي الان خبر النوم فان
شاء الله نحرر خطابانا غدا ونرسلها الى ائبلاد نوالدك
والاولاد قبل يده وقام لينام فقابله يعقوب بعد قشائه ما كان
مشغولا به فسلم كل منها على الاخر سلام اشتياق ودخلا يتحدثان
بما رقى وراق فحكى له ما رآه في هذه الفسحة وعن التياتر وما فيه
من النزاهة وقال كنت اتمنى تمام سروري بوجودك

فقال له يعقوب الايام بيننا فقال وما الذي عاقك عنا

وفرك منا فقال بعثني حضرة الخوارجا الى بعض اصحابه لامرهم
فقال لعله تم على مرامه فقال نعم وقد فرح به فرحا شديداً
واستفدت انا منه كذلك شيئاً جديداً وهو هذه الساعة فهنا
بها بن الشيخ ثم تواعدا على الذهاب الى العين صباحا ودخل ابن
الشيخ لينام فلما اتبه من نومه اخذ محبرة وكاغدا ويراعا وصار يجر
لوالده هذا الكتاب

اهدي عاطر تحياتي الى كريمة النسب الطاهرة الانبيال قرب
الله لنا ايام التداني

وبعد بث الاشواق ابدي لجنابك اني منذ فارقت مطلع
سعودك ومرجع شهودك وانا مشغول البال مرتبك الحال وما من
وقت ير علي الا وانا منتظر ورود خبر منك الي اطمئن به
عليك وعلى الاخوة والاخوات والامام والاقوال والعمات والخالات
ولكن كيف السبيل الى تحقق تلك الامال مع بعد ما بيننا على ان
بعد الثقة يزيد لوتني وينص خاطري وكم هاج علي الوجدت
الانفراد وكم صورك الوم في الفواد فيثير ما انا فيه من النيران
ولا سيما اذا اشتد الذكر لهاتيك الديار وما كنت تفعلينه لي من
الحنو وعطفك علي ورائتك بي فعند ذلك يهيج وحدي ويكاد
ان يشيب من تذكره فودي ولولا ان من الحنان المنان بصحبة
اعز الخلان وعرفت يعقوب الذي اخبرت سيادتك عنه فيما سبق
لذيت من الم النوى واعتزاني من الم الجوى ما لم اجده دول

ولعددت ثواني الغربية سنوات وخطت جميع اوقائي عن اللذات
لكن ملازمته لي وشقته علي ونسليته لي برائق العبارات خفف
عني الكروب وربما تحصلت بتمينه علي كمال المرغوب مع صحة
البدن والنزهة في غائب الرمن ومشاهدة مور ظريفة مع ما اكتسبه
منه بالممارسة عند المحادثة والمؤسسة واما صاحبنا الخوجا فلا بدع
في نفسي شيئاً احبه الا ويجلبه لي لان حبه لي زائد وقد لمننت حد
التكلم باللغة الانكليزية وذلك ليس الا بهيمته فجزاه المولى شني خيره
فصرت الان وان لم تحصل علي درجة عظيمة في اللغة الانكليزية
لكن يمكنني قضاء ما يلزمني بحيث اعبر بها عن مقصودي واهم
ما يقال لي وقد اخذت ايضاً في تعلم اللغة الفرنسية وست متتصر
علي ما اخبرتك به بل كل ما وقع نظري عليه وسمعت و
فهته اسطر لكي اطلعك عليه حين العود الي مسير ان شاء الله
تعالى والذي يقلب علي ظني انا تقيم شهرين بباريز ثم توجه
الي بلاد الانكليز ووالي في هذه المدة ففاز عن استغائه مع
الخوجا بقراءة بعض دروس عربية بالمدرسة مشرقية ففضله كل
وقت بنشر وفخره بين العلماء يزد ويكثر وليس ثم ما يكدره غير
الفراق وعدم ورود المخاطبات الينا منكم فالمرجو عدم تعطاع
الرسائل لانها للاطمئنان عليكم من اقوى الوسائل حيث كان
ارسال الخطابات ممكن لك مع ما ياتي للخوجا من المكاتبات ثم
ارجو تبليغ السلام الي الاخوان والمحبين الكرام

ثم طوى الكتاب وذهب به الى والده وسلمه له فقرأه بتمامه وسر
من حسن نظامه وسلاسة مبانيه وجزالة معانيه ثم قال له ان
كتابك فيه الكفاية فانه استوفى ما يلزمي كتابه ثم وضع اسمه
بجانب اسم ولده وكتب على هامش الكتاب بيده وصية بالاولاد
وبارسال رسائل مع الورد تبين فيها ما عندها من الاخبار ثم
برسم الكتاب وقام هو وولده ودخلا عند الخواجا فحياها واكرم
مشاها ثم قال للشيخ اني كتبت خطاباتي التي اريد ارسالها الى القاهرة
فقال الشيخ ونحن كذلك وسلمه الخطاب فوضعه الخواجا داخل
الظرف وبرشه ثم سلم ليعقوب الظرف بما فيه فتوجه به
الى البوسطة

ثم قال الخواجا للشيخ اني كنت اريد ان اخرج مع حضرتكم
للتنزه حسب الاتفاق ولكن ارجوكم السماح فقد عاقني عن ذلك امر
مهم وهو ان لاحد اصحابنا قضية مهمة في بلد قريب ولا بد لي من
التوجه معه لبتها وقد واعدته على ذلك وان شئت الذهاب معنا
فلا بأس لاسيا والبلدة قرية والسبل الموصلة لها لطيفة ولا تخلو
من فائدة وان شئت ان تبتى هنا ومعك يعقوب فلا مانع وان
شا المولى في يوم غير هذا نذهب معا ومع كل هذا فالرأي لكم فقال
الشيخ ان استحسنتم بقاءي هنا فلا مانع
فقال الخواجا للرأي ما ترونه وضمن اني اعود قبيل الغروب
وفي نهائي وايبي استكشف لكم الطريق فان وجدت بها ما

يسر خاطركم ذهبنا جميعاً فانتقنا على ذلك ثم حضر الطعام فتناول
كل ما تيسر وقام الانكليزي وتوجه وفي الشيخ ووالده
ويعقوب

المسامرة المائة

الجغرافة

قال الشيخ يعقوب قد سبق لك اخبرتنا به من حوادث
حين اسرك ولم تذكر لنا ما جرى بعد عودك ولا ما حصل لاختائك
فهذا اوان ذلك فاذا ذكر لنا ما بقي منه في بالك وكان الخوارج
ترك العربية للشيخ فقال يعقوب سمعا وطاعة وها هي العربية حاضرة
فلتركها ونذهب لنعم اللذين ونكون التولية نسيبين فيض
الشيخ اني والله فرأى السرور على وجهه فقال ذلك امر حسر

لأناباه ولكن انتظراني نحو ساعتين فان لي اربا اريد قضاءه فاجابه
يعقوب لذلك وقام هو وابن الشيخ الى غرفة يعقوب فمد يعقوب يده
الى كرة وقال لابن الشيخ تذكر ما كنت وعدتك به حين كما
في البحراول بعرفي بك فقال ابن الشيخ وقد كتبت في رقعة وارسلته
لوالدتي فقال يعقوب اني اشتريت هذه الكرة اني هي مثال للارض
بما فيها لابن لك عليها الاقطار المعبورة من غير المعبورة وكيف
توزع البحار عليها وحيث اهدنا حضرة الوالد ساعتين فالرأي
عندي ان نصرف ذلك في معرفة بعض شيء من الجغرافية فقال
ابن الشيخ ان في شوقا شديدا لمعرفة هذا العلم فقال يعقوب ستعرف
ذلك قريبا ان التيت بالك فانه علم لا صعوبة فيه

ولابداء معرفة البحار المحيطة بالدنيا وبكفي الان ان تنظر لهذه

الكرة ليثبت ما تراه في نهنك

فاعلم ان جميع ما تراه على سطحها محدودا بخطوط هو اشارة الى
الارض القارة والجزائر وما سواه من سطح الكرة هو المستور بالمياه
ويكون عنها البحار المسماة باسما مختلفة على حسب اوضاعها وهذا
الشريط المستطيل المنفرد وحده الممتد من اعلى اذ اسفل الضيق
الوسط العريض الطرفين هو المسماة بالدنيا الجديدة وهي
الامريكتان الشمالية والجنوبية فالشابة هي الجزء الاعلى من الشريط
والجنوبية هي الجزء الاسفل منه

واما الدنيا القديمة فهي هذه القطع الثلاث المتصل بعضها

ببعض الممتدة بالاتساع من اعلى الى اسفل بدون انتظام وتقسيم الى
 قسمين صغير وكبير فالصغير في الجنوب الغربي ويعرف بافريقية
 وهي قطعة من الارض منها قلم مصر والسودان والحبشه والمغرب
 وبلاد اخر والكبير في الشمال الشرقي والشمال الغربي فلذا قسموه
 الى قسمين ايضا شرقي وشرقي فالغربي يعرف باوروبا التي منها
 فرنسا وجرمانيا والانكيز والروس وغيرها والشرقي يعرف باسم
 التي منها بلاد العرب وارض الشام والعجم والهند والصين والتبت
 وغيرها وجميع هذه القطع الصغيرة المرسومة في اجيبب الشرقي
 جزائر كبار وصغار واشهرها جزيرة هولاندة الجديدة والتي هذه
 الجزائر تسمى جزائر اوقيانوس وهي من الدنيا القديمة

واعلم ان ما يسمونه بالبحر المحيط الجنوبي هو كناية عن انحصار
 من الماء بين شرقي الدنيا الجديدة وغربي الدنيا القديمة وما يقابل
 له البحر الاطلنطي هو المحصور بين غربي الدنيا الجديدة وشرقي
 القديمة وهذان البحران ممتدان جهة القطبين وهناك مجسمان ويتكون
 عنها البحران المنجمدان وهما المنجمد الشمالي عند القطب الشمالي
 والمنجمد الجنوبي عند القطب الجنوبي

فاذا تأملت ذلك رأيت ان معظم الارض القارة في النصف
 الشمالي من الكرة وان معظم الماء موجود في الجنوبي منها ولذا
 اطلقوا اسم الاوقيانوس على ما انحصر من الماء بين الدائرة القطبية
 والارض القارة من جهة الجنوب الذي منه رأس عتيم الخيبر وبحر

الهند المحيط بجزائر الاوقيانوس ويتصل بمحدود افرقة واسية من
جهة الجنوب انما هو قطعة من هذا البحر العظيم فكل ما يجري
وسط الارض القارة من اى جهة من جهات الدنيا قديمة وجديدة
مصبه تلك الابحر الاربعة

ثم ان كل بحر منها يتفرع منه بحار صغيرة تحترق الاراضي
القارة مثل البحر المحيط قد احترق الدنيا الجديدة فتكونت بها منه
فروع منها بحر بهران وبحر الكاليفورني وبحر تيا وكذلك دخل منه
في الدنيا القديمة فروع مثل بحر بابونيا وبحر الصين وغيرها من
البحور وكذلك البحر المنجد الشمالي تفرع منه فروع فمن فروع
بالدنيا القديمة البحر الابيض ومن فروع بالدنيا الجديدة البحر القطبي
ومن فروع البحر الاطلنطي بالدنيا القديمة بحر بلتية والبحر المتوسط
الذي على ساحله مدينة الاسكندرية وخليج نينا وفي الدنيا الجديدة
بحر باقان وبحر هودسون وخليج مكسيك وغير ذلك وتشعب من
بحر الهند البحر الاحمر وهو بحر القلزم وبحر عومان وخليج بنجال
وبحر العمم

والبحر المحيط متصل بالمنجد الشمالي في بنار بهران وبحر الهند
ببنغازات عديدة في جزائر الهند وهولاندة الجديدة ويتصل بالبحر
المنجد الجنوبي بالاوقيانوس وبالبحر الاطلنطي بالاوقيانوس
وببنغاز ما جيلان

واما البحر الاطلنطي فيتصل بواسطة البحر المنجد الشمالي

بجراسلاندة وبواسطة البحر المنجمد الجنوبي بالاقويانوس وتصل
بالبحر المحيط بالاقويانوس وبنغاز محيلان وبجرالاند بالحزء من
الاقويانوس الذي في جنوب رأس عشم الخير

وجميع المياه التجارية فوق ارض الدنيا القديمة تصب في البحر
الاربعة التي ذكرناها كما تقدم وخط اتقسام تلك المياه يتجه على شير
انتظام من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي فيخرج من ابتداء
الشرقي الى رأس عشم الخير ويبرز السوس

واما الماء التجاري في ارض الدنيا الجديدة جميعه فينصب في
الثلاثة الابحر الاصلية وهي البحر المحيط والاهانتطيق والمنجمد الشمالي
وخط اتقسامه فيها يتجه من الشمال الى الجنوب

ومساحة ارض الدنيا الجديدة سمارا وخرابا وسهلا وحرنا

٢٩٦ ٠٧٠ ٨ ميريامتر مربع

ومساحة الدنيا القديمة ٧٨٠٠٠٠٠٠٠ ميريامتر مربع اي ان

سعة الدنيا القديمة قدر سعة الدنيا الجديدة ثمان مرات ونصفا تقريبا

وبما ذكرته لك نسلم اقسام المعمور من الارض على وجه العموم

وما فيها من الثمار ايضا ثم لا بد بعد ذلك من معرفة الام الساكنة

في كل قسم على حدة وهذا امر يطول لو اردنا الدخول فيه على

وجه الفصل فنقتصر على ذكره عملا لكن قبل الدخول في

شرح ذلك اذكر لك بعض كمات تقع بها على تاريخ علم الجغرافية

لتعرف كيف تقدم هذا العلم تدريجيا

تم تكلم على قطعة اوروبا حيث نحن الان فيها فنقول الكرة
الارضيه كانت غير معلومة من جميع جهاتها كما هي الان فكانت
كل امة في تلك الازمان الخالية تعد نفسها في وسط الارض وكانوا
اذ ذاك يعتبرونها كقرص مستدير يحيط به نهر عظيم كانوا يسمونه
الاقيانوس وكانوا اذ ذاك لا يعرفون من البحار نهر البحر المتوسط
وكانت ارض الروم تعتبرانها مركز لذلك القرص ويظنونه امتداً
من جهة الشمال الى ما بعد نهر الطونة ومن جهة الغرب الى بغاز
قادس ومن جهة الشرق الى حدود آسيا الصغرى ومن الجنوب
الى آخر افريقيا والبلاد المعلومه كانت بلاد الروم واسيا الصغرى
ومصر وايتاليا

وفي زمن هيرودوط بطل اعتقاد الناس في البحر المحيط
واتسعت قطعة اوروبا وآسيا وافريقيا ما استكشف من الارض
والبلاد وبقي ذلك الى زمن القرطاجيين فساحوا في البحر المحيط
واستكشفوا الجزائر الخالدات في الجهات الجنوبية وجزائر الانكليز
في الشمالية وبعد الاسكندر الاكبر عرفت اغلب بقاع اسيا الكبرى
ثم ان استرابون الجغرافي الشهير حصر جميع المعلومات الجغرافية
الى وقته فكانت عبارة عن اغلب بقاع اسيا وافريقيا واوروبا وهي
محاطة ببحر عظيم والرومانيون بسبب حروبهم في جميع جهات
الدنيا احاطوا بعلم كثير من جهات اوروبا خصوصاً الجهات
الشمالية منها وكانت غير معلومة لذاك الوقت وعلمت حينئذ الامم

الساکنة على نهر الطونة وبجر البتيکا وجزائر الانكليز

وفي القرن الثاني من الميلاذ جمع بطليموس جميع المعلومات
الجغرافية وضبط حدود الارض المعلومه ووسع الكلام في قطعة
افريقيا وآسيا وبين ارض الصين الا انه لم يعين الحد النري لافريقيا
والمخبريون النازلون من الشمال الذين هجموا على من
باوروبا هم الذين وسعوا دائرة جغرافية هذه البقعة وذلك في
القرون الوسطى ثم جاء من بعدهم العرب فبينوا جميع جهات
اسيا وافريقيا كل البيان وساحوا ارض الصين وجزائر السد
وفي وقتهم مدت الديانة المحمدية انصانها وهتت بلابل العز
افنانها حتى وصلوا النهر المار من وسط ارض الهند ولم تعلم جهة
شمال اوروبا الا من عهد حرب النورماندي ومن ذلك الوقت
علمت البروسيا والسكندنيا والروس ومن عهد حروب الاتراك
والمغول وقف على معرفة سكان البقاع المركزية لآسيا وارض
التار وبلاد السيبيريا وغيرها من الجهات

ومن حين حرب القدس اشتاقت الناس الى السياحة فانسعت
دائرة الجغرافية اتساعاً عظيماً بما استفيد من رسائل السياحين
وترحلهم فعلت اوضاع ام كثيرة كانت مجهولة الى ذلك الوقت
خصوصاً اوضاع اسيا وافريقيا

ثم لما اشترك جميع الناس في حب التجارة والسياحة حصل
لهذا الفن تقدم عظيم وكثرت المعلومات وفي القرون الثلاثة التي

اشتغل فيها اهل الوندیده و جنوه بالتجارة من بلاد الهند الى اوروبا
 بطريق البر لا بطريق البحر علمت انلب البقاع والطرق المجهولة
 للناس ولما اخذ البرتغاليون البحر طريقاً لتجارتهم لهديده استكشفوا
 استكشافات عظيمة ووصلت سفنهم الي ما لم تصل اليه سفن
 الاقدمين حيث كانوا لا يتعدون رأس نون في المحيط الاثلاثيكي
 اما البرتغاليون فقد وصلت سفنهم الى جزائر كناريا سنة ١٤١٧
 من البلاد

ثم في سنة ١٤٢٢ وصلت الى جزائر الاسوز ثم حصل
 استكشاف السنجال سنة ١٤٤٥ وفي سنة ١٤٧٢ جاوزوا
 خط الاستواء وفي سنة ٨٤ استكشف برطولي ديداد رأس عشم
 الخيرو في اثناء سعادة البرتغاليين بالتجارة ظهر كرسنوف كلومب
 الاسبانيوي واستكشف الدنيا الجديدة في الثاني عشر من شهر
 اكتوبر الافرنكي سنة ١٤٩٢ وفي تلك المدة وصل البرتغاليون
 رأس عشم الخير وجميع سواحل تلك الجهة ومن ذلك الوقت
 صار ما بين اوروبا والهند طريقاً مسلو كاً وعلم الناس بحر العجم
 والبحر الاحمر وخليج عومان وخليج بنجال وغير ذلك من بقاع
 شتى وذلك انه من نحو مائة سنة كانت اغلب التجارة فيها
 للبرتغاليين فاستكشفوا جزيرة ملقة سنة ١٥٠٠ وجزائر السند سنة
 ١٥١٠ وفي التي تليها جزيرة سيام ثم في التي تليها جزيرة ملوك
 وفي سنة ١٥١٦ استكشفت سواحل الصين وفي سنة ١٥٤٢

سواحل يابونيا ثم فعل الاسبانيون كما فعل البرتغاليون في
 جهات امريكا وفي سنة ١٥١٢ صار اغلب جهاتها معلوما مسلوكا
 وفي سنة ١٥٢٠ علمت الطريق من امريكا الى الهند وفي سنة ١٦١٠
 كثر استكشاف جهات اُنديا الجديدة حتى علمت بنهاها

ومن حيث ذ انسعت دائرة التجار والملاحه وحابت جميع
 الامر البحار بسفنها واستكشفتوا كثيرا من الجزر ووقفوا على جميع
 الجهات المعوره من الارض ولم يبق لهم مجهول يبحثون عليه
 غير الطريق الموصل الى القطب الشمالي ووسط فرينقا وهولندا
 الجديدة

وما ذكرته لك وان كان على وجه الاختصار الا انه
 يمكنك به ان تعلم كيف تقدم هذا العلم الى ان صارت الملاحه
 الآن اهن شي حيث بنى على قواعد بتتضاهما تجوز الفلك
 البحار العظام وتسير على خطوط معلومه مضبوطة بالحساب ويصل
 الناس الى اقصى اغراضهم من اى جهة من الكرة امنين بما كان
 يحصل في الازمان الخالية فان الملاحين كانوا اغراضا لكل مخيف
 لثله معرفتهم بهذا العلم فكانوا يضلون عن الطريق وادا
 تعددت الطرق لا يبرون النجاه في اى طريق فكان من يسبح
 منهم تطول عليه المدة

وبيناها بعدئذ ان والى تلك الكره ينظران اذ دخل عليها
 الشبح فاواد يعقوب ان يتلع الكلام فقال له الشيخ امض فيا انت

فيه فقال اني خشيت تضييع الوقت فاحسبت ان اتكلم معه على الكرة في بعض مواد جغرافية ولكن حيث حضرتني فينبغي ان تقف عندما وصلنا ونخرج قتال وانا اريد ايضا ان تبين لي مزية هذه الكرة وما عليها من الرسوم فاعاد له يعقوب حاصل ما تقدم بالاختصار ثم قال وسيكون ذلك ان شاء الله تعالى في مرة اخرى

فقال الشيخ بل انجز ذلك الان ونجعل خروجنا بعد ساعة فانه ليس المراد من الخروج غير الفسحة وطال ما كنت اشوق الى الاطلاع على جغرافية قطعة اوروبا وكم سنخ بخاطري ان اسال حضرة الخواجه عن ذلك فتحدث امور تمنع وحيث كنت الان بهذا الصدد فاروم منك شرح ما تعلمه فيها فقال يعقوب هذا بعض ما يجب علي

قطعة اوروبا محاطة بمجار من جميع الجهات الا جهة واحدة فمن جهة الشمال بالبحر المتجمد الشمالي ومن جهة الغرب بالبحر الاطلنطي ومن الجنوب بالبحر المتوسط ومن الشرق بجزء من البحر المتوسط وبالبحر الاسود ونخط وهي ير باعالي جبل القوقاز ويمتد الى بحر الخزر ثم بنهر اورال وجبالها وينتهي الى رأس ويمجاز واكبر طولها خمسمائة وثلاثون ميترامتر واكبر عرض منها ثلثمائة واربعه وثمانون ميترامتر وطول سواحلها البحرية ٢٢٧٣ ميترامتر ووجدتها في الارض طولها ٢٩١ ميترامتر ومساحتها ٢٧٧٨٠٤

ميريامتر مربع وعدد اهلها ٢٢.٠٠٠.٠٠٠ نفس وعلى حسب
ارضها وما تشتمل عليه من الجبال يمكن تقسيمها الى جنوبية
وشمالية فالاولى عبارة عن ارض مرتفعة جدا وبها جبال عالية
مختلفة هيئة وانحداراً وبسواحلها البحرية خيجان كثيرة
وبارض ذلك البحر انهر كثيرة تمتد في جمع جهاته وبهذه
الصفات تكون محفوظه من الريح الشمالية وعرضه للرياح الشرقيه
الافريقية الرطبة بسبب البحر المتوسط والثانية عبارة عن ارض
واسعة وبرك متعددة ولهذه الصفات كانت عرشه للرياح الباردة
الثلجية التي تمب من اسيا ومن البحر المتجمد الشمالي فانزعان أوروبا
الجنوبية وكثرة موادها سبب في اتساع دائرة الفلاحة وتجارة بها
وموجب لاستقلال اهلها وتمتعهم بخلاف أوروبا الشمالية ومن رخصها
مع اتساعها ليست مسكونة الا بام قترآ متوحدتين في قرض حكومة
تصرف فيهم كيف تشاءت وكل من الاتين وان وجد في سواحلها
خطيان وبحر الا ان وضع البحر المتوسط الما تحت أوروبا بحريته
بين ثلاثة اقسام الدنيا اسيا وافريقيا وأوروبا هو الموجب سعاده
اهل هذا القسم سذ اربعة الاف سنة وهو منبع الممدن ومركز
تجارة جميع الامم ولو قارنا قطعه أوروبا بنيرها من الارض اوجدناه
اقل منها خيراً بالطبع فانه ليس بها ما بالآخرى من النبات
والحيوان والمعادن واكثر ما يوجد بارضها الحديد وكان غالبها
منطى بالغابات لكن مع طول الزمن به اعادته من المولى زينة

ههنا صارت اكثر بقاع الارض عمرانًا وخيرًا فالانسان هو الذي
 تديره كساها حل البهاء فهي دليل على عظم قدر نوع الانسان
 وعلو شأنه فقد جاب لها جميع اواع النبات اللامعة من البناع
 الشاسعة وكذلك جمع فيها انواع الحيوانات من جميع الجهات
 والى بين هذه الاجناس فتفرع من ذلك افنان التمدن وبعد
 ان كانت انهرها تمر في خلالها بغير فائدة عمل لها اهلهما جسورًا
 قوية وطرقًا هندسية وسواها سطوح جبالها ونشئوا مستنعاتها
 المضرة فانسعت بذلك ارض الزراعة وعمرت بالمدن والبلاد
 وبحسن التدبير تسلطنوا على البحار واخترعوا في ذلك اختراعات
 كثيرة حتى وصلت رسائهم الى جميع الجهات وجلبت منها جميع
 المحصولات فرادت ثروة اهلهما وصحت ابدانهم وصارت ارضها اتقى
 الارض هواً واكثرها ثمارًا وتنقسم اوروبا بالنظر للبحار المحيطة بها
 والانهر الموجودة داخلها الى سبعة اقسام طبيعية

الاول الاندلس

الثاني فرانسوا والبحول

الثالث جرمانيا

الرابع ايطاليا

الخامس الروم

السادس الروس

السابع اسكاندناوة

ويضاف الى ذلك قسم سكان الجزائر وهم الامكليز فتكون
اقسامها به ثمانية وهذه الاقسام كانت مسكونة في الزمن السابق
بست ام متباينة فكان في جزر اليونان والروم وجنوب ايتاليا
يقال لها اليبلاسك وفي شمال ايتاليا وبجيث جزيرة الاندلس امة
يقال لها الايبير وفي الجول وجزائر الانكليز امة الجال او الكلت
وفي جرمانيا والسكانديناو الجرمانيون وكانت تنقسم الى كهريس
وتوتون وجوت وبارض الروس كان السلاف والفتوي واول
امة منهم دخل فيها التمدن هي الامة الرومية فالروم هم السابقون
في ذلك وعنهم اخذ من جاورهم من الامم ولكن لم يغيروا شيئاً
من عوائد الامم الذين استولوا عليهم وغاية ما هناك انه خرج اناس
منهم الى ايتاليا وجزائر البحر المتوسط وبعض من جهات الجول
وكانت جل همتهم بلاد المشرق فاسسوا بها دوة عظيمة وتبعهم
الرومانيون وهم امة صغيرة من ايتاليين استولوا باستمرار المحروب
على الثلاث اول من الامم لتست المذكورة واختلفوا بالخامسة
وجهلوا البقية

فلما تمكنت دولتهم وقويت شوكتهم واتسعت مملكتهم تغيرت
جغرافية اوروبا الجنوبية وذلك لان ملكهم وصل من جهة الغرب
الى البحر الاطلنطي ومن الشمال الى نهر الرين ونهر الطونة ومن
الشرق والجنوب الى حدود اوروبا من ابتداء مصب الطونة في
البحر الاسود الى بغاز الطارق وكان حكمهم متدا كثيراً فيحكمون

على جميع الجهات الشرقية من اسيا والشمالية من افريقيا وكانت ملكتهم
مقسمة الى ولايات منها ولاية الروم وولاية ايطاليا وولاية اسبانيا
وولاية الجول وولاية برتانيا ويداها ما على شاطئ نهر الطونة
الابن ثم في سنة ٢٤٤ من الميلاد اتحدت تلك الدوله الى
دولتين مشرقية ومشرقية فكان يبع الدولة المشرقية الروم وبعض
جهات من اوروبا وولايات اسيا جميعها والجهة الشمالية الشرقية
من افريقيا وتبع الدولة الغربية جميع ما بقي من افريقية من الشمال
الغربي وما بقي من اوروبا

وبعد تلك الايام قامت الامم المتبرزة التي كانت متوطنة
بالجهات الشمالية من اوروبا وانارت على الجهات الجنوبية منها
واستولوا عليها واطلوا دولة الرومانيين الغربية وغيروا ترتيب
سياسة اوروبا وسوا الارض بغير اسمائها فلذلك تغيرت جغرافية
هذا المسم

والذي استولى على جزيرة الاندلس من تلك الامم امة يقال
لها الونجيث وعلى ارض الجول امة منهم يقال لها الفرنج والذي
استولى على ايطاليا الاستروجيت ثم اللومباردي وعلى جزائر
الانكليز الانجل والسكس وعلى ارض جرمانيا السلاف اي الصقالبة
ولم يبق من دولة الروم المشرقية الا ارض الروم فقط
فازمانهم كانت فتنا وحروباً وسفك دماء واستمر ذلك الى سنة
ثمانائة ميلادية ثم قويت الفرنج واستت دولة المغرب وكانت

تشمل على الجول وإيطاليا وجرمانيا الى نهر الطونة وخذت
سطوة الاقوام المتبررة واجدأت جرمانيا في التمدن وسمع باسم
البلغاريين والبوهيم وغيرهم وظهرت دول صغيرة منها دينبرك
ونورويج وسويد وفينلند وظهر اسم الروم

ثم دخلت العرب اوروبا واستحوذت على الاندلس وانتزعتها
من الاوروبايين وادخلت جزائر الروم في ضمن اسيا

واستمر النزاع بينهم الى سنة ٨٤٢ ثم زالت دولة الفرنج
بالكلية وظهر بعدها ثلاث دول من الامم الثلاث التي كانت متركبة
منها وهي فراسا وإيطاليا ولمانيا وفي القرن الحادي عشر اتقسمت
اوروبا الى دول صغيرة فكان في الاندلس ثلاث دول وهي نوار
وليون وكاستيل

وفي الجول فراسا واللورين والبرونس وغيرها وفي جرمانيا
المانيا وبوهيم والهنجري الدين هم المجر والبولونيا ابي اللاه ودينبرك
وسويد ونورويج وسكندياوة والروسية وغير ذلك وفي ايطاليا ايطاليا
وصقلية وغير ذلك وفي جزائر الانكليز ثلاث دول بروتانيا
وايكوسا واراندة وبيت مملكة الاسلام والروم خارجة عن
اوروبا ويتوالي الازمان وتقلب الحددان تداخلت الدول بعضها
في بعض

ففي القرن السادس عشر تغلب بيت ملك انمسا على

اوروبا وغير ترتيبها فدخلت جزائر اليونان في مملكة الترك
وانعزلت عن اوروبا

وانقسمت ايطاليا الى سبع دول وانفصلت جزيرة الاندلس
من مملكة الاسلام وصارت اربع دول من ضمنها مملكة البرتغال
وانقسمت فرانسسا الى اكثر من اثني عشرة دولة وجرمانيا الى
اربع دول المانيا والحجر واللاه ودينمارك

وانقسم الروس الى امارتين امارة لبتاني وامارة مسكو وهذه
الاخيرة مركبة من خلق سهولة احوالم

وانقسم السكديناوة الى مملكتين السويد ونورويج
وانقسم الانكليز الى ثلاث ممالك بروتانيا وايكوس وارلانده
وكانت نيران الحرب في تلك المدة مشتتة ليتخلص من قهر ملك
النمسا من كان تحته من الامم فاستمر ذلك مائة وخمسين عاما ثم
اغلب ملك النمسا وخرج كثير من ملكه الذي كان مشتملا على
بجيتجزيرة الاندلس وايطاليا والبلاد الواطية (هولاندة) وعملت
بين الدول شروط تعرف في التاريخ بشروط ويستفالي وعلى
مقتضاها ترتبت اوروبا ترتيبا جديدا استمر له عليه الى سنة
١٧٨٩ فكانت حينئذ بلاد الروم في قبضة الترك وايطاليا كانت
منقسمة كما كانت في القرن السادس عشر وجزيرة الاندلس
كانت منقسمة الى دولتين اسبانيا والبرتغال والجزول الى عدة
دول صغيرة وجرمانيا الى المانيا وبروسيا ودينمارك واللاه والحجر

وإلى دولة مركبة من عدة جهات وصار الروس دولة واحدة
وبقيت السكديناوة على ما كانت عليه وصارت جزائر الانكليز
دولة واحدة

وكذا الحروب التي حدثت عن قيام فرنسا غيرت هيئة
أوروبا تغيراً كبيراً ففي سنة ١٧٩٧ كان لفرنسا حدودها الطبيعية
ما عدا سويسرة ثم زالت دولة ونديك أي البندقانيين وقسمت
دولة اللاه بين البروسيا والروسية والنمسا وفي سنة ١٨٠٢
انضمت ولاية البيومتي إلى فرنسا وزالت دولة المانيا وفي سنة
١٨٠٦ عوضت بدولة النمسا وتكونت من ولايات باويرا
وويرتنبيرج وسكس وولايات أخرى ودولة المانيا المتعاهدة وانفصل
من أقاليم جهاتها الشمالية واستقلت وملكت فرنسا عدة ولايات
أضافتها لملكها وفي سنة ١٨٠٧ خرج كثير من الولايات الداخلة
في البروسيا من قبضتها وصارت ممالك مستقلة منها ولاية
الويستفالي وخرجت أيضاً عنها ولاية اللاه واستقلت باسم
لارسوي

وفي سنة ١٨٢١ اتسعت دولة فراسا وخرجت عن جدها
الأصلي بادخال هولاندة وسواحل البحر الشمالي وضمت لها التوسكاني
وولايات الكنيسة الرومانية وكانت تحكم على ولايات نهر الرين
وجزائر الروم وإياليا ونابلي وإسبانيا والبرتغال وغير ذلك
وكان من جملة الشروط التي ترتبت عليها أوروبا المتعقد:

سنة ١٨١٤ وسنة ١٨١٥ ان يكون جزء من جزائر الروم تحت حكم الترك وان يكون الباقي منها على الاستقلال هو مملكة الروم وصارت اجماليا عبارة عن امارة صقلية و امارة الصقليسة و امارة توسكانا و امارات اخرى صغيرة وصارت حكومة الجول عبارة عن مملكة و جزء منها صار هو مملكة هولاندة و جزء اخر اعطي للبروسيا وغير ذلك و انقسمت حرمانيا الى تسع وثلاثين ولاية متعاهدة اكبرها النمسا و بروسيا وان يكون جميع شمال اوروبا و اسكنديناوة في تصرف الروسية وكانت منسمة الى ولايتين تحت تصرف ملك واحد وصارت جزائر الانكليز دولة واحدة و يوجد في هولاء القوم الى الان اثار عوائدهم و لغاتهم الاصلية فالروم اغلب اهلها من البيلاصك و لغتهم من لغة الروم القديمة و اغلب اجماليا من الامة القديمة و دخل معهم الجرمانيون في الجهة الشمالية و دخل في الجنوبية العرب و لغتهم صارت من الرومية و بقي في جزيرة الاندلس ما قل من الامة الاصلية و اغلبها من الرومانيين و الويزيجوث و العرب و لسانهم من اللغة الرومانية و في الجول قليل من سكانها الاول و اكثرها اخلاط من الرومانيين و الجرمانيين و لسانهم مأخوذ من الرومانيين و اغلب سكان جرمانيا من النسل القديم و السلاو و لسانهم هو لسان ابايهم الاول من غير تغير و الروس عبارة عن سلاو و فينوا و لسانهم اللسان القديم و اهل السكنديناوة و التوتونيون لسانهم هو القديم ايضا و وصف اهل جزائر الانكليز من الامة

الاصلية والنصف الثاني من الجرمانيين والرومانيين ولسانهم
 مستق من لسان التوتون مع اللسان الروماني او الفرنساوي وفي
 جهة الشمال يوجد بعض يتكلم بلسان السلت التار وهم الامة
 الاصلية وبعض اخر اترك وجراكسة وياوروبا في هذه الحالة
 ثلاثة انواع من سكانها الاصليين وفي جهة الجنوب الطائفة
 اليونانية الرومانية وهم يتقسمون الى اروم وتليانيين واندلسيين
 وفرنساوية وعددهم نحو سبعين مليوناً

وفي الوسط والغرب نوع التوتون ويتقسم الى المانيين
 وسكنديناوة وانكليز وعددهم نحو ستين مليوناً وفي الشمال والشرق
 عائلة السلاوي الصقالبة وتنقسم الى الروس والسلاف وعددهم
 سبعون مليوناً والى الفينوى والترک واليهود وغيرهم ويتروون
 من عشرين مليوناً وغالب اهل ازروبا يتدينون بدين النصرانية
 وهناك قليل من المسلمين واليهود وفي بعض بقاع جزيرة في جهتها
 الشمالية عباد اوتان واهل الجهة الجنوبية بلغ عددهم نحو مائة مليون
 والروم بالجهة الشرقية وعددهم ستين مليوناً والبريستين بالجهة
 الشمالية وعددهم خمسون مليوناً والمسلمون واليهود وغيرهم نحو
 عشرة ملايين

واما جيوش الدول الاوروباوية فعددهم يقرب من مليونين
 من المقاتلين في وقت السلم وبصرف عاهل في العام ما يقرب
 من خمس ايراد ممالكها

ثم انه خشي طول المجلس فقال وهذا الذي ذكرته في هذه
الساعة انما هو على وجه الاجمال والاختصار وان شاء الله تعالى
في مرة اخرى اين لكما كل دولة على حلتها
فقال ابن الشيخ كنت اود ان توقفني على البحر التمهيد وكيفيته
وهل يستطيع احد ان يقرب منه فقال الشيخ نجعل الكلام في ذلك
بالعربة ثم قاموا وركبوا

— — —

المعامرة (١.١)

نزعة في باريس

قال الشيخ اني ما خرجت مرة بهذه البلدة الا وعجبت من
كبرها وكثرة اهلها وتتابع حركتهم ليلا ونهاراً وكان الشيخ يضرر
من سكناه داخل البلد لما يرى ويسمع دائما من الحركات القوية
والاصوات الانسانية والحيوانية فان العربات ليلا ونهاراً تمر وتكر
فيكون لعجلاتها اصوات في تصادمها بالاحجار المفروشة في الطرقات

وشبايك الدور والتصور والحوانيت ارتجاج من الريح والفتح
 والغلق ولله كاري واصحاب الاسباب والحفظ اصوات والحان
 وذهاب واياب وكل ذلك يرث القوي في شرايل وابل
 الاشغال قتال ليقترب لو سدا خارج المدلجان ما اوتى وصحة
 جسمه ما اتي وارفق قتال معقوب رأي الشيخ في ملكه فان الخواجا
 ايضا متضرر من اقامه بهذا المحل ولكن الذي ايجاه لي الاقامة
 به فربه من محل شغله واصحابه وقد وصف لي محلا اوسع من هذا
 يطل على حديقة وبينه وبين الشارع مسافة ولو كان عند الخواجا
 خبر بتضرركم من هذا المحل لبادر الي التقله وما تاخر فاشي الشيخ
 عليها ثم قال ان مدينة باريز لمن اعجب مدن الدنيا بما حوته من
 المحاسن والزخارف والتحف واللطائف وثروة اهلها وحسن
 بنائها واظن ان شدة الفراء بها ضكفة لا شدة اهلها

قتال معقوب ربما كان حال القبر بها احسن منه نبيها
 فان اصحاب ادال كايهلون الاموال العظيمة به بجوا كثيرا
 كذلك القراء لهم طرق مندوبة يصلون بها الى نوابهم وتلذذتهم
 على حسب حالهم وقدره كل مدينة على حدها زكل ما كبرت
 المدينة وزاد بها زهو الانبيا كثرت بها طرق معاش القراء
 فانهم مع انتشارهم في الخدم والوظائف يتبعون امورا كثيرة لا
 يعلمها الا من دقق النظر اليهم مثلا البواب لا يقتصر على وظيفته
 بل يرى هو وعباله مشغولين بما يجلب لهم سعة المعاش فالرجل

بمخسف النعال والمداسات والمرأة تمخبط الثياب والبنت تغني
وتعلم الغنا والولد يسحق اجزاء الملونات واذا نامت تجد بالدروب
اناسا فقراء يجمعون من التراب والطين قطع حديد ومسامير ورجلا
واطفالا يمسحون مراكب الناس واخرين يقصون شعر الكلاب
واخرين يبيعون الكبريت والحلاوة او المشروبات للاطفال ومنهم
من ينادي على الملابس العتيقة ومن يبيع الرياحين واوراق
الحواشي والاعلانات وقطع اللعب داخل التيارات وهذه الامور
وان كانت في الظاهر قليلة الفائدة لكن كثيرا ما وصل بها
الفقراء الى ملك عتار ومال حتى عدوا من وجوه الناس واظن
انك رايت اناسا بالليل يجمعون الورق الملقى بالطرق والعظام
فقال نعم قال هذه امور تعيش منها خلق كثيرون ويكسبون
منها قوت عيالهم وهناك طوائف كثيرة عيشتهم من التملق
والكذب والتجسس والخيانة ونحو ذلك ما يوجد في المدن
الكبيرة

فقال ابن الشيخ باثمارة كثر من الناس يجمعون فضلات
انسجارت التي تربي واخذون منها الدخان وبيعونه بالاسواق
ويقتاتون بثمنها واخرون يجمعون قطع الزجاج وبيعونها لمن
يصنعها اساور لفقراء النساء ونحو ذلك

فقال الشيخ ان الله سبحانه وتعالى يسر لعباده طرق الارزاق
وهو في الحقيقة الرزاق فجعل لكل مخلوق وجها يصل اليه منه

رزقه الذي تقوم به حياته فسبحان مسبب الاسباب وهو المعطي
الوهاب فقال يعقوب مدينة باريز فضلاً عن كونها مركزاً للهوى
واللعب والمحظ والمرب هي ايضاً مركزاً لتجارة واسعة ترد اليها من
جميع اطراف دولتها ومن جميع اقطار الدنيا وتصدر منها الى
البقاع كافة فلا بقعة في الارض الا وترد اليها منها بضاعة تحدها
مرغوبة لجميع الناس لاحكام صنعتها وحسن روتها وبهجتها فكل
اهل اوروا يرغبون فيها ولا يستغنون عنها وكانا اسيا وافريقيا
وامريكا وجزائر الاوقيانوس فلذلك تعلق الباريزيون بالاشتغال
بالصنائع واكثروا من الورش والمعامل فانسعت دائرة تجارتهم
فتراها بذلك منبع الصنائع اللطيفة والتحف المنيفة فليست تحت دولتها
فقط بل تحت دول الكرة بتمامها

ثم قال ايها الشيخ قد صرنا خارج البلد فيدعي ان نصرف
هذه الساعة في التروح والتنزه وان شاء الله تعالى بين اكمامنا
اشتملت عليه باريز من الصنائع وما فيها من الورش والمعامل
وبيوت الاعمال فنظر الشيخ يمينا وشمالا وقال يا اللطيف هذا النسب
شنان ما بينه وبين ما في داخل البلد فماها من مورث الصحة
بسبب صفاء الهواء بقدر ما هناك من موجب المرض بسبب
كدورة الهواء والعفونات فلنعم انت من انسان حيث جئت بنا
الى هذا المكان ثم صار يكرر الالتفات يمينا وشمالا فتوا التصور
فيجد بعضها بجافة الطريق والبعض بعيداً عنها وكل منها داخل

حقيقة حسنة الشكل منظمة الوضع فيها من كل انواع الاشجار
 والازهار وكان يرى اودية بين القصور فيها البقول والخضراوات
 وتارة يجد ارضا متسعة كلها اشجار ملتفة وازهار مؤتلفة الا ان
 بعضها مرتفع وبعضها منخفض وفي بعض اماكن جبالا وهضبات
 مرتفعة متراكمة بعضها فوق بعض كطبقات الثوب وما نظرا الى
 جهة الا راى الشمس قد رمت على سطحها صوراً مختلفة من
 ظل الصخور والاشجار التي بها فكانت الريح بها تنفق والاعضان
 بعضها تصفق وتخيل للشيخ في ذلك الوقت ان هناك موسيقى
 تضرب لما يسمعه من حفيف الاشجار وتغريد الاطيار وصباح
 البلابل وترنم العنادل وتارة كان يمتزج حفيف الشجر بتغريد
 الجداول والانهار وتغريد القاري والاطيار فتفكر الشيخ في محكم
 هذا الصنع وقال من تأمل محركات هذه الاشجار قال انها متمتعة
 بالحياة في هذه الدار ولها شهوات كما للحيوانات فترى البعض
 يخضع ويضع والبعض يعلو ويرتفع والبعض يتأبل وينعطف
 على غيره والبعض مضطرب اضطراب المتعادين واخر
 ينضم انضم المتحايين فكان الالفة والتحاب والتنافر والاجتناب كما
 يكون بين نوع الانسان يكون بين الطيور والاعضان فترى
 البعض كمن نهب وقاره او اذاه جاره والبعض كمن اقترب بعد
 الغنا او فارقه خلانه حتى آل الى الغنا ففيها المجرى عن اوراقه
 والمجروح باخذك الاخر فيه وخالي الجوف من طول معيشته

وخصوصا اذا كان مجاوراً للقائم على ساقه المزدهي بغصونسه
 واوراقه ومنها كماظهر للدلال يميل مع الريح حيث مال
 وفيها ما يجبط به شيء من جنسه وغير جنسه فهذا كمن نال
 درج العز في هذه الدنيا فا من كبير او صغير الا ويدل على
 عظمة الخالق اللطيف الخبير

وبينا هم كذلك اذ وصلوا الى عين ماء فنزلوا جميعا
 ثم قال يعقوب للفرنجي خذ هذه الدرهم وتوجه الى تلك اللوكانة
 وهبها لنا طعاما فتوجه وفي الحال احضر لهم الطعام فاولوا به نحو
 العين فاكلوا

ثم قال الشيخ ان النفس بهذا المكان قد ايسمت والابدان
 من وخامة البلد قد نشطت وصار الذهن صافيا والوقت موافيا
 فان تفصلت علينا وتلوت باقي قصتك كان حسا

المعامرة (١٠٢)

تمة حكاية يعقوب واخيه

فقال يعقوب نعم اني كنت ذكرت لحضرتكم اني بعد حضوري الى لوندرة وتمام ما كان من امر الدراهم التي كنت اودعتها عند زوجة القبطان قصدت البلد لانظر ماذا حصل لاختي في تلك المدة التي قضيتها في الاسر فدخلت قبل غروب الشمس فتوجهت الى منزل الست التي كنت انا واختي عندها فوجدت احوالها متغيرة ولم اجد احداً بالمنزل من كنت اعرفهم بل كلهم مستحدثون فسألتهم عن اختي فلم ينفدني احد منهم شيئاً انما اخبرت بان صاحبة المنزل ماتت منذ ثلاث سنوات وقد باع زوجها منزلها وتوجه مع اخيه واولاده الى بلاد الهند فخرجت الى حانوت الجزمي معلي فلما وقع نظري عليّ قام وعاتني واجلسني بجانبه ثم دار بيننا الحديث

فسألني عما جرى فقصصت عليه قصتي بالاختصار ثم سأته عن
 اختي فقال هي وحدها في المكان الفلاني اخذته منذ سنة وحصار
 ياسف على ما نابني ويلومني على مخالفتي له ثم استأذنته في التوجه
 الى اختي فقام معي واخذ بيدي وسرنا حتى وصلنا البيت فسأست
 زوجة البواب عن ثرة مسكنها فدلنتني فبعدنا حتى وصلنا المكان
 وطرقت الباب ففحت فلما وقع بصرها علي نعاتقنا والمعلم بنظر
 البنا ثم جلسنا وحاس المعلم معنا قليلاً ثم ودعنا وانصرف فقنينا
 غالب الليل تحدثت فيما وقع لنا من الحوادث فكان ما حدثني
 به ان قالت انها لما انقطع خبري عنها حزنت حزناً شديداً وكانت
 الست لمحببتها لها تصبرها وتسلها حتى البستها برب الارب وكان
 كانت تعتزل الناس احياناً وتبكي علي واستمرت كذلك الى ان
 ماتت الست فخرجت من البيت ولم تخرج بخدمتها معها وانخذت
 هذا المسكن وكانت تتيات من صعدة الحياطة بها باره وبها
 وكانت حلوة اللسان فألفها كثير من الناس ودميتها على عهدها
 من الخياطين فاتخذت لما حانها جمعت نبيها عن من البنات
 وكانت تصرف عليهن فاكسبت من ذلك ثمناً جزيه فقلت
 لها يا اختي لو جمعنا ما تحصلنا عليه لاعتما بويه في أرغد عيس
 وفرحت بذلك وبجنت على محل واسع وسأجرتنا ما وصرنا يوماً
 فكنت اخرج معها بعد تمام اشغالنا بحرا الثغابات حول البلد ونارة
 نحو البلاد المجاورة واخرى في ارض الزراعة او في حارات البلد

فكنت اجمع منها عبارات حسنة عند ذكرها ما رآته من الحوادث
وما عاينته من المشاق مدة الافتراق وفي المخلوات كانت تملأ قلبي
سرورا بانعام لطيفة نسعني اياها ولكنها كانت اذا ذكرت ما رأت
من الحوادث وما فاست من الشدائد والم الفراق تدمع عينها
فاطيب خاطرها واسليها وكثيراً ما ارى على وجهها التغير فاسالها
فلا تفيدني شيئاً وكانت في بعض الاوقات تذكر الترهيب وتمدحه
وتمدح العزلة عن الخلق وكثيراً ما قالت لي انت السبب في
حيي للبقاء في الدنيا فاسمع كلامها ولا افكر في معناه لكن لما تكررت
منها هذه العبارات في كثير من الاحيان خطر ببالي انها تخفي
عني بعض احوالها فكنت اكثر الاستفهام منها فلا تفيدني ومضى
علينا احد عشر شهرا ونحن على هذه الحال ثم بعد ان كانت تظهر
السرور احيانا اكثر من البكاء فكنت ادخل عليها بنقطة فاجدها
تبكي بكاء شديداً فاذا راني سكتت فداخني الوسواس وضاق
صدري وزاد همي وقدمت راحتي حتى تمتبت الموت وعلى قدر
ما كنت ارغب في معرفة السبب كانت تجهد في اخفائه علي
فصرت بهذه الاسباب اقضي غالب الايام سياحة في البلاد وفي
الغابات فكنت اغيب اسبوعين او اكثر واعود فلا اجدها تحولت
عن حالها حتى اعترها التحول وزاد مرضها فاستاذنتها في التوجه
الى لوندرة لافرج عن نفسي فتوجهت واقمت هناك
نحو اسبوعين ثم عدت فلم اجدها بالمنزل وسالت

عنها فقبل لي انها خرجت وما عادت ففدقت ذرعا من ذلك
 حتى كدت اقل نفسي وترا كبت علي مصائب الدهر ورأيتني
 وحيداً كما كنت في بلاد الغربية فخطر ببالي الا نلاط بالناس
 عسى ان تزول تنفي افكاري ويهون علي احزائي فلما اخلطت
 بهم تحققت خطأ ظني لما كنت اسأله متند مخالطتهم من فساد
 افكارهم لاني كنت اذا تكلمت لا يسمعون مني وان اسفيت شولهم
 فلا استفيد منهم شيئاً وجاهدت نفسي على ان اعودها الاتلاف
 بهم فلم يمكن فاحترت حيرة شديدة وضافت غلي الارض بما رحبت
 واحببت ان اسكن جهة من البلد غير مطروقة واعيش فيها
 وحيداً عن الناس بعيداً وكانت تظهر لي ابتداء لذة العزلة عن
 الناس واذا اجتمعت بهم كاني في فلاة خالية منهم ولا التفت لما
 يفعلون ولا اصغي لما يقولون وكانت اكثر اوقات النهار تمضي وانا
 بالكيسة متفكراً في حوادث الدهر وكنت ارى فيها بعض نساء
 خائفة خائفة من خشية الله تعالى واخر بطلبين غفر ذنوبهن
 وبعد خر وجهي رى على رجهن السرور فكانت الشهوات
 البشنة نلاطام امواجهها خارج المبد ونقند في داخله ففي تلك
 اللحظات كنت اطلب الخلاص من احوال الدنيا بالموت ليطمئن
 قلبي وفي الغروب اتوجه نحو مسكني فاكثر النظر للشمس حين
 الغروب وللابخرة المتصاعدة باشعتها من المدينة فكانت تظهر لي
 كأنها تتماوج في مائع من ذهب وفي الليل كنت امر من وسط

الحارات وانظر فيما حوالي واتفكر في وحودي ببلدة مثل هذه كبيرة
ولا صاحب لي بها ولا حبيب ومن مبدأ عمري وانا في الهوان
الى هذا الان وسد ما ظننت ان الهوم انقضت باجماعي باختي
سأني الدهر نفرقتها من شير ان تعلمني بمسئرتها وما دريت ماذا
حسن لها ذلك مع علمها ان لا محب لها شيري فكان ذلك بهيج
اتحاني ويزيد احزاني فحل بجسسي الستم وزاد الألم فكت بسبب ذلك
امضي الايام متفكرا ومن هذه الامور متخيلاً ثم طراً علي في يوم ان
ذهب نحو النابات واعتزل عن المخلوقات مدة الدهر الى انقضاء
اعرف ذهت الى ما اردت فضوتف علي العذاب امثالا وزاد
البدن اضملا وزاد لي الفكر واشتد علي الامر وقضيت مدة
طويلة على هذه الحال فكت اقيم في الغابة تارة واسبح فوق رؤس
جبال اخرى لا اري غير السحاب ولا اسمع غير الرعد وكت اري
القرى على بعد كأنها نقط سود حولها دخان واتفكر في الرعاة
والزراع حين رؤيتي لم على بعد فاقول ما من احد منهم الا وله
اهل يترقب عوده وقلب بجن له حين يجتمع به فكل منهم له امر يهيمه
وانت يا يعقوب حكم عليك القاهر بالمزنة وكيف تطلب الراحة
بها مع انك لم تجدها فيها وماذا عليك اذا اقدبت بغيرك ورجعت
الى العمران واخترت من السآة امرأة تضي زمك معها وتشتغل
بامر تعيش منه وربما رزقت باولاد تفرح بهم وتزول هم عنك هذه
الهوم فكت ارتاح بلك الافكار ثم بعد قليل اقول اي انسان

يرضى باعطائك ابته ولا حسبك ولا نسب لا سيما وهم يعرفون
أصلك ومحل تربيتك وعلى فرض وجود من يرضى بك فمن
يكفل لك دوام المعاشرة واستمرار المودة وكيف اطمن الى معاشرة
الناس مع ان ما حصل من اختي شقيقتي شاهد بعدم بقاء المودة
بيني وبينهم وهل احد اقرب الي من اختي ثم نكر علي الافكار المحزنة
بجيوشها حتى اقول ان كانت الحياة هكذا فالموت احسن من الحياة
وجمع الاموال بمقاساة الاموال فكنت متردداً غريقاً في بحار الافكار
لا اقف عند رأي ارتضيه واذا وقفت تغير لوقته فصرت كسفينة
في بجة تسير مع كل هواء هب وموج دب وكلما تأملت احوال
المخلوق شئت عشرتهم وانقضت الفتهم وفي بعض الاحيان كنت
الوم نفسي واقول ما من احد الا وله امر يهيمه ولا بد من
مرور هبوم الدنيا على كل احد فلا صغير ولا كبير ولا خير ولا
امير الا ويلحقه امور تكدره فيلزمه ان يستعد لها ويصبر عند نزولها
وعلى العاقل ان يسير مع الناس في طباعهم واخلاقهم وليس له ان
يحكم على الناس بطبعه فينبغي لك ان تلتزم بالخطاء في امورك وتنزع
ثياب العزلة والحزن عنك فكنت ارجع الى البلد واخالط الناس
مجتهداً في موافقتهم والسير حسب طباعهم فعزم عليّ معلى بالاقامة
عنده لما بلغه خبر اختي فقلت له ان ضعف قوتي وشغل فكري
يمنعان من ذلك ووعده اني ان اتمت في البلد لا اجعل اقامتي الا
معك فكنت اتردد عليه احياناً وهو يوادني ومضى نحو اربعة اشهر.

على ذلك وأنا غير مشتغل بامر وفي تلك المدة ما تركت بلدة الا
 ذهبت اليها لاستخبر عن اختي وبسبب انها كانت تخبرني بحب
 الرهبانية ظننت انها تكون في احد الديورة فطفت على جميعها فلم
 اقف لها على خبر ولم اشتر لها باثر والعجب اني ما سمعت بخبرها من
 احد من اهل البلد وكانها قد ابتلعها الغبراء او اخطفتها النسور
 الى السماء ثم دخلت المسكن ذات يوم بعد عودي من لوندرة وكنت
 فارقه من مدة خمسة عشر يوماً فوجدت على الطاولة مظروفا
 ففضضته فوجدته من اختي فطار لي وخقت بلايل قلبي فقراءه
 فاذا فيه

أخي وعزيزي وفره عيني الله يشهد على ما بقلبي من حي لك
 ولو ملكت بذل روعي لتكون زيادة في عمرك لفعلت وارغب ان
 اصرف جميع طيباتي في جلب السرور لك ولكني ختيرة ذليلة وقد
 قاسيت من نهري ما لا يقاسيه غيري وهذا سبب فراتي لك واخباري
 الرهبانية والعزلة ما دمت حية فارجوك الصبح عما حصل مني في
 خروجي عنك وانفصالي منك بدون علمك وما بعثني على ذلك
 الا خوف منعك لي عما صنع بفكري مع نصيبي عليه وطيران قلبي
 اليه وانت تعلم ببلي للرهبانية وتعلم اني ليس لي راحة في سواها فعنري
 قائم لديك وحالي لا يخفى عليك وقد علمت ببلي للرهبانية ومن
 وقت خروجي من عندك الى الان وانا في الدير الفلاني وقد اخترته
 على غيره لما فيه من الراحة لي لحسن موقعه وكثرة مزاياه ولي خلوة

أبعد فيها متى دخلتها كان البحر تحت نظري وأمواجه تواسر
وحشتي وتذهب الم وحدني وموقع هذا الدير فوق الجبل بعيد
عن كل طريق والنبات محيطة به يذكرني الأيام التي مضت عاونا
في الاجتماع مع الهناء والسرور فافرح بذلك كرتي ويكفيك مني
معرفتك قدر حي لك واني ما اخترت العزاة الا لراحتك ولو عرفت
فائدة في معرفتك الاسباب الموجبة لذلك لعرفتك اباها ولكن
معرفتها لا تزيدك الا كرها على كركبها على همك وقد حررت
لك كتابي هذا بدموع عيني فارجوك قرآته بعين الرضى سني فهي
عن كل عيب كيلة ومع كل هذا فلا حيلة في حكم القادر فارجوك
ان تصفح عني الصغ الجليل وتقبل عنري ولا تنيب ظني فيما رجوت
فقلب اخلك بأبين اكنوى وازداد به الم الجوى وارجوك ان
لا تعزل عن الناس وان تتزوج لك امرأة تقوم بشأنك لتزول
عنك الاكدار واذا تزوجت بامرأة فيرجى ان ترزق منها بالذرية
التي بها يكون سرورك ثم اني ما اتميت قراءة هذا الكتاب الا
وقلي في خفتان واضطراب فقلت في نفسي ما هذا السر الذي
تخفيه عني واوجب مفارقتها لذة الدنيا مع حداثة منها ولاي شيء
دفنت نفسها بالحياة فلا بد لذلك من شان عظيم وخطب
جسيم ثم فتحت الكتاب وقرأته ثانيا وقلت ربما يكون فاتني شيء
منه اول مرة لم افهم معناه فلم افهم منه اكثر ما فهمت اولاً انما يابح
من الفاظه صورة محزنة فهمت منها انها ربما احبت انساناً وتخلي عنها

او بحثت عدم الرسول اليه بوجه حل اما نظراً لمخالها او حاله
وقوي هذا عندي بأمور تذكيرها كت ارأها منها من ذلك انها
كانت تكتب مكاتيب وترسلها مجتمعة في اخفائها عني وقد قوي
عندي هذا الظن حتى حاولت صرفه فلم ينصرف فاخذت ورقة
وسطرت فيها ما يتضمن استعطافها ورجاء أي منها ان تسمع لي بشرح
حقيقة امرها ولحمت لها بما خطر بفكري لكن بلطف وارسلته
بالوسطة فلم يمس غير قليل الا وورد منها افادة لم تفدني بها
شيأ غير نهيبها لي عن العزلة وتحريري على الانس بالناس والحمت
علي بالزواج فعند ذلك عزمت على التوجه اليها وافعل ما يمكنني
في نهيبها وردعها عما هي فيه لعلها تسمع مني فسرت اليها بعد جمع
ما بقي من الدراهم فلما وصلت الى الدير سألت عنها فقيل لي انها
لا تكلم احدا فكتبت لها مكنوباً فافادتني في رده انها اعدت نفسها
لخدمة المسج وليس معها وقت تشتغل فيه بامور الدنيا
ومن حين كتابها انها قالت ان كنت تعزني حقيقة وتحب
لي الخير فلا تشغلي عن التوجه الى الرب والتجرد عن الاشغال
بالمخلق فان روءيتك لي تشغلي عن العبادة نعم ان رضيت ان
تكون لي والداً يوم الاعتراف كما هو الاوفق بمرؤتك اذنت لك
لك بالدخول علي فعميت من صدور تلك العبارات عنها مع
عليها بما عندي من الحزن عليها وغرقت في بحر فكري فكنت تارة
اقول ينبغي الرجوع حالاً وتارة اقيم هنا حتى انظرها وتارة اقول

أقبل نفسي وقت دخولها الكنيسة مع الرهبان فارح نفسي من
تلك الأهوال واحرق قلبها وانفص عيشها كما احترقت كبدي
وكدرت صفوي وكنصت علي عيشي حيث دفنت نفسها بالحياه
وبينا انا كذلك جآني خبر من رئيسة الدير بانها قد اعدت
لنا دكة نجاس عليها يوم المحضر وهو اليوم القابل فاقمت بقية اليوم
والليلة بتمامها كأني اقلب على جمر الغضا حتى اسفر الفجر فمعت
الى باب المعبد الذي هي فيه فوجدت هناك خائفا كثيرين فوقفت
معهم فجاء رجل واخذ بيدي واجلسني على الدكة قريب المحراب
فصرت اقلب نظري بيننا وشمالا ثم بعد برهة فتح باب صغير
فخرجت منه اختي وعلمها من الجمال وثياب الزينة ما لا يوصف
فنسيت عند ذلك همومي واشتراني من الخشوع وتعظيم الدين ما
لم يكن من قبل وكنت انظر اليها بعين العفة والتعظيم وهي
تخطر والقسيسون حولها حتى اجلسوها تحت مظلة ثم تجرد احد
القسيسين عن زيتته وابقى عليه ثوب كتان وصعد المنبر وخطب
خطبة قصيرة ذكر فيها سعادة البكر التي حضرت ووهبت نفسها
لخدمة المسيح وفي الحال نضوت الروائح الزكية من جميع جهات
المعبد وكانت الناس تقلب النظر من القسيس اليها ومنها اليه
ثم نزل من فوق المنبر ونس ثيابه الرسمية وامر بتبين فأثنا
باختي الى اخر درجة من العراب فهناك جثت على ركبتيها ثم
دعوتني لأودي واجبات الابوة فتمثلت بين يدي القسيس

بسم الله الرحمن الرحيم
الكرن وظهر لي انها لم تمالك نفسها بل كانت ان يشتى عليها
الا انها نظرت الي نظرة معتذر متعباد فهدت وداخلي خشوع
ثم اجرت المنص على راسها فزال شعرها الذي كان يسترها اذا
نشرته وبين الارض اذا رسلته ثم اتى لها بثوب من صوف
فلبسته وبنجار فنصت به راسها ووجها وپرداء من كتان
فتردت به

بحيث كان خروجها من الدنيا وزهدا فيها لا يتم ولا
يكمل الا بتسوية موتها ودفنها كاليت الحقيق التي نفسها على
الرخاء كاليت فكفروها ووضعوا حولها اربع شمعات وقد اخذ
القسيس الكتاب وهو بلاسه الرسمية والرهبان مخفون به وكنت
حينئذ قريبا منها حريصا على معرفة جميع ما يحصل من الحركات
فسمعت صوتا خفيا من داخل الكفن وصل الى اذني ولم يسمعه
غيري والناظر يا اله العالمين رب السماوات والارضين ان
تجعل هذه اللعنة آخر عمري حتى لا افوم من موضعي وان تصب
على اخي الذي لم يقاسني فيما جنيت من الخطيئة الصبر فيطمئن قلبه
ويعيش عينه مرضية فلما سمعت منها ذلك انتراني اضطراب
فوقعت على اخي فقلت يا عروس المسيح يصفح الرب عنك حيث
مركنتي وحيدا اكابد تغيب الايام فاضطرب من بالكنيسة مما
فعلت وصاحوا بي فاخذت مغشيا علي ولما اقيت وجدت الامر قد

قضي وقد لحق اختي من الحمى ما لحقها وجعلوا يطلبون مني ان
لا ابحت عز لقاءها فمضت ذلك عليّ وخرجت لا ادري اين اتوجه
فدخلت غابة وصرت افكر فيما حصل لي ولها من الحوادث ثم قلت
في نفسي ليس لك الا مفارقة هذه الارض فانه لم يتوكل في ما
يوجب اقامتك بها وانما انتظرت شفاء اختي لاردعها فبقيت نحو خمسة
عشر يوماً استنشقت اخبارها فتارة كانت تبلغني وتارة لا ثم بلغني
خبر موتها

قال راوي الحديث فعند ذلك هطلت عينا يعقوب بالدموع
واخذته حالة الملعون لما ذكر موت اخيه وشقيقة روحه
فقال له الشيخ

كل ابن انثى وان طالت سلامته

يوماً على آفة حديه محمول

ومعلوم ان ما جرى لكما يجري لنيركا فتزود الصر تفر بالاجر
وكيف تجزع وقد طفت البلاد واعطيت عتلاً وافراً فهل رأيت
حياً لا يموت واعلم ان الحوادث للرجال كاللحمك للذهب وسترزق
راحة ينعم بها بالك وتحسن بها حالك

فقال يعقوب ان في صحبتي لكم عوضاً من كل فائت فاني
منذ اجتمعت بحضرتكم هذا روتني فارجو ان لا يفرق الله بينا وان
يجعل اخر حياتي بين يدي حضرتكم وقد عزمت على ان اقيم
بارض مصر

المسامرة (١٠٤)

البورصة

فقال الشيخ هذا ما يسرني وهي نية خير وتحققها سهل فعن قريب نعود وتكون معاً خصوصاً وحضرة الخواجه يعزك كثيراً وكان الوقت قد قرب فقال الشيخ نحن مدعوون الليلة عند صاحبنا الليباني ويلزنا الذهاب اليه وفي وقت آخر تم لنا اخار حوادثك فقاموا وركبوا حتى دخلوا المدينة فلما وصلوا منزلهم وجدوا تذكرة كتبها الخواجه الليباني وتركها على الطاولة مضمونها اني حضرت لزيارتكم فلم اجدكم وعن قريب اعود وان حضرة الخواجه الانكليزي ارسل لنا تذكرة بعنبر فيها عن الحضور لامر منعه وساءعود قبيل المغرب لانشرف بكم وتسبرون معي الى بيتي فاخبر الشيخ يعقوب وولده بذلك فاخذنا بتهيأ للتوجه واذا بالرجل الليباني قد

حضر فقال إن جملة من الاحبا دعوتهم مع حضرتكم وها أنا قد
حضرت حسب ما اخبرت جابكم في الذكاة فقاموا جميعاً وركبوا
عربة ثم ساروا فهروا بسراية مشيدة البناء مزخرفة الارجاء حولها
اناس كثيرون في حركة عظيمة

قال الشيخ ما هذا المكان فقال الخواجا هذا المكان يسمى
البورصة أي بيت المصارفة واعمال التجارة بين باريز وجميع جهات
المملكة وبينها وبين جميع ممالك أوروبا واسرق وأمريكا فهو
مكان تجتمع فيه الصيارفة الكبار والساسة وعضاء التجار وهومن
ضمن العمارات العظيمة التي تتباهى بها باريز وينبغي رؤيتها والنظر
لتجاري بين الناس فيها فقال الشيخ لعلنا ننظره في يوم غير هذا
ان كان هناك اذن بالدخول فقال الخواجا ان دخوله مباح لجميع
الناس وامر هذا المكان عجيب واصطلاح اياه في تخاطبهم شريب
فمن لم يعرف اصطلاحات الصيارفة المفتح علياً فيما بينهم يظن
انهم ليسوا من اهل باريز لان لهم لغة خاصة بهم نكمدون به فيما بينهم
وبين عملائهم ولا يعرفه غيرهم وبماك ازدحام شديد والالفاظ
تصادم قوي يشأ عنه ذوي هائل بحيث يبع الطارىء عن فهم
معاني الالفاظ لاخلاطها وعدم تميزها

وما يزيد الانسان تعجيباً انه لا يوجد هناك غير الكلام واما
المبادلة وقبض الدراهم فشيء نادر ومن يتأمل في احوال اهله
ويعن النظر فيهم يرى البعض منهم مسروراً والبعض بالحزن

مغمورًا والبعض يقلب من الحيرة كفيه ويتف شعركيته ومنهم
 المتفكر ومنهم من يضرب ويجمع ومنهم من لا يستقر في موضع
 بل يطوف والى ما بدا منه يرجع وإسناد ذلك كله حب الدرهم
 والدينار فانها يفعلان بالعقول ما لا تفعله الخهور فمن ذهب ماله
 غاب غاب غابته رسات حاله ومن ربح تمت مآربه وصفت مشاربه
 فيلزم من يريد الدخول في زميرتهم ان يكون خبيراً بمعاني الناظم
 وكيفيه معاملاتهم وعلى يتبين من معارفهم وحيلهم وطرق حسابهم
 واصطلاحات ممارستهم وعوائد خاصتهم وعامتهم وإلا فلا بد ان
 يقع في شباك مكائدهم وحبال مصائدهم

قال الشيخ ان باثاهرة مكاناً له شبه قابل بهذا يقال له
 حارة اليهود فيه كثير من الصبارفة والمرابين ففي بعض ايام السنة
 تزدهم عليهم الخلق الواردون من الارياف وغيرها اما للاقتراض
 او للتسديد او لتغيير الموايد فهم يتجرون في غفلة العالم ويغتمون
 فرص الاحياج فيحملون الخلق ائثال الربا ومن حرصهم لا يقرضون
 الا برهن او ضمانه وبكثرة ما يطلبونه على كل مائة يرى كثير من
 الناس قد آل امره الى بيع مارهنه ولحتمه الفاقه ولبس ثياب النذل
 بعد العزوف في بعض الاحيان يطالب الكفيل والمكفول معاً فكم
 من متأوه من هذه الطائفة والعجب ان الرباه محرّم في الشريعة
 الاسلامية ومع هذا لم يبق من الناس في هذا العصر قتيرو ولا غني
 الا وهو واقع فيه ومن كثرة التعمود عليه صار كأنه من الامور

المجاورة بل ربما يرى ذلك بعض الناس انه من فعل الخيرات
 وازالة الضرورات ويرون الامتناع منه من الحرج والتضييق على
 العباد وتعطيل الارزاق

قال الخواجي التلياني ايها الامناء ان التجاري بهذا المكان ليس
 كالتجاري بمجارة اليهود بمصر لان المعاملة في هذا المكان خاصة
 بالشركة التجارية ليس شير

واما الماملة بالفائدة والمصارفة فمخصوصة بالبنوك ومن
 ذلك حارة اليهود واما ما فانه انا فرض ان بعض الناس رغبوا
 في الشركة في عمل شيء تبلغ تكاليفه زيادة عن قدرتهم استأذنوا
 عنه الحكومة ومضى تحصلوا على الاذن عين المجلس قيمة السهم في
 هذه الشركة ثم تعطى الاسهم لاحد مأموري الاعمال لان هذه
 اشخاصا معينين بامر الحكومة يقال لهم مأمورو الاستبدال فيشتر
 يادون عليه فكل من رغب في قدر اخذه وربما حضر اقوام بعد
 توزيع الاسهم يطلبون الاخذ بزيادة عن المقدار ظنا منهم وواج
 الامر فيشترون بازيد وهذه الاسهم كالبضائع التجارية تباع
 وتشرى وتغلو وترخص حسب ما يفتور الامر المشترك
 فيه

واما التجاري بمجارة اليهود عندكم وعند الصارفة على اليهود
 فهو مباداة القرد : وما فكل منهم ترا يتهمز الفرسة فجدال القيمة
 على حسب ما يراه من الاحياج فاننا رأى مضطرا اطعمه وزاد

في اكرامه وسهل له امر الريح ليرغب في معاملته فان لم ينظن
 المضطر لمكن وقع في حباله وكما ازداد عليه الدين طمع فيه وازداد
 في الريح واجتهد في الاستحواذ على حجب املاكه فاذا علم ان ما في
 ذمته صار قريبا من ربع قيمة املاكه او ثلثها امتنع عن اعطائه
 وسلك به طرق العسف فيشكوه ويترافع معه في مجال الحكومة
 الى ان يؤل الحال الى الحكم عليه ببيع ملكه لسداد المطلوب منه
 رأس مال وربما قيل ان يبقى للمدين شيئا من ثمن ملكه فهذه
 حالة وظيفة يجب البحث على الطرق المخلصة منها لاستدعائها
 خسارة كبيرة فان اقل الفرط عندكم اثني عشر في المائة كل عام
 مع انه ضعف الفائدة ببلادنا انا غلا سعر القود فان المعتاد
 عندنا اربعة او خمسة او ستة في المائة وفي بلاد الانكليز من اثنين
 الى ثلاثة واذا غلا السعر يبلغ اربعة على انهم ينجون اذا صارت
 الاسعار هكنا او يعدون هذا الامر من اعظم الحوادث التي يكثر
 فيها القيل والقال وقد سمعت ممن اتق به ان فرط المائة في
 الشهر الواحد قد يبلغ بالقاهرة ثلاثة او اربعة اعني زيادة عما
 يحصل بلوندره اثني عشر مرة بل اكثر ولا شك ان ذلك
 من اعظم الضرر وتسديده في غاية العسر لان الفرط اذا كان
 في كل شهر اربعة بالمائة يكون ثمانية واربعين في السنة فاذا اخذ
 الخناج مائة فانه يكتب عابه سداً بنصفها تقريبا لانهم يعطونه من
 المائة اثنين وخمسين ويقطعون منه الباقي وهو ثمانية واربعون

في نظير الفائدة ويكتبون عليه السند بالمائة بنامها فاذا طلب
 ما عمن فانه يتطع مائة واربعه فقط ويكتب عليه السند بما عمن
 وهكذا اذا طلب الفأ وأكثر فمن اين يسهل السداد على المتترض
 سواء كان تاجراً او زراعاً فالصبارفة انا ببلاد المتسرقى من اكبر
 المصائب ودوامهم على ذلك يوجب سلب نعمة الاهالي بل بعض
 التجار والصبارفة يتعملون طرقتاً قبيحة من عار امر الفرط وهو
 انهم يترقبون الوقت الذي هو تبيل خرج للمحصل فيسعون
 الارراق بشمن بنس فبأني ماخطر ناخذ منهم تقوداً بتدر معين
 من الحصول على حسب انه يهر وقد يسعون قنطار
 القطن مثلا بمئتين فياخذ الطالب مئلا مائة جنبه فيكتبون
 عليه خمسين قنطارا يودها بها بالامر بعد شهر مثلا فاذا جاء
 الوقت طلبوه بها فياخذون ما راج لهم منها ثم يكتبون ما بقي
 عليه في سند جديد تيمية وقت التسديد مع انسافة الفرط في نظير
 صبرهم الى العام التالي وهكذا يورد معد في كل عام بهذه الطريقة
 فيبقى الشخص دائما مكلا في اغلال قيود الدين مطالباً بعس المبلغ
 الاصلى بل باكثر منه وما دفعه من الحصول كأنه ربح المال
 وفي كل عام يفعل الصراف حسب ما يرغب فارت قلبه من حسنه
 الى اخر وتارة يجعله تندية في نعمته والفلاح لا يعارض في ذلك
 لاحتياجه وتراكم المطلوبات عليه للبري والاهالي والعيال وليس
 في امكانه التخلص لعدم اقتداره على التسديد فيبقى كالاجير عنده

بالاكت ليس غير وقد شاهدت ذلك بنفسي مذ كنت ببلاد الشام والترك ولا فرق بين التجاري هناك وعندكم ورأيت من العالم جميعاً نصير من ذلك ربتنون زواله ونظامه فعلى الحكام وولاة الامور النظر في ذلك ومنتهى البحث عن اهل الطرق التي يستقيم بها امر المسائل بين الامر ونجح بها سياسيم في زراعهم وتجاراتهم

وفي الازمان الماضية كان المرابون يفعلون ببلادنا كفعالهم الان ببلادكم لكن الحكومة التفتت لهذا الامر وربطت قيمة معينة للتقدي لا يجعلها احد وكل من تعدى عد مرابيا وعوقب على مقتضى القانون فمهدت نيران اهل الربا الا انهم لم يتقطعوا بالكلية وبقي السفهاء والمسرفون يترددون عليهم لكن لا يقع ذلك ببلادنا الا سرا اما التجارة والسلف العامة فجميعه في البرصة فيقف الانسان على سعر كل يوم بل كل وقت بسبب الاخبار والحوادث التي ترد بالانصراف يربيا فلا يحصل ضرر ولا غير كما يحصل اذا كان الامر منه للصراف في حانوته او بيته بدون معرفة بالحوادث اليومية ولم يظهر البرصة ببارنز الا سنة ١٥٦٣ ميلادية بامر الملك شارل التاسع فكان اول مجلس عند للنظر في حال التجارة في سراية المختانية ولكن في سنة ١٧٢٠ تعين مكان مخصوص منع من خشب موقفاً باحدى زوايا جنينة سراية سواسون التي محبت وكانت معدة لسكن افراد من العائلة الملوكية وصار الناس يعاملون باوراق

الحكومة وكان في تلك الايام لا يفتح هذا المكان للمعاملة الا ثلاث ساعات قبل الزوال وساعتين بعده ما عدا ايام الاسباد والمواسم وترتبت بوسطة عسكرية للمحافظة عليه وضبطه ولما كثرت حركة العالم اليه وتوجيه همهم نحوه واخذت تظهر به مشاجرات استوجب ذلك مداخلة العساكر فيه لفصل ما يحدث به من المشكلات ثم صار يزداد فامرت الحكومة بابطاله ومنع تجميع الناس بالطرق لهذا الشأن ورتبت قصاصاً على من يخالف الامر ويقتم ذلك الطريق المنهي عنه فجعلت جزاء التخريم لجسم فضلاً عن السجن الطويل وعينت ستين حرافاً يتوزعون في وادي البلد بلا حرج عليهم وانما الحرج والجزاء على غيرهم في الاوامر بان من تجرأ غرم تغريمًا عظيمًا ومع هذا فكانت الناس تهرأ على هذا خيبة فعوقب منهم كثيرين

ولما اثر الناس الشكرى للحكومة وطأوا فتح البرية فحمت سنة ١٧٢٤ وعينت لوكدة سمي لوكدة مزران وشيدوها وزينوا واجهتها سنة ١٧١٤ فكانت الصيارفة والسامرة تيهون بدورها الارضي ومدة بونايرت الاول نقلت الى احدى الكناسر ثم نقلت منها الى السرايه الملوكية وعادت الكنيسة الى اصحابها وفي سنة ١١١٢ بنيت هذه السرايه التي رأتها وخصصت لذلك وساوها على منسح من الارض قدره ثلاثة الاف وخمسمائة متر وطولها اثنان وسبعون متراً وعرضها خمسون متراً والدور الارضي به الحواصل ومحال

المشروبات وبها ديوان متسع طوله اثنان وثلاثون متراً وعرضه
ثمانية عشر وفي اخره فسحة عظيمة تسع من التجار الفا بمعاطون
الامور التجارية وبالديوان شباك من حديد والصيارفة تجتمع في
محل بالدور الاول للمداولة في امر التجارة وغيرها وفيه اماكن معدة
لديوان التجار ثم زاد هذا المكان اعتباراً وترى الان فيه زيادة عن
امر الاقتراض المشاركة في عمل سكك الحديد واستخراج المعادن
وقم الورش الجسيمة ونحو ذلك من الامور النافعة التي تسع بها
دائرة الثروة وفي سنة ١٨٥٢ جعل على كل من دخله فرنك
واحد فنقص المترددون عليه واشتكى من ذلك البنكيوات
والصيارفة والتزموا لمدينة باريس مبلغ سبعمائة وخمسين الف فرنك
على ابطال ذلك فلم يقبل منهم

وقد احصي عدد من يدخل البرصة كل يوم فوجد من
ثلاثة الاف الى اربعة الاف وتحصل منه سنة ١٨٥٧ مليون
ومائة الف فرنك

وبالجملة فنوائد هذا للكان كثيرة جداً وبيان التجاري فيه
بجناج لمعرفة امور شتى لكن لا وقت لذلك فانا وصلنا المنزل ولا
بد ان انهب مع حضرتكم بكرة غدٍ واطلعم على احواله

المحاضرة (١٠٤)

بيت الكتب

ثم وقفت العربية فنزلوا ومضى بهم الخواجا الى البيت فصعدوا على درج حتى وصلوا الدور الاعلى فوجدوا فسيحة متسعة وبها صاحبة المنزل قامت وقابلت الشيخ وكان رئيس الجمعية المشرقية هناك فقام له واستقبله ثم قال ان التلامذة يتنون بكل لسان على الشيخ بما حصل لهم من الفائدة وقد تهنت على حضرتهكم مجلساً يعقد كل يوم اثنين حيث تكون الساعة الثانية بعد الظهر فقال الشيخ لا مانع ثم جاء المدعوون واحداً اثر واحد وجماعة غضب جماعة حتى تكاملوا وتعرف الكثير منهم بالشيخ وصاروا يخبونهم ويظهرون السرور به فسر الشيخ بذلك سروراً عظيماً واستأنس بهم كأنه بيت احد اصحابه بمصر فان جميعهم كانوا محدثين به يذاكرون معه في فنون العربية على اختلافها فكان هذا يسأله عن معان لغوية وهذا يسأله عن قواعد نحوية وهذا عن حادثة

نارية وآخر يطلب منه معنى بيت شعر وهو يحيم ويزيد لم في
 الفوائد وينا هم يتفكرون وفي فنون العلم يتنقلون اذ دعوا للطعام
 فقاموا جميعا الى الاكل فتعاطى كل بحسب طاقته وكان في الطعام
 بعض الفواكه فقال بعض الحاضرين انبدا بالفاكهة ام نؤخرها
 فقال الشيخ ان للشيخ الاحموري في ذلك نظماً جيلاً بين فيه
 ما يقدم على الطعام من الفاكهة وما يتاخر وما يكون وسطاً
 حيث قال

قدم على الطعام توتا خوفا

ومشمشاً والتين والبطيخا

وبعد الاجاص كثرى عنب

كذاك تفاح ومثله الرطب

ومعه الخبار والجهميز

قنا ورمان كذاك الجوز

فتلقوا منه تلك الايات بالقبول وكانوا يسرعون لمخفظ

ما يقول وتم بينهم مجلس الأكل في تلك الحادثة ثم عادوا الى

الديوان الذي كانوا به فجلس الشيخ وولده ورئيس الجمعية

بجانبه ومن رغب في المشي تمشي مع صاحبه او صاحبه فجاهم

صاحب البيت وجلس معهم ثم بعد ان دار الحديث بينهم قال

اني منذ كنت بمرسيليا وعدت حضرة الاستاذ ان اريه خزانه كتيبي

واطلعه علي ما احتوت عليه

قال الشيخ ونحن لذلك متظرون وللوفاء بالوعد
 مشوقون فقال تفضلوا بنا ان شئتم ثم قام معه الشيخ والرئيس
 فادخلهم من باب في وسط الديوان الى مكان متناسب الاعداد
 يقرب من التربع وفي جميع جهاته غير الباب دواليب محكمة
 الصناعة من خشب جوز الهند الاسود وعلى ابوابها رسوم من
 النحاس لطيفة مختلفة الاوضاع والاشكال وفي تلك الدواليب
 كتب محبوكة مرصوفة صفوفًا متناسقة كل صنف على حدته
 مع النظافة للمكان بما فيه والروثق الذي يسر الناظر وارتمه مفروشة
 ببساط فحشي اللون وسقفه منقوش بابدع النقش وفيه من عجيب الصور
 ما يدهش الفكر ويسر النظر وفي وسط مكان الكتب طاولة
 من جنس خشب الدواليب وعليها كل ما يلزم من ادوات
 الكتابة مع بعض كتب فاعجب الشيخ ذلك الظام وما نلك
 الكتبخانة من المحسن مع الاحكام فقال يدر وحوود مثل هذه في
 بلاد المشرق وانها لشبه كتبخانات الملوك فقال الخواجا كيف
 لو رأيت خزانة الرئيس فان بها قدر ما في هذه مرتين او اكثر
 واما هذه فان ما بها ليس الا ثلاثة الاف رمات كتاب قال
 الرئيس خزاتي وان كانت اكبر لكن ليس لها من الروثق
 والاثقان ما لهذه واغلبها ورثه عن ابي وجدي فقال صاحب البيت
 بل هي اجمل واجل لان بها من الكتب ما لا يوجد في غيرها
 فقال الشيخ اذا لا بد اني لا تخلو من كتب غريبة فقال نعم ثم

التفت نحو الجهة الشرقية من الكتبخانة وقال جميع ما في هذه
الدواليب كتب مشرقية وهي كما ترى ثلاثة اقسام فهذا للكتب
العربية وهو اكبرها وهذا للفارسية وهذا للتركية وقد رتبت خزائني
هذه حسب الثلاثة الاصلية فالجانب الغربي فيه من الكتب ما
يتعلق باوروبا والجانب الجنوبي فيه ما يتعلق بامريكا وجزائر
المحيط والشمالي فيه ما تيسر جمعه من الكتب التاريخية والفنون
الادبية حسب اقتداري وجعلت كل فرع على حدته ورتبته كما
ترى على حروف الهجاء فاذا اردت اي كتاب اطلعت على الدفتر
فعرفت نمرة وحرفه فقال الشيخ ما الذي فيها من الكتب العربية
فاخذ الدفتر وقرأ له اولاً كتب التفسير فاذا فيما تفسير ابن
عباس وتفسير ابن عبد السلام وتفسير ابن جريج وتفسير ابن
الجوزي وتفسير ابن بركان وتفسير ابن ابي شيبة وتفسير ابي
الضيا وتفسير ابن جرير وتفسير ابن ابي حاتم وتفسير ابن فورك
وتفسير ابن ماجه وتفسير ابن المنذر وتفسير ابي الحسن وتفسير
ابي ذر وتفسير ابي طالب الكرمانى وتفسير ابن مردويه وتفسير
الاخوين وطوالع الانوار وتفسير الارديلي وتفسير الاسفرايني
وتفسير اكل الدين وتفسير البقاعي المسمى بنظم الدرر في تناسب
الآي والسور وتفسير ابن النقيب وتفسير ابن عبدوس وتفسير
الجمامي وتفسير حجة الافاضل وتفسير ابن جماعة

ومن الحديث كتاب فتح الباري شرح البخاري والعيني شرح

أنجاري والندی شرح مسلم الحلیة لابی نعیم والفردوس للدیلمی
والسنن لابن ماجه ومسانید الائمة ومشكاة المصابیح للملا علی قاری
ومشارك الانوار لامصاعانی

• ومن التوحید کتاب ابدکار الافکار واحلی المواهب وببصرة
الادلة والتسدید شرح التمهید وتأسدس التمدیس ورموز الكنوز
وزبدة الکلام وعمدة النظر والفوز بالسعادة ومفتاح الغرر
ومدارک العلوم ومشارك النور وهاية المقرل وهدایة الهادی
ومن الفناوی فی مذهب ابی حنیفة فتاوی رکن الدین
الکرمانی وفتاوی احمد بن عبدالله البلیخی وفتاوی امن الدین محمد
بن المتعالی المصری وفتاوی بدیع الدین وفتاوی حاکم الدین وفتاوی
الحنفیة لسعد الدین الفتاری

ومن الفناوی فی مذهب الشافعی فتاوی ابن ابی عسرون
فقیه الشام وفتاوی الحداد وفتاوی ابن رزین وفتاوی ابن الصلاح
وفتاوی ابن عبد الامام وفتاوی ابن القاص وجملة من فتاوی
المالکیة وكذلك الحنابلة

ثم قرأ فی اسما کتب الائمة منها کتاب قاضی الحق لابی العلاء
المعری وقاعدة البیان واطلة السائر لابی جعفر احمد بن الحسن
المالکی وکتاب الکامل المبرد الخونی کتاب الاساس وکتاب
لسان العرب وناج العروس وشرح القاموس وغير ذلك من کتب
اللغة التي لا توجد مجتمعة فی کتبیة فی احدى بلاد الاسلام ثم قرأه

أسماء غريبة المثال عزيزة المثال في النحو والمعاني والبيان والبديع
 ككتاب سيويه وغيره وككتاب دلائل الإعجاز في البلاغة وإسرار
 البلاغة والمفتاح وغير ذلك

وفي المطبوعات غرائب المؤلفات وكذلك كتب علم الأصول
 وغير ذلك

ومن التاريخ كتاب أخبار الزمان وكتاب أبي الفدا
 وكتاب ابن خلدون وتاريخ ابن الأثير وغيره من كتبه
 الغربية ثم بعد ذلك أخذ الدفتر ووضع مكانه وأتى بمصحف
 مجلد مظرف في داخل كيس من الديباج الأخضر ففتح
 الشيخ فوجده مكتوباً بالخط الكوفي في رق الغزال ثم جلس وصار
 يقرأ ثم قال التلياني يا حضرة الأستاذ الحمد لله الذي جمعني بك
 فاني منذ زمان متوقف في بعض أشياء في القرآن ولكوني لا أعرف
 علوم اللغة العربية على ما هي عليه لم تنزل وقفاني ولم اجتمع بأحد
 في بلادنا من علماء العرب يفهمي حقيقة الحال فقال له الشيخ ما
 وقفاتك فقال ان في القرآن قوله تعالى فيومئذ لا يسئل عن ذنبه
 انس ولا جان وقوله ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون مع ان فيه
 فوربك لنسئلنهم اجمعين عما كانوا يعملون وفيه فلنسئلن الذين
 ارسل اليهم ولنسئلن المرسلين فين الآيتين الاوليين والاخيرتين
 على ما يظهر لي تناقض فقال له الشيخ هذه من وقفات العلماء ولكن
 شرط التناقض ان يتحد الزمان والمكان والغرض فقال ايها الشيخ

ليس ذلك كله يوم القيامة قال بلي ولكن يوم القيامة كما اخبر الله
 مقداره خمسون الف سنة وعرف بالاخبار انه يكون مشتملاً على
 مقامات مختلفة فلا مانع من ان يكون السؤال في وقت من
 اوقات يوم القيامة ولا يكون في وقت اخر وفي مقام من مقاماته
 ولا يكون في مقام اخر وحيث لا يعارض في الأدبات ولا تناقض
 فاطرق رأسه برهة ثم اقبل على الشيخ وقال له والله انك عالم باسرار
 لغتكم قد ازلت عني كثيراً من الوقفات فاني كنت اري بين قوله
 تعالى لا تخصصوا لدي وقد قدمت اليكم بالوعيد واين قوله
 تعالى ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تخصصون تناقضاً وبين قوله
 تعالى يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وبين قوله هذا يوم
 لا ينطقون ولا يوءذن لهم فيعتذرون تناقضاً وبين قوله تعالى
 فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتسألون وبين قوله واقبل بعضهم
 على بعض يتسألون كذلك وبذلك الجواب ازيلت تلك
 الوقفات والله المنة والشكر الجليل حيث جمعنا بحضرتكم تقبيل
 من انواركم ولقد كنت اول امري متحاشياً عن السؤال مهابة
 فالان لما زال عني من نياهب الشك بسبب سوال واحد ارجو
 من جنابكم الاذن لي في السؤال فقال التبيخ نحن لا بطيب لنا
 عيش الا بالمذاكرة في العلوم فان حياة ارواحنا فسل ما
 شئت فذلك غاية مرغوبي فقال الحمد لله اني حرت من الان
 فصاعداً جريماً على ان اسأل حضرتكم لانكم ابصر الناس بملك

العلوم فقال هذا من كمالك وحسن ظنك بي ابي بالنسبة لعلماء
تلك الصناعة لا أعد فقال كيف ذلك وانت لها كالأصل منه
يستمد ثم قال ايها الشيخ ان القرآن معجز بنظمه وان نظمه غير
مقدور للبشر وان الجن والانس ان اجتمعوا على ان يأتوا بمثله لا
يمكن لقوله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا
بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً وقد
ورد ان اهل زمان النبي محمد صلى الله عليه وسلم كانوا على الغاية
في الفصاحة والبلاغة فعجزوا عن الاتيان بمثله ثم تحداهم بعشر
سور فعجزوا ثم تحداهم بسورة واحدة على الاطلاق فلم يقدرُوا ايضاً
وفي السور (انا اعطيناك الكوثر) قصيرة جداً فلوانهم قدرُوا على
مقدارها وهو ثلاث آيات لكانوا قد اتوا بالتمحدي به فكيف ذلك
مع ان نظم القرآن يشهد ان نظم ثلاث آيات بل ثلاثين آية بل
الأكثر لا يعوز الفصيح فضلاً عن ان يسوز الأفصح ولو كان وحده
فضلاً عن ان يظاھرہ الانس والجن

فقال الشيخ ومن اين تؤخذ هذه الشهادة من القرآن
قال ان فيه حكاية موسى (واخي هارون هو افصح مني لساناً)
ثم فيه عن موسى قال رب اشرح لي صدري ويسر لي امري
الى قوله انك كنت بنا بصيراً وهذه احدى عشر آية عندكم فانا
قدر فصيح واحد وهو موسى على احدى عشر آية في موضع واحد
أفلاً يكون الافصح اقدر وان كان واحداً على اكثر فكيف انا

ظاهره في ذلك الانس والجن

فقال الشيخ اما وقتناك فرقتك من رسنت في العالم قدمه ولكن هل
 اذا عبرت على لسان صاحبك بكلام على است مخصوص وذا سمعته
 يقول كنت اريد ان اقول هكذا وما كان ، سر لي ينزل ذلك منزلة
 القول قال لا فقال الشيخ ادا لا قال ان ورد في كتابي ثم امتدى
 عشر آية لانها حكاية من معنى كان يدور في فؤادي ، ان الله
 عنه كما في الآيات فقال لله درك فد راء ، ما ذكرته ان انه
 لا يزول ولكن عندي وفيه اكبر من هذه ان كثر التبع فيها
 يكون على يد حضرتكم فقال الشيخ يسر الله ، ان الله
 الشيخ اني كون القرآن من عند الله نك قال لا قال كلف وهو
 يادي بانه من عند نبي الله قال الشيخ كيف ذاب ربه وحته
 فقال لا تغير ان السؤال اد ، ر كثر الآ ، نك قال
 الشيخ ثم ينادي ذلك فقال اولس ، ان راء كان من عند
 غير الله لوجدوا فيه اخلافا سرا

قال التبع ثم وما يتبع من ذلك قال ان منه من اذات
 اكثر من اني عشر الف كما سبح ا ، ان آت ، بها اليك
 وهل عدد مثل ذلك لا تكسر

قال الشيخ مهلا قد هال ، اول ، مالك ، اسمع يا قرئ محمد
 القرآن مناديا بانه ليس من عند نبي الله وذلك انه ليس المراد
 بالاختلاف اختلاف الروايات كما فهمت بل المراد ان اوش في

الاخبار والتفاوت في مراتب البلاغة فانك اذا اشتريت ما ينسب
 الى كل واحد من البلغاء اشعاراً كانت او خطباً او رسائل لم
 نكد تجد قصيدة من المطالع الى المنقطع او خطبة او رسالة على
 درجة واحدة في علمه الشان فضلاً عن وجود جميع المنسوب الى
 صاحبها على تلك الدرجة بل لا بد ان تجد اختلافات كثيرة في
 كلام المتكلم الواحد فترى البعض فوق سماك السماء علواً والبعض
 تحت سماك الارض نزولاً وما ذلك بخلاف على ذي بصيرة أليس
 الامر كذلك قال بلي قال اتجد القرآن على اختلاف رواياته مختلفاً
 في البلاغة قال لا قال الشيخ الكفيك ذلك في الجواب عن
 سؤالك فقال يكفر ثم كفى ولك الشكر والمنة ثم انى عليه
 وازداد قدره لديه وقال ايها الشيخ بى في ذهني حاجة اريد ان لا
 اخفيها عنك قال الشيخ وما هي وتبسم ضاحكاً فقال ان القرآن
 لا شك كلام الله وقد علمه لمحمد عليه الصلاة والسلام بلا شك
 وفيه وما علمناه الشعر وما ينبئ له فقال الشيخ نعم قال وهذا
 يستدعي ان لا يكون فيه شعر مع ان فيه من جميع بحور التعريفان
 فيه من بحر الطويل من صحيحه فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر
 وزنه فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن ومن مخزومه منها خلقناكم
 وفيها نعيدكم وزنه فحان مفاعيلن فحولن مفاعيلن ومن بحر المديد
 واصنع الفلك باعيننا ووحينا ومن بحر الوافر وينجزهم وينصركم عليهم
 (و) يشف صدور قوم مؤمنين ومن بحر الكامل والله يهدي من

يشاء الى صراط مستقيم ومن بحر الهزج من مخرومه تالله لقد اترك
الله علينا ونظيره القوه على وجه ابي يأت بصيرا ومن بحر الرجز
ودانية عليهم ظلالها وذللت فطوفها تذيلا ومن بحر الرمل وجفان
كالمجواب وقدور راسيات ونظيره ووضعنا عنك وزرك الذي
اتقض ظهرك ومن بحر السريع قال فما خطبك ياسامري ونظيره
تغذف بالحق على الباطل ومنه او كالذي مر على قريسة
ومن بحر المنسرح انا خلقنا الانسان من نطفة ومن بحر الخفيف
ارأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ومنه لا
يكادون يقهون حديثا وكذا قال يا قوم هؤلاء بنائي ومن بحر
المضارع المخروم يوم التناد يوم تولون مدبرين ومن بحر المتضرب
في قلوبهم مرض ومن بحر المجنث مطوعين من المؤمنين في الصدقات
ومن بحر المتقارب واملى لم ان كيدي متين

فقال الشيخ سبجان الله ألم تعلم ان الشعر اشترطوا فيه ان
يكون مقصودا فقالوا هو الكلام الموزون قصداً فقال نعم قال
الشيخ ما اوردت من هذه الايات ونحوها ليس مقصودا موازته
لتفاعيل الشعر ولم تقصد فيه اسباب ولا اوتاد ولا فاصلة صغرى
ولا كبرى فليس شعرا اصلا وعلى تسليم ان ذلك من الشعر ليس
يصح بحكم التغليب ان لا تلتفت الى ما اوردت لكونه قليلا نادرا
والنادر لا حكم له فيحكم على مجموع القراء ان انه ليس شعر فيقال
بناء على مقتضى البلاغة وما علمناه الشعر

قال ايها الشيخ لقد اجدت فيما اجبت وقد شفيت مني الغليل
وازلت شبيها ما كنت اجد لها من مزيل فانت الرجل علما وادبا
وعقلا وكالا ليتني لا افارقك ابدا ثم خرجا من الكتيبة وصارا
بتحدثان في امور شتى حتى اذف الليل فاستاذن الشيخ للقيام فصحبه
الرئيس وصاحب البيت وبعض الحاضرين تعظيما له حتى ركب
عربته وسار ومعه ولده ويعقوب الى منزلهم

المقامة (١٠٥)

قصة

وفي صبيحة تلك الليلة دخل يعقوب على الشيخ فسلم عليه
وعلى ولده ثم قال رايت باوراق المحادثات اس ان احد الاشقياء
الشائع ذكرهم بنواحي بارنز قد ضبط منذ ايام وفي هذا اليوم
يكون بت الحكم عليه في مجلس الحكم وارغب الحضور هناك لانظر

بماذا بيت عليه فهل تاذن لحضرة نبيلك في التوجه معي فقال الشيخ
 لا بأس إنما لا بد ان تكونا ههنا قبل الزوال فان حضر الخوارجا
 توجهنا معه حسب ما يحصل عليه الاتفاق وان لم يحضر ذهبنا
 نحو العين التي كنا بها امس فقد انشرح صدري من رؤيتها فقال
 يعقوب سمعا وطاعة واخذ بيد ابن الشيخ وسارا راجعا من يتحدثان
 الى ان وصلا الى المحكمة فوجدنا اناسا كثيرين هناك وبيبا اطرافه
 من العسكر يمنعون البعوض من الدخول فقدم بنوب للنسائط
 وعرفه انها غريبات ويريدان الدخيل فابى ان يدخلها فحسلا
 يتحيلان عليه بانواع الحيلة فلم يجد ذلك شيئا وبينهما كذلك اذا
 بالخوارجا التلياني الذي كانا عنده بالامس قد اقبل فعرفنا وسلم
 عليها وتكلم مع ابن الشيخ بالعريسة وكلم الضابط كلما عرفه
 الحقيقة تم ادخلها فرحدا خاتما كثيرا من منة ابن بجاجز من حديد
 بداخله ميل الكم الذي هو مدر المكان ونهت مع الاعضاء كل
 على حسب درجته والرئيس هالك على كسى مرتفع وامام الجميع
 طاولة فلم يلبس الا فللا وهم اليماس وامر الرئيس باحضار الجاني
 فاني واجلس على كرسي من خمد وصاروا يستلونه في الساعة
 ثم قام الرئيس وتلا خلاصة طوواله ثم هاجت الناس فرحدا بار
 العسكر يخرجون الناس فمن الازدحام وكثرة الناس وعدم معرفة
 ابن الشيخ بلذتهم كما ينبغي لم يعرف الامر على ما هو عليه انا عرف
 انه قد حكم على الجاني بالقتل في يوم معين

ولما خرجا رغب ابن الشيخ ان يفهم قصة هذا المحكوم عليه فلما بدرا عن الازدحام سال يعقوب عن تفصل القصة فقال يعقوب عرج بنا على احدى القهاوي لنستفيدها من اوراق الحوادث لاني لم اتحتها باطرافها فذهبنا الى هوة قريبة هناك وجلسا مخزنة صابرة وطلب كل منهما ما يشتهي وصار يعقوب يقرأ اوراق الحوادث الى ان قضى ما اراد ثم رمى الورق وقال ان اصل هذا السقي من قرية قريه من مدنة اورليان تركه والده في المهدي فربنه له ولما بلغ سنه عشرين عاما كان يساعده في المعيشة ولكن كان شغيا من ابتداء طلبته حتى عرف بذلك بين اقرانه وهو في المكتب وكانت البنات تكثره لتبرته على ما لا يليق مع انه قبيح المنظر وسقيم البسم احد شفيعه عاطل مكان اذا مشى بضحك منه من يراه ولا يألوه احد من النساء لدمايته واسخافة سقاه كان يجتهد في نيل ما لم يتمكن منه من النساء ولو بالتهر ومع كون شهوانه كشهوات الحيوانات العجم تعشق بتا باردة في الجبال وهي لا تحبه ولا تميل اليه بل كان حبا وميلها لغيره وانما تظهر له المحبة وتلاعبه لسلب امواله وهو منكب عليها بكلية وقد وقع في قلبه ان كثرة الهدايا تعطف قلبها عليه لكونها قبيحة فصار ينفق عليها كل اكتساب والدته ومع ذلك فلم يبالغ اربه مع ارباد فقره سيما وهو يحب الراحة وليس له طرت الى الاكتساب ولا يرضى بان يشتغل باشغال الفلاحين فانه كان من شباوتة وجمود طبعه

يتصور عظم شأنه ورفعة قدره فيجمله ذلك على الترفع عن الخدمة
مع ما هو عليه من الضعف والعجز فحصل له حيرة شديدة ولم يجد
سبيلاً به يتحصن على مرغوبه ثم استحسن طريق الصيد فسلك
هذا المسلك مع ان القوائين كانت مانعة من الاصطياد من ارض
الغير وكان يقرب بلده غابة فصار يذهب اليها ويصطاد منها وما
يحصل عليه ياتي به الى محبوبته فظهرت الميل اليه واثرته على
سائر اجبتها فاغناظوا وضجروا وفيهم رجل من خفراء الغيطان
فاخذ يبحث عن احوال هذين المتحابين حتى وقف على الحقيقة وحيث
انه يعلم القوائين المانعة للصيد من ارض الغير وان من تجراء على
ذلك جزاؤه الحبس ترقبه حتى قبض عليه فاخذه واروقه في يد
الحكومة فصرف جميع ما عنده حتى تخلص وترك الصيد فاتقطعت
العلائق بينه وبين البنت لعدم ما يواصلها به واستبدلته بخصمه
وجاهرت بذلك فاضرمت نار العداوة بقلبه فاراد الانتقام من
الخفير فلم يقدر لشدة فقره وضيق الحال عليه فترك البلدة واقام
ببلدة اخرى قريبة منها وجعل يصطاد خفية وبينما هو في صيده
مرة غافلاً عن عدوه اذ احيط به وقبض عليه باغراء غريمه الاول
فاخذ وحكم عليه بالسجن عاماً كاملاً

فكان في تلك المدة تموفيه سورة الغضب وتقوى ارادة
الانتقام حتى مضى الحول وعاد الى منبته فاول شيء اشتغل به
البحث عن محبوبته ولكن لقي منظر ورثاة حاله كانت اذا رآته

تفر منه ولا تئيل اليه فضايق من ذلك ذرعاً واشتد به حال
 الفقر فأتاد وذل وطلب الخدمة لتحصيل المعيشة ومع ذلك لم يقبله
 احد من عظماء بلده ولا ارباب الفلاحة لضعفه عن الخدمة فاشتد
 كربه واستحال حاله وخابت اماله

ثم اختر رعي الاغنام فابت اربابها من تمكينه منها لعلمهم
 بسوابقه وسوء سيرته فلما لم يجد للمعاش سبيلاً عاد لما عوقب
 عليه مرتين واتخذ حرفة ثالث مرة لكنه صحا من سكرته واستيقظ
 من غفلته فتدجج بالسلاح في الغدو والروح فكان لا يغفل عن
 عدوه طرفه عين ولا ينسى القبض عليه مرتين وصار بالمرصاد لعدوه
 في جميع حالاته ملاحظاً لجميع حركاته وسكناته ولكن لسوء تدبيره
 وحقق عدوه وقع في شرك الحكومة ثالث مرة بدلالة عدوه عليه
 فاخذ وسجن وحكم عليه هذه المرة بالسجن والاشغال الشاقة ثلاث
 سنين بعد وسمه بالنار على ظهره كالحبوان البيهي فامضي تلك
 المدة في عذاب اليم كانه في نار الحجيم وبعد مضي المدة خرج من
 القلعة التي كان محبوساً بها متغيرة جميع احواله هكذا اخبر القسيس
 الذي اعترف له بذنبه

فقال ابن الشيخ ثم ماذا حصل قال يعقوب اخبر القسيس
 عنه ايضاً انه قال اني قبل دخول سجن هذه القلعة كنت احسن
 حالاً من حالتي بعد ذلك فانه ما زادني السجن الا شقاء وحباً
 للغدر والفساد وذلك اني قبل سجنني كنت طائشاً صغير العقل

حتى جرتني ذلك الى ما وقعت فيه واني وان كنت قبل السجن
اميل الى الفساد لكن كان يمنعني عنه خشية العار او خوف العقاب
فلما ادخلوني السجن بزعمهم انه يريني ويحسن احوالي وجدت به
من الاشقياء المحكوم عليهم نحو عشرين شقياً اثنان قاتلان والباقيون
ما بين لصوص وقطاع طريق فكنت اذا ذكرت اسم الله يهزأون
بي ويقولون ما لا يسعني التفوه به من سب المسيح والتفاخر بالقتل
وسلب الاموال وهتك الاعراض ونحو ذلك من حكايات تجهها
الاسماع وتنفر من سماعها الطباع فاذا اردت اجتنابهم لم اجد غيرهم
فاضطررت الى العود الى مجالستهم ومجانستهم فلما طالت عشتري
بهم لم اجد بداً من موافقتهم حتى صرت واحداً منهم وضاع ما
عندي من حسن العقيدة وتعدت الامور الذميمة وألفت الكبائر
حتى فقت على اقراني في الشقاوة والفساد ولقد صدق وبالحق نطق
من قال مشيراً الى هذه الحال

عن المرء لا تسئل وسل عن قرينه

فكل قرين بالمقارن يقتدي

ولطول عشتري لم واضطراري للامتزاج بهم لم اعلم بقوله

في البيت الآخر

فان كان ذا شر فجانبه سرعة

وان كان ذا خير فقارنه تهندي

بل تهت في اودية الضلال وغرفت في رديء الخصال وكنت

ارى في نفسي العداوة لجمع بني ادم لما قاسيت من الشدائد وسوء
 الحال وهم في امن وثروة ورخاء فكنت اذا ابصرت الشمس
 طالعة من وراء الجبل الذي عليه القلعة او سمعت صفير ريح
 او صوت عصفور هاجت اشجاني وثمت احزاني وارقدت بفؤادي
 نار ارادة الانتقام فكانت كراهتي لابناء جنسي دائماً في ازدياد فلما
 استوفيت المكتوب وخرجت من السجن لم يكن لي هم الا الرجوع
 الى بلدي لا حياً فيه ولا للتعيش به بل لتصد الانتقام من الذين
 كانوا سبياً في شقاءي وطول عنائهم فصرت اهرول واعو
 عوا شديداً وفي قلبي شيء يجهلي على الجري كالسائق العنيف
 واذا رأيت من بعد ناقوس الكنيسة هاج ضميري وثار فكرة ما
 مر علي من الشدائد وكبرت في نفسي حرائم اعداي فتفتحت علي
 جراحي وكبرت شهوة الانتقام عندي وصرت اعدد اعداي واصور
 في نفسي ما يحصل لهم من الرعب والخوف عند رؤيتهم اياي على
 حين غفلة فتهدون علي الام وهكذا حتى وصلت الى البلدة وما
 كنت انظر اليها بالعين التي كنت انظرها بها مرتين قبل وكان
 دخولي في ضحوة النهار فوجدت اناساً ذاهبين الى الكنيسة يعرفونني
 واعرفهم فنظروا الي وتجاهلوني فاعرضت عنهم وذهبت الى السوق
 فرأيت به طفلاً جميلاً الصورة وكنت قديماً احب الاطفال فاعطيته
 صليداً كان معي فاخذه مني وجعل ينظر الي ثم رمى به وفر
 كالخائف فعميت من ذلك ثم قلت في نفسي لعله انما فرمني لما

رأى من تشوه هيئتي فان لي مدة ما تعهدت لحيتي فشعنتها ضرورة
 يزيد في شناعة صورتي ثم خطر بيالي احتمال اخر لفراره مني وهو
 انه ربما كان كغيره يعرف امري وما انا عليه من الطرد والابعاد
 ففرمني وعند ذلك بكيت بكاء لم يسبق لي مثله واعتزاني من الحزن
 اضعاف ما عانته في السجن وقلت قد فر هذا الطفل مني كما يفر
 من الحيوان المفترس فهل عندي شبه بوحوش الجبال ام هل
 رأى في وجهي علامة الفزع او انه ضاع جميع شبي بالادميين
 من شدة عداوتي لهم ثم انزويت في ركن تجاه باب الكنيسة من غير
 قصد مني ولا شعور ثم قمت من هذا المكان كاسف البال لما
 رأيت ان جميع معارفي واصحابي مروا بي ورأوني ولم يسلموا عليّ
 كأنهم لا يعرفوني ثم عمدت الى قهوة فرأيت في طريقي امرأة عليها
 اثر النل والمسكنة فتأملتها فانا هي التي كانت سبباً في جميع ما
 حل بي وقد صارت في حالة يرثى لها فعرفتني ودنت مني ونادتني
 باسمي وقالت الحمد لله الذي اعادك وعلى وجهها كآبة تشهد على
 اعمالها السابقة واللاحقة ورأيت ان لها اختلاطاً بجماعة من العسكر
 فعرفت طريق تعيشها فصرفت وجهي عنها وحصل لي نوع من
 الراحة لاني رأيت من هوادني درجة مني

ثم سألت عن والدتي فاخبرت انها قد ماتت وبيعت تركتها
 في ديون كانت عليها فعرفت اني صرت مجرداً من المال والاهل
 وقد كنت سابقاً اتوقى ملامة الناس واخشى على نفسي العار

فاصبحت كاني مزقت جلاب الحياء عن وجهي وصرت انلذذ
باقامني بينهم مع نفورهم مني وتباعدهم عني لاني كنت ارى في ذلك
عذابا بالاعطيم على اني ما كنت املك شيئا اخشى عليه او احرص
على حفظه وكان دابي العدول عن كسب الطيبات لانها كانت
مطبوعة في انهاتهم وكان المطبوع في نهني حب مخالفتهم فيما
يجبونه وكنت اعرف من نفسي اني لو رحلت عن بلدهم الى بلد
اخر فلربما كنت اتحلى بفعل الجبيل والنخال الحميدة ولكن تشفيا
منهم ابيت الا الاقامة بينهم لان تذكاري لما قاسيت من الاهوال
والالام انهلني عن الصواب وعن كل ما يقال له شرف او فضل
وتماذيت على ما انا فيه من الرذائل ومع هذا فكنت مضطربا في
احوالي غير قاصد امرا معينا افعله انما كنت اتصور ان القوانين
وضعت للجري على سننها والعمل بمقتضاها فخالفتها عمدا لما نابني
بسببها من النوازل والمصائب الفاتمة الحمد وان كانت مخالفتي
لها اولاً جهلاً وطيشاً ثم رجعت الى الصيد مع اصراري في الباطن
على اضرار السوء فصرت اصطاد كلما وقع بصري عليه وكانت هذه
الصنعة عندي شهوة لذينة وكل حين كان يزداد تطبعي عليها
خصوصاً ولم ار غيرها اتقوت منه وازداد عندي حب مخالفة
القوانين السياسية وذهب عني الخوف الذي كان يلحقني قبل ذلك
وصرت مزمنة على تسكين الرصاص في قلب من يقرب مني وكنت
اصطاد لتصد الاتلاف ولا ابيع منه الا القليل على قدر شراء

القوت والرصاص والبارود واقمت بالغابات على اسواء الاحوال
 عدة اشهر حتى تتوسي امري وصاروا لا ينسبون اليّ شيئاً مما يحصل
 من الاتلافات ولا يدرون اني في البرية مصر على الغدر وفي
 ذات يوم رأيت حيواناً فعدوت خلفه اريد صيده فلم ادركه الا
 بعد ساعتين فحررت البندقية عليه لارميه فلاحت مني التفاتة
 فرأيت رجلاً قد صوب بندقته الى هذا الحيوان فامعنت النظر
 فيه فاذا هو الخفيّر الذي كان السبب في جميع ما لحقني من الهوان
 فهاج جسدي واشتعلت نيران قلبي وقلت هذا اكبر اعداي الذي
 انا هائم في الغابات لاجله هذا الغرض الذي انا قاصده هذا وقت
 انتهاز الفرصة في حرمانه من الحياة ثكلتني امي ان تركته يعيش برهة
 من الزمن وارعدت فرائصي وتضاربت اسناني واضطرب نفسي
 حتى اني لم اشعر بتحول البندقية فضرته فنفذت الرصاصة في
 احشائه فانكب على وجهه يتسحط في دمه كأنه من هدايا مكة
 ففي الحال خمدت نيران قلبي وبرد غليلي وشفي عليلي وقلت اني
 قد اخذت بثاري وكان لسان حالي يقول

ولست ابالي اذ أرحت حشاشتي

بقتل عدوي ان اعذب بالنار

ولست اري شيئاً يلذ حديثه

وافرح منه مثل اخذي بالنار

وقلت ما اوقع هذا الغي في شبكة صيدي الا نسيانه لذنوبه

وعدم فرضه وجودي وكأنه لم يقف على قول القائل

احذر عداوة من ينام وجنه

باكٍ يقاب طرفه نحو العما

يرمي سهامًا ما لها غرض سوى

الاحشاء منك فرما ولعلما

وبينا انا اتشفى فيه اذ تغيرت حالتي وداخلني الخوف وتنبهت

لنفسي وصرت كإمّ استيقظ من رقدته او نشوان صحا من سكرته

وحق في المثل راحت السكره وجاءت الفكره ولما سقط في يدي

رايت اني قد هلكت فحيث رجعت على نفسي باللوم والتفريع

ودهشت ما حصل مني ووقعت البندقة من يدي ورايت قواي

قد بطلت ونفسي قد همدت وقلت الان صرت قاتل نفس وقد

يئست من الحياه بذلك الفعل الشنيع الذي استحق عليه القتل

وصرت وانا في الغابه كاني في مقبرة ممتلئه بالاموات

لكثرة فكري في الموت وكان السكون حولي من كل جهة وكأني

اسمع نفسي تقول لي يا قاتل ثم دنوت منه فوجدته في اخر نفس

فيهت وجعلت انظر اليه مدة ثم رايتني اضحك بتهقه وانكلم مع

الرمة واقول الان لا تكلم ثم داخلني الشاعل ثانيا وقلت لنفسي

ان ما قاسيته من الهموم والمشاق من مدة سنتين هو عقاب ما

جنيته فيما مضى حتى رايت من الباساء والضراء ما كنت اظن انه

لا يوجد مثله لمخلوق نبيري والان قد جنيت جناية كبيرة تستحق

الموت في الدنيا وعقاب الله في الآخرة وصغرت عندي حالي
الاولى بالنسبة لما صرت فيه لاني صرت من نخيل القتل والصلب
والمشقة وحبالها وتصورت لي صورة شتى امرأة كانت قتلت ولدها
وكنت نظرت اليها مشنوقة وانا صغير في المكتب ورايت ان حياتي
من يومئذ صارت من حق القصاص وصرت اتنى حياة المقتول
لا تخلص من هذه الورطة ثم انتقلت فكري الى تعداد سيئاته مع
طول حياته لاهون على نفسي وجعلت اربط افعاله السيئة بعضها
ببعض فلم يساعدني تصوري وغلبت علي المخاوف وغاب عني ما
كان قبل ذلك بربع ساعة مشعلاً نار الغضب في احشاي حتى
اوقعتني في حد القتل وبينما انا في هذه الافكار اذ سمعت عن بعد
صوت فرقة وفرقة عربية تسير خارج الغابة وكان محل القتل
قريباً من الطريق بنحو ربع ساعة فانتبهت من دهشتي من شدة
الخوف فاخذت في اسباب الاختفاء ودخلت وسط الغابة هائماً
على وحيي لا ادري اين اتوجه ثم خطر ببالي ان مع القتل
ساعة فعزمت على العود اليه لآخذها فاستعين بثنائها ولم يكن
معي شيء من القود اصلاً فلم اجد لي جسارة على القرب منه
وتجاذبني خوف عقاب الله تعالى واغواء الشيطان فصرت اقدم
رجلاً واؤخر اخرى واتردد بين الاقدام والاحجام ثم غلب جانب
الاقدام فوصلت اليه وانا في وجل شديد وخوف عظيم فاخذت
الساعة ووجدت معه ايضاً قوداً تقرب من ريال فاخذتها ثم

اردت ان اصر ذلك في جبي فلم استطع وكان شيئاً ممسك
 بيدي ثم ترجع عندي ان اترك الساعة ولا اخذ الا الدراهم فرميتها
 ولم يكن سبب ذلك خوف تعظيم كبير القتل بكبيرة السرقة بل
 الحامل لي على رميها الالفنة والتعاضم عن اخذها لانه قد خطر
 بياي انهم لو قبضوا عليّ وهي معي لقالوا ما قتله الا لاخذ ما
 معه فيسبونني الى قله المروءة مع اني ما قتلتها الا تشفياً فيه ومكافاة
 له على فعله معي ثم مضيت في الغابة وكنت اعرف انها تمتد في
 الشمال نحو اربعة فراسخ فتنتهي الى حدود البلاد المجاورة لها
 فاخذت اهرول واعدو عدواً شديداً الى قريب الظهر ومن
 كثرة الهجري ضاع عني بعض افكاري ثم صرت كلما قلت في
 الهجري قوتي كثرت فكري وزاد اضطرابي حتي كنت اري
 خيالات مهولة محيطه بي من كل جهة كل واحد منها اكبر
 هولاً من الاخر وكان تلك الخيالات تضربني باسلحة حداد
 توالم صميم قلبي فكنت في عذاب اليم وخوف مستمر حتي كنت
 اهم بقتل نفسي لاستريح من القبض عليّ والمحكم بقتلي وكلما همت
 بضرب نفسي اجد عندي جيناً عن ذلك وتعز عليّ مفارقة الحياة
 مع اتني في رعب شديد من البقاء وبقيت حيران لا يهنا لي حياة
 ولا موت وحل بي خوف عذاب الله في الآخرة واستمرت بي هذه
 الحالة الى الساعة السادسة من اثناء هروبي ومرّ عليّ فكري جميع
 انواع العذاب الدنيوي والآخروي ثم اني اقللت العدو ومشيت

الهويناء وادخلت البرنيطة الى اخرها في رأسى حتى نزلت على
 عيني وستررت وجهي لاني كنت اريد ان اخفي نفسي عن كل شيء
 حتى عن الاشياء غير الناطقة وسلكت طريقاً ضيقاً لا ادري اين
 يوصلني فاوصلني الى مضيق مظلم في داخل الغابه فازددت خوفاً
 على خوف وبينا انا اسير انا بصرت مرتفع يقول قف مكانك
 يا هذا فرفعت البرنيطة قليلاً فرأيت رجلاً في هيئة هائلة قد
 دهني ومعه نبوت كانه جزع نمله وهو مصفر اللون مع سواد
 خفيف وفي عينيه باض شديد مع حوّل وعلى وسطه جبل طويل
 قد اداره مرتين فوق سلطة خضراء وفي حزامه سكينه عريضة
 وطنجية ذات طلقتين وعند قوله قف هنا نزلت على كفي يد ثقيلة
 كالطرقة فحفت اولاً منه ولما تحققت انه من قطاع الطريق ذهب
 خوفاً منه لاني حينئذٍ كنت لا اخاف الا من يخاف الله دون
 مرتكب المعاصي ثم قال لي من تكون انت فقلت متلك ان
 كنت كما اظن فقال ليست الطريق من هنا فما انى بك
 هنا فقلت له وانت ما انى بك هنا ولاي شيء تسألني
 وانت مثلي فلما رأى مني عدم الخوف منه تأمل فيّ وفيما
 انا عليه وقال انت تتكلم كالشجاذين ثم بهت كانه تحير في
 امري فقلت ربما كنت كذلك بالامس فضحك من ذلك وقال
 ستعلم لنا حقيقتك وبظهر لنا مقصدك فقلت اتركني اسير في طريقي
 فقال نسير سوية صاحبي فلا تعجل فسكت قليلاً ثم نطقت

بكلام لم اشعر به فقلت اتركني فالحياة قصيرة وعذاب الله طويل
فصعد نظري في وقال يظهر انك قريب من الشفق وان لم يكن
كذلك فلا علم لي بصنعتي فقلت ان لم يكن ذلك حاصلاً
فسيحصل اتركني اسير لحالي فوضع يده في يدي واخرج زجاجة من
شنته معلقة في ابطه فيها شراب فعزم علي ان اشرب معه وكنت
في ذلك اليوم المشووم لم اتناول شيئاً من الطعام ولا الشراب من
. . . والتعب فشريت معه فحصل لي انتعاش وخفت عني
متاعبي وهمومي وتعلقت بجبل الحياة وأنساني الشراب شقاوتي وتخيلت
السعادة حيث اجتمعت بمن هو مثلي فاني كنت مجرداً عن الانيس
والاليف وزال عني اضطراب القلب والمتاعب ثم ان الرجل
اضطجع على الحشيش فاضطجعت بجانبه وقلت له ان شرابك اراحني
فيلزمتنا المواخاة والصحبة وكان معه شبق فملاه دخاناً وقدح الزند
وولع منه الدخان وتكيف ثم قلت له هل مضى عليك زمان طويل
في الكار فنظر الي ثم قال اي كار تريد فوضعت يدي على سكبته
وقلت له هل قنلت كثيراً وسفكت الدما فعبس في وجهي وقال
من انت يا هذا ووضع السكينة على الارض وجعل ينظر الي فقلت
اني مثلك قاتل لكني مبتدئ في الكار فسكت قليلاً وقال انت
لست من هذه البلاد فقلت اني من بلد قريب بينك وبينه ثلاثة
فراخ وذكرت له اسمي وقلت لعله قد وصلك بعض اخباري فعند
انك نهض قائماً وعانقني وقال طال ما تمنيت لقاءك وصحبتك

وقد ساقك المقادير فلا فرقة بيننا الا بهادم اللذات الذي يستوي
عنده الجليل والخبير

ثم قال هل من العدل ان يعذبوك هذا العذاب ويسجنوك
ويحرموك من اصحابك واحبابك وبلدك بختزيرين صلتها من
الغيطان لا قيمة لها ولا كلفة في مووتها وهل من الانصاف ان
تهان تلك الاهانة ويفعل بك ما فعل حتى آل بك الامر الى
تاسي الملة واجتنى على ذلك ضياع حقوقك المالية والمالية جميعاً وصرت
بجال يرثي لها بحيث لا يقر لك قرار ولا تستطيع الاقامة في موطن
فهل ليس للانسان قيمة تساوي قيمة الارنب

ثم سكت ملياً وقال وماذا فعلت حين اقاموا عليك النكير
بقتل الخنازير فقلت لم اجد لي حيلة الا قول القائل
اذا لم يكن الا الالسة مركباً

فلا يسع المضطر الا ركوبها

وكنت كثيراً ما اتمثل بقول القائل

كفي بك داء ان ترى الموت شافياً

وحسب المنايا ان يكن امانياً

وكان الشراب قد اخذ مني اكثر مما اخذ منه فقصصت عليه

القصة بتامها ثم سألته عن حاله فلم يرد عليّ جواباً واخذ بيدي

وقال لي نجوت، وبلغت ما رجوت فسر بنا الى اخواننا لتعرفهم

ويعرفوك فسرت معه نحو نصف فرسخ فدخلنا ارضاً كثيرة الشجر

فصفر الرجل بفمه فجأوبه آخر من بطن الارض واذا بطابق قد
انفتح وبه سلم ينزل عليه الى جوف الارض فنزل فيه وقال حتى
اربط عك الكلب ونادى الكلب فجاءه فربطه بنم الطابق ثم غب
عن بصري فداخلي خوف شديد وخطر بيالي ان اخذ السلم
وافر به ثم نظرت الى فم الطابق فرأيت دخاناً يتصاعد كأنه طاقة
من طاقات جهنم وان احد الزبانية جاءني في صفة هذا الرجل
ليريني ما ائزجر به عن الافعال القبيحة فسمعت قائلاً يقول ان
كان قاتلاً او بناه او كان مظلوماً نصرناه ثم جاء الرجل وقال لي
انزل فنزلت فوجدت غاراً مستطيلاً وبه مساكن صغيرة ونساء
ورجال محدقون بنار اضرموها فلما قربت منهم قاموا جميعاً وسلموا
عليّ وحيوني واجلسوني وجلسوا محيطين بي واخذوا يسامروني
مسامرة ترفع عني الاوهام والمخاوف ويشنون عليّ بسالتي ويمداحون
شجاعتني فانصرف عني الجزع والخوف حتى رأيت نفسي قد داخلها
العجب والكبر ثم امروا بالطعام فاكلت معهم ثم دارت علينا اكووس
الشراب فشربنا وطربنا وكنت وقت الاكل بين امرأتين حداها
قد ناهزت العشرين وهي بكر وكانت فصيحة طلقة اللسان حاضرة
الجنان سريعة الجواب خفيفة الروح والاخرى اصغر منها الا انها
متزوجة ناشزة من زوجها لسوء عشرته معها وكانت اقوم من
الكبيرة قدأ واحسن شكلاً وارق مبنى واخف معنى نحيفة مألوفة
فهويتها وان كانت الكبيرة تسارقني النظر وتمازحني طويلاً لكن

لمي علق بالصغيرة أكثر لمعنى فيها جذبني اليها فجعلت انزه طرفي
 ذات اليمين وذات الشمال فقال لي صاحبي كيف رأيت مجلسنا
 قلت مجلس انس وفيه كل ما تشتهي النفس فقال نحن هكذا كل
 يوم نأكل كل الذمائل ونشرب اعذب المشارب ونتمتع بالنظر الى
 الحسان فان رضيت الاقامة معنا ورغبت في عشرتنا آثرناك على
 انفسنا ورفعناك فوق رؤسنا وجعلناك رئيساً علينا وكان قد دب
 في الشراب فلما سمعت هذا الكلام فرحت به وتذكرت اني كنت
 طريد النوع البشري والان تحصلت على ما ربي من التمتع بجميع
 الملاذ اكلًا وشربًا وظفرت بمن كنت اهواه من الحسان ربات
 الجمال وصرت آمنًا مما اخاف فلم لا ارضى بما عرض عليّ اختياراً
 منهم لا سيما وقد رايت من الجماعة الاجماع على ذلك فلم اربد آمن
 القبول للحصول على المأمول لكن رايت ان اشروط على الرئيس
 اخذ الفتاة التي علقها فاجابني الى ذلك وقال لي وان احببت
 جعلتك رئيساً على هؤلاء الرجال ثم قبض على يدي وقال قد
 نزلت لك عن الرئاسة فتبعتها واخصصت بصنرى البنين ولم
 ينازعني احد من القوم ولا عاني وصرت صاحب امرأة عاهر
 ورئيس قوم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر واخذت من حيثئذ
 افسد في الارض وارتع في اساليب البغي والتدوان فهابني جميع
 الناس وراعهم امري وقد كنت اشيع بين المغفلين من الفلاحين
 اني مصاحب جنية فزاد ذلك في هيبتهم وعاذ عليّ من غفلتهم

ما لم يعد عليّ من شجاعتي

ولما وصل خبري الى الحكومة اهتمت في ضبطي وجعلت لمن
يدل عليّ او يضبطني جعلاً عظيماً ومع ذلك لم يتصلوا مني على
شيء وبقيت حولا كاملاً بين هؤلاء القوم ثم كرهت عشرتهم
والاقامة بينهم لتغير قلوبهم عليّ فاجتمع عليّ امران نفور الجماعة مني
وبحث الحكومة عني فكت احترس على نفسي ليلاً ونهاراً من
سطوة الحكام ومن خيانة هؤلاء البغاة الطغاة وبعد ان كت افرح
بعمل السوء والسعي في طريق الفساد تبدل فرحي غماً وسروري
هما وتمت مفارقة هذا النور والعدول عن تلك الشرور وندمت
على ما فرط مني من الكبائر والتفريط في جنب الله وصرت ابكي
وانتحب واقول لعلي اذا نركت هذه الطائفة واحوالها وتخلصت من
اوحالها اتخلص من الرذائل واتحلى بالفضائل ثم صممت على مفارقة
تلك الارض لاعيش بين قوم لا يعرفونني واتوب الى الله تعالى
عسى ان يقبلني انه تواب رحيم

وبينا انا افكر في ترفعي عن دركات الشقاوة الى اول
درجات السعادة اذ اشيع خبر قيام الحرب في جهة ايتاليا وان
الملك مجتهد في تجهيز العساكر لذلك فخذتني نفسي ان اكتب الى
الملك خطاباً يضمن طلب العفو عني وادراجي في سلك المجاهدين
فكتبت اليه ما صورته

اذا كان رضاكم في عدم احتقار النزول الى درجة مثلي وان

الاشقياء مثلي لم يطردوا عن باب مرحمتكم ارجو التعطف عليّ
 ومسامحتي ومما اعرضه علي مسامعكم العالبة اني كنت جنيت كبيرة
 القتل والسرقة ومعلوم اني بذلك استحق القتل. فانا مستعد لان
 اسلم نفسي للتصاص لكن اقدم لاثابكم الكريمة رجاء غريباً وهو اني
 ولو اني لا اخاف من الموت لكن احب ان اموت بعد ان اوعدني
 واجبات الحياة فقصدي ان اعيش مدة اعوض فيها ما مضى مني
 من السيئات لاستحق العفو من الجمعية البشرية التي خرقت بفسح
 افعالي ناموسها فان عقابي اليوم لا يكون مثلاً لغيري ولا يكون
 لي براءة من ذنوبي يوم القيامة فارجو البقاء لاتمكن من خدمة
 الوطن بدلاً عما عرفت به من ضرر وطني فيما مضى من عمري واني
 اعلم ان هذا الذي اطلبه شيء غريب لان حياتي ليست الان من
 حقوقي حتى اشترط شروطاً على الشريعة الا اني الان متمتع بحياتي
 وحررتي ولم اكن مأخوذاً ولا مكثف الايدي ولا اخاف من القبض
 عليّ فانه ابعد شيء مني ومع ذلك فاني اطلب العفو الذي هو
 شئ مراحمكم العلية وليس لي حق في طلبه ولو فرض فلست طالماً
 له مع انه يحق لي ان اقول لمن ينظر في امري ان اسباب شقائي
 ودخولي في زمرة المفسدين انما هو الامر الذي صدر بجرماتي من
 جميع ما تتمتع به اولاد وطني واخراجي من زمرة اهل الخير الذين
 كنت منهم مع ان اصل ذلك اسباب واهية لا استحق بها الطرد
 الذي تسبب عنه اني صرت قاتلاً فلو كان من حكم عليّ بذلك

قد نظر بعين الشفقة والمرحمة في قضيتي ما كنت دخلت الان
 في الزمرة المذمومة وما كنت الان احتاج الى طلب العفو ومع كل
 ذلك فاني وان لم يكن في القوانين رخصة في العفو عني فلي في
 واسع الحلم امل في ذلك ولئن شملتني مراحمك لاجعلن ما بقي من
 عمري خدمة للركاب العالي فان كان رجائي مقبولاً فليصدر الامر
 بدرجه في الجرائل لاعتمد على امرم الملوكي واحضر في الحال الى
 المدينة والا فتجر الحكومة مجراها واما انا فاحرم على عيني المدينة
 ان تراها . اه .

فلما ارسلته ابطاء عليّ خبره فاتبعته باخر ثم اخرجت وطلبت فيه
 ان ادخل في الخيالة المتوجهين الى الحرب فلما لم يظهر له اثر يبلغني
 عنه خبر صرفت النظر عنه وآيست من العفو عني وعزمت على
 الهرب الى ايطاليا لادخل في عسكرهم فتحايلت حتى فررت من بين
 تلك العصابة وسلكت طريقاً غير معروف ومررت بمدينة فاردت
 المبيت بها وكانت الاوامر صادرة بالبحث عني في اوراق المسافرين
 فلما قربت من باب المدينة وجدت المأمور جالساً على كرسي
 فجعل يامل فيّ ثم طلب مني تذكر المرور فناولته تذكرة كنت
 اخذتها من رجل كنت نهبت ماله فلم يكتف بها بل قام وامرني
 باتباعه فتبعته حتى وصلنا الى الضابط فوجدت عنده رجلاً نحيف
 الجسم طويل القامة فلما رأي ذلك الرجل قال ألت الرجل
 الذي خرج عليّ يوم كذا في مكان كذا وكان معك اثنان ولولا

اني تركت لكم فرسي ما نجوت بنفسي فما اتم كلامه الا واحد انخفراه
يقول ان الفرس التي معي هي فرس هذا الرجل بعينها فلما سمع
الضابط ذلك امر بجسي فسجنوني بجس الدم قال يعقوب وقد
حكم على ذلك الرجل بالقتل بعد ثمانية ايام

فقال ابن الشيخ من يأمل في هذه الحادثة بحكم بخطاه من
تسبب له في ارتكابه الجرائم ويحكم على هذا الشقي بانه قد بحث على
حنفه بظلمه حتى اخذ رغم انفه واصل ذلك سقطاته الدنيئة وشهواته
البيهية ولقد احسن من قال

كل الحوادث مبدأها من النظر

ومعظم النار من مستصغر الشرر
ومن ينظر الى ظاهر حاله يراه مسكيناً ضعيفاً ولا يهتد فيه
هذه الفعال وانه لا قدرة له على ما ارتكبه من هذه الاهوال ولعل
قولم الظاهر عنوان الباطن قاعدة اغلبية

المسامرة (١٠٦)

البنكات واوراق المعاملة

ثم قاما وتوجها الى الشيخ فسألها عما رأياه من الحوادث او سمعاه فاخبره ولده بقصة الرجل ثم جاء الخوaja التلياني ولم يحضر الانكليزي

فقال الشيخ ليعقوب اظن ان الخوaja لا يحضر الا اخر النهار فقم بنا الى المحل الذي كنا به بالامس لنطلع على البرصة فركبوا جميعاً وساروا اليها فلما دخلوها صار اهلها ينظرون اليهم ويعرضون انفسهم لخدمتهم وسمعهم الشيخ يذكرون مدنا شهيرة واسماء كثيرة فبعد خروجهم سأل التلياني عن سبب ذكر هذه البلاد واسماء العباد فقال ان الدول في اعمالها العامة الكلية كاحاد الرعية في اعمالها الخاصة الجزئية فاذا ارادت دولة من الدول اقتراضاً او انشاء امور جسيمة كالترع والقناطر والسكك الحديدية وما اشبه ذلك

من الاعمال النافعة وكانت لا ترغب عمله على نعمتها فترتب لذلك متعهدين بعد ان تقدر قيمة العمل فيأخذونه على شروط يعقدونها ويجعلونه اسهما برمج معلوم وتلك الاسهم تباع وتشتري في البرصة على يد الساسنة فيتداولها الناس كل على حسب اقتداره فمنهم من يأخذ سهما ومنهم من يأخذ سهمين وهكذا فكل من دفع شيئا كان له في الشركة حصة بقدر ما دفعه فاذا اراد احد بيع حصته او مات واراد ورثته ذلك اتوا الى هذا المحل فتكون السهام فيه كالبنضائع في الاسواق وحيث كانت الدول لا تثبت على حال بل تغير على حسب ما يعرض للزمن من الاحوال كانت القيم ايضا لا تثبت على حال فلا تكون في حالة السلم كما تكون في حالة الحرب لان درجة الامنية تتبع سياسة الحكومة فتعظم اذا استقامت الاحوال وتقل بعكس ذلك وفي كل حال من هذه الاحوال تغير قيمة الاسهم فتارة تغلو وتارة ترخص كالبنضائع

قال الشيخ اريد ان استفهم منك عن امرين كثيرا ما حاك في صدري ذكرها ولا افهم معناها الاول سمعت مرارا كلمة بنك ولم افهم معناها والثاني رايت غالب المعاملة بالورق ولم افهم تفاصيل ذلك فقال الخواجا اما البنك فهو محل من اهم محلات التجارة له رجال يدبرونه بطريقة يحصل بها النفع العام ورئيس البنك يسي البنكبير

واعمال البنك الاصلية تكون بالنقود فتارة تسلم اليه نقود

ليحفظها ويشغلها وتارة يقرض او يقترض على حسب الاحوال وتارة يطلق لفظ بنك على اماكن تجارية تشتغل ببيع الاوراق التجارية وشراؤها وتلك الاوراق مثل الاسهم في بعض شركات او اوراق الحوالات او الرجح المالية او السندات ويكون ذلك لانفسهم او لغيرهم فحيثند هي نوعان عمومية وخصوصية وكثير من الاعمال تجري بالاوراق بدل النقود بل قد يرغب في كثير من الامور في المعاملة بالاوراق اكثر من المعاملة بالنقود وعلى كل حال فالبنك عبارة عن الصندوق الذي تحفظ فيه المبالغ النقدية او التي في الاوراق

والبنك شخص يتولى النقود التي ترد اليه ليحفظها ويسدد منها مبالغ مطلوبة لاربابها وللبنك اتمال متعددة منها ان التجار يكون لهم وعليهم فانا ارادوا الاستراحة من العد والنقد سلوا ما عندهم من النقود الى بعض البنوك وكلما طلب منهم او لم شيء احاله على البنك ليستلم او يسلم ويكتب عنده فيستريح التاجر بذلك من العد والنقد والتسليم والتسلم ويستغني عن الخدمة والدفاتر التي تكثر وقل بحسب كثرة الاموال وقلتها وقد يجمع جملة من التجار في بنك واحد فتحق المئونة عليهم مثلاً لو فرض ان لزيد على عمرو الف قرش وبنكها واحد فيكتفي زيد بان يسلم السند الذي له على عمرو للبنك فيضيف البنك على المطلوب لزيد الف قرش ويخصم من المطلوب لعمرو نظيرها او يكتبه عليه وهكذا بغير عد

او تقد بل بالكتابة فقط ولو بلغ المتعاملون ما بلغوا متى كان
بنكيرهم واحداً ولو فرض ان المدين لا يعلم سند المبلغ اللازم تسديده
في وقت معين تحت يد من هو فلا يلزمه حينئذٍ الا ان ياخذ من
البنكير عميله قبل الميعاد بيوم مثلاً المبلغ المطلوب منه اللازم
تسديده وبهذه الطريقة يكتفي مؤونة حفظه زمناً طويلاً ويكفي
شر غوائل كثيرة ظاهرة

وحيث كانت حركة النقدية في الدخول والخروج لا تنقطع
فلواقصر البنكير على حفظ ما يرد اليه وتسديد ما يلزم تسديده
بدون اعمال اخرى ربما ترتب على ذلك بقاء مبالغ جسيمة في صندوقه
بغير ترويج ولهذا تجدد جميع البنوكة تجر في ابدلون النقود صنفاً نصف
برح قليل او كثير كما تفعل الصيارفة او يتجرون في سبائك الذهب
والفضة فيحصلون من ذلك على بعض فوائد تضاف على المجهول
لم من طرف عملائهم في نظير ما يجرون لم من الاعمال التجارية
وتجارتهم في الذهب والفضة لا تضر رأس مالهم ولا باعمالهم مع
عملائهم لان هذين الصنفين مأمونان وكانها تقود في صندوق
البنكير ولا يعسر عليه ادائها او ضربها بل متى اراد فانه يدها
بنقود لقضاء الشغل ويضربها نقوداً على حسب ما يرى وزيادة
على ذلك يفعلون ما يقال له الاسكت لما يرون فيه من زيادة الربح
مثلاً لو فرض ان من ضمن عملائه جماعة لم اعمال جسيمة
ودائماً يطلب منهم مبالغ في اوقات متقاربة لا يمكنهم اداؤها في اوقاتها

فيقدم لهم النقود بفائض معين بايام قليلة ولا بأس عليه بذلك
 لان ما خرج من صندوقه سيعود له في ميعاده ولكن متى رأى ان
 مطلوب عملائه اخذ في الريادة فلا يخرج بالاسكت مبالغ مستحقة
 حين امكان الحركة وانما يلزمه لاجل زيادة امته في اجراء عملية
 الاسكت ان يعلم ان المقرض قادر على الدفع في الوقت المعين
 ويكفي في تحفظه علمه بان المقرض باع صنف بضاعته لآخر متقدر
 واعطى سند الاعتراف بالتسديد في ميعاد معين فباعطاء السند
 المذكور للبنكبر وضمانه يكفي البنكبر بذلك في الاعتماد ويسلم
 النقود للمقرض بعد حجز الاسكت اي الفائدة بالنسبة للزمن المعين
 في السند فاذا باع زيد لعمر و بضاعة بالف غرش وشرط عمرو على
 نفسه ان يوذي المبلغ بعد شهر فلو فرض ان زيدا احتاج الى
 دراهم وليس له مبالغ عند البنكبر فانه يسلمه السند وياخذ منه الف
 غرش بنقص قيمة فائضها مدة شهر او شهرين على قدر ميعاد
 السداد الذي في السند ويحفظ عنده السند فيكون زيد وعمر
 ضامين للبنكبر المبلغ المذكور فاذا بيعت البضاعة وحصل ربح
 فذاك والا ضمن كل منها للبنكبر قدر خسارته
 وحيث كان الاسكت يستلزم استعمال اموال جسيمة والبنكبر
 يجد فيه ربحاً عظيماً فانه يجتهد في ازدياد المبالغ في صندوقه وفي
 طرق تشغيلها
 وحيث ان بعض اتجار يلزم له مبالغ دائماً لادارة حركته

التجارية والبعض ترد اليه تقود زيادة عما يلزم له ولا تسع نفسه بتعطيلها فله فيها طريقتان اما ان يقيها في البنك زمنا غير معين لكن لا يكون له اخذها الا بعد نصف شهر فاكثر وفائدتها اقل من الاسكت واما ان البنكير يسلم اوراقا تجارية باسكت اقل من الاسكت الذي استولاه

وكما ان البنك يقوم مقام شخص او اكثر من اهل البلد الذي هو به او القريب منه كذلك يمكنه ان يجري تلك الاعمال بالنسبة للبلاد والمدن البعيدة عنه بواسطة اوراق حوالة من بنك على بنك اخر بمعنى انه باشتراك البنوك بعضها مع بعض تسهل اعمال التجار الموجودين في بلاد متباعدة فانا كان لزيد او على عمرو مبلغ وكل منها قاطن ببلد غير بلد الاخر ويريد زيد تسديد ما عليه فانه يأمر بنكيره بتسديد المبلغ لعرو فحينئذ ياذن ذلك البنكير للبنكير الذي ببلد عمرو بالتسديد فيسده لانها شريكان او انه يسدد المبلغ لاحد باكيرة بلده ممن يكون لهم معاملة مع البنكير المقيم ببلد صاحب المبلغ هذه هي الاعمال الاساسية للبنوك ولهم اعمال اخر اقل اهمية من ذلك مثل تقديم مبالغ على رهن من ذهب او فضة او حجب املاك او عقارات او اوراق شركات او اوراق اسهم او اوراق بضائع ففي كل ذلك يلتزم المقرض بتسديد المبلغ في الميعاد المحدد بحيث لو تجاوزه كان للبنكيران يبيع الرهن فهذه العملية تشبه عملية الاسكت انما تتغير قيمة الرهن ولذلك ربما حصل للبنكير

خسارة ثم ان البنكبير في كثير من الاحوال يفوض للمسار فيبيع
 بالنيابة عن اخرين اوراقا تجارية مثل اوراق الايرادات المقررة على
 الحكومة لبعض الاهالي واوراق اسهم الشركات والاقتراضات الميرية
 وفي بعض الاحوال لا تكفي المبالغ المسلمة اليه فيخرج اوراق تقود
 يعهد باستبدالها بتقود لمن هي في يده حين تقديمها له وبهذه العملية
 تتضاعف تقوده التجارية بين التجار ولا تضر باحد لان لكل انسان
 حق تبديلها بتقود متى اراد بلا نقص وبذلك تكون مثل التقود سواء
 بسواء فانا حصل مبادلة جانب منها كل يوم بتقود يبقى جانب
 اخر منها يتعامل به وذلك يزيد في رأس ماله ويفيده ارباحا
 حقيقية

واعتماد ورق النقدية مؤسس على ائتمان البنكبير لعلمائه
 واعتماد الناس على صداقته واقتمداره فانا حصل ما يخل بشيء من
 ذلك اخل نظام جميع اعمال البنك
 وحيث ان الائتمان لا يكون واحداً في جميع الاماكن ولا عند
 كل احد واه اسباب حقيقية يقوى بقوتها وبضعف بضعفها كان
 الربح ايضاً مختلفاً ومتفاوتاً بحسب ذلك وانا كانت المعاملة بين
 طائفة اهلها مؤسسة على الائتمان ولم عليه محافظة بحيث لا بطرق
 اليهم ما يهدم شيئاً من اركانه كانت الارباح كثيرة وانجاح حاصل
 وانا تداعت اركان الائتمان تدانى لها النجاح واضعبل وهكذا
 فلذا كانت الجهات التي لا ائتمان بها اصلاً لا تعامل تجارها الا

بالنقد فوراً وإن كثرت بها البنوك
 ويعلم ما ذكرناه يلزم أن يكون للبنك في مال البنك جزء
 يخصه وذلك لزيادة الائتمان فانه يكون شبه كفيلاً وإيضاً هو نافع
 للبنك في استعوائن ما عسى أن تقع للبنك من الخسران في بعض
 الأعمال بسبب خطأ يقع في بعض المصروفات ويتفجع به عوضاً عن
 المبالغ التي تتأخر عن أوقاتها لسبب من الأسباب وإيضاً هذا المبلغ
 يزيد في أعماله وأرباحه

وأما أمر أوراق النقدية فمختص بالحكومة فهي التي تامر
 بنشره لبنك الحكومة ففي فرنسا يكون للبنك الفرنسي وفي
 الإنكليز للبنك الإنكليزي وهكذا كل دولة من دول أوربا لها
 بنك مخصوص هو الذي يخرج ورق النقدية ولا تخرج الحكومة
 من ذلك إلا قدرًا معيناً بالنسبة لحال التجارة ولوزن الأموال
 وإعتبار تلك الأوراق كإعتبار النقود في التعامل بين الناس
 سواء سواء كما تقدم لكون البنك متعهداً باستبدالها بنقده متى
 أراد حاملها صرفها بدون توقف في أي مكان من أمكنة الولاية
 فإخضونها للمعاملة في البيع والشراء والأجارات ونحو ذلك
 ويسدون بها الديون والتفاسيط الميرية المالية وفي الإلتزامات
 وكلما وجد الناس عدم التوقف في استبدال الأوراق بالنقود
 ووثقوا بذلك بقيت فيها الرغبة وحفظت قيمتها وإلا فلا يكفي
 في الائتمان استراف الحكومة بتلك الأوراق فإن من يده الأوراق

اذا كان لا يمكنه استبدالها بنقود او باشياء اخر تفي بقيمتها فلا يلتفت الى هذا الاعتراف فان الورقة المسطوره بها الف غرش مثلاً لا تساوي في ذاتها تلك القيمة وحيث ان هذا الاعتراف اذ لا يؤثر ذلك زيادة في قيمتها فان قيمتها انما هي باعتبار المزية القائمة بها النافعة في نحو شراء ما يلزم شراؤه بالمبلغ المعين فيها كما يكون مشتراه بنقود من ذهب او فضة فما دامت بهذه المزية كانت كالذهب والفضة سواء بسواء وتزيد وتنقص قيمتها بحسب زيادة الرغبة فيها وقلتها كما يحصل ذلك في سكك النقود فان من المعلوم لكل متأمل ان قيم الاشياء التي تجعل ثمناً للسلع انما هي منسوبة لمقادير ما تجعل ثمناً له فان جعلت ثمناً لسلعة جيدة ذات قيمة كثيرة كانت قيمتها كثيرة والعكس بالعكس لا فرق بين النقود وغيرها

فلو فرضنا ان ما يلزم للفرنساوية من النقود لمشتري جميع ما يلزم لم ملياران من الافرنك يمكننا ان نعتبر ان هذا المبلغ ثابت لا يتغير الا اذا تغير اللازم لم من الاشياء. ولو فرض تكثير القدية الى ان تصير اربعة مليارات اي ضعف المفروض مع بقاء ما يلزم من الاشياء ثابتاً على اصله ففي الحال تنقص قيمة القدية وما كان يشتري بفرنك يشتري باثنين فانه لم تكن الزيادة مقدار المفروض اولاً بل كانت اقل فلا شك ان قيمة الفرنك تتناقص بنسبة تلك الزيادة وحيث ان يمكن فرض زيادة بها تكون قيمة

الفرنك اقل من قيمة سبيكة من الفضة وزنها وزنه ففي هذه الحالة لا
يعامل بالفرنك بل يعامل بالسبائك وصاحب الفرنكات لا
يعامل بها في صورة النقود بل في صورة السبائك فتضيع قيمة
النقود وتضطر الحكومة لاختها من ايدي الناس فتسببها وهذا
هو السبب في انه لا يصح نقص قيمة وحدة المعاملة عن قيمة وزنها
من السبائك بخلاف العكس

فلو فرض ان مبلغ النقود قد اخذ في النقص والقلّة مع بقاء
البضائع والسلع على حالها مستلزما زيادة قيمة وحدة النقود مع
بقاء الاشياء اللّازم مشتراها على حالها لزادت قيمة وحدة المعاملة
فتكون قيمة الدرهم مثلا من نوع المعاملة اكثر من قيمة وزنه سبيكة
خالصة فتخرج الحكومة فيما تضربه من النقود وقد ترغب الناس في
ضرب السبائك وتكثر المعاملة بها من جهة اخرى

وبعض الحكام لا يرغب في ضرب النقود زيادة عن طلب
الدولة والبعض يجب ان يربح ربحاً قليلاً واخر يضربها بالخسارة
فكلما كثر المضروب منها نقصت قيمتها فتؤخذ وتسبك ومن
كل ذلك علم ان وحدة المعاملة لا يلزم ان تكون اقل ولا اكثر
من قيمة ما يعادلها من السبائك وقد صار معلوماً لحضرتكم ان
النقص الذي يعتري النقود لا يمكن ان يصل الى ان يكون اقل
من قيمة وزنه سبيكة لانه في هذه الحالة يسبك ما يلزم منها
حتى تقل كمية الموجود منها وترفع القيمة الى ان تعادل مع السبيكة

او تزيد عنها وهذا لا يمكن اجراءه على ورق النقدية اذا كثرت
الحكام منها حتى يعتدى مجبوتهما مقدار اللازم وحيث يفتري
المبالغ المفررة فيها ما يعتدى المعاملة من الرواج وعدمه وانا اضرب
لك مثلاً يزيد المسئلة وضوحاً وكتفاً

وهو انه في مدة الحرب التي كانت بين الانكليز وفرنسا اقتضت
الحكومة الانكليزية من البنك الانكليزي مبالغ جسيمة فاؤل
اقتراض استوفى جميع المودع عند البنك من اموال العملاء وكان
اثني عشر مليوناً من الجنيه تقريباً فلم ينشأ منه ضرر للبنك وانا
نشأ الضرر لما اضطرت الحكومة الى الاقتراض مرة اخرى وطلبت
مبلغاً من البنك يقرب من احد عشر مليوناً من ورق النقدية ولم
تدفع في نظير ذلك شيئاً الا الاعتراف به وفرضت على نفسها فايضاً
تدفعه كل سنة وصارت تصرف من الورق ماهية المستخدمين
واثان المشتريات وغيرها مما يلزم حتى زاد مقدار مبلغ النقدية
فتقصت القيبة وبسبب ان نوعي الذهب والفضة حافظان لقيمتها
دائماً لم يقع النقص الا في معاملة الورق

ومن ذاك العهد صار بين الناس نوعان من المعاملة اسمها
واحد وقيمتها مختلفة كما يقولون عندكم معاملة بالتعريفه ومعاملة
بالصاغ فزرع كل من بيده اوراق في الحال الى البنك لتغيير اوراقه
فاشكك الامر على البنك وطلب اربابه من الحكومة حل هذا
المشكل لان البنك لا قدرة له على الوفاء بما وعد به الخلق

ولما كانت الحكومة قد تصرّفت في التبعة قدمت القضية
 للمجلس فصدر الاذن للباك بان يتوقف عن استبدال الاوراق
 بالتقود ورخص في تسديد الديون بتلك الاوراق وحيث انه لا
 يصعب جعل تقود من الورق لعدم الكلفة في ذلك شر من تلك
 الاوراق مبالغ حسية فكبرت اسما مبالغ العملة التجارية في البلد
 وزادت عن الحد فنزل سعر الورق بسبب ذلك نزولاً فاحشاً
 وسببه انا لو فرضنا ان اللازم لدولة الانكليز ثلاثون مليوناً من
 صنف الجنيه يقضون بها ما يلزم لهم وفرض زيادة المبلغ الى اربعين
 مليوناً فلا تكون قيمة ذلك الا ثلاثين مليوناً بمعنى ان القيمة تنقص
 قدر الربع ولما اكثر الانكليز في تلك المدة من نشر ورق القدية
 ترتب على ذلك ان صارت الورقة التي تقابل جيبها لا تساوي
 غير ثلاثة ارباعه تقدياً ففي ذلك الوقت اخذت قيمة الذهب
 والفضة في الزيادة لفظاً فاوقبه الفضة التي كان ثمنها قيل توقيف
 صرف قيمة الورق خمسة من الشلبن واثين من البنس صارت
 بعد التوقيف تساوي سبعة من الشلبن واربعة من البنس وغلا
 سراقوات الاهالي وضرورات معائشهم بنسبة ذلك

وحيث كان مصرف الحكومة دائماً في ازدياد اكثر من
 الاقتراضات وازدياد اليكون المطلوب منها من دون ان يزيد
 المطالبون لها من قبل لان الفوائض المقررة انما هي ارباح لمبالغ
 قدية قيمة وحدتها عالية ولما تنظت الحكومة لهذا الامر الفطبع

وارادت حسبه لم تجد لذلك الا احد طريقين الاول ان تجعل
 قيمة جنيه الذهب قدر القيمة التي صار اليها جنيه الورق
 وحيث ان الجنيه الورق كان في سنة الف وثمانمائة واربعة
 عشر لا يشتري به الا مائة حبة وثمانى حبات من الذهب الخالص
 والجنيه الذهب القديم كان يشتري به مائة وثمان واربعون حبة
 فحيث كان يكفي ان يجعل قيمة الجنيه الذهب مائة وثمانى حبات
 وضرر هذا الطريق ان الذين لم على الحكومة ديون من قبل
 يستولون بقيمة اقل من القود التي دفعوها وهذا ضرر عظيم
 على الناس مع ان الامر المهم هو اجراء الطرق الموجبة لتخفيف
 ائثال الاهالي بحيث لا يدفعون لمن اقترضوا الحكومة مدة النقص
 دراهم قيمتها اعلى مما اخذ منهم

والطريق الثاني ان تقص مبالغ الورق بقدر ما يلزم لرد
 قيمة الجنيه الذهب الحقيقية اليه بحيث ان الجنيه الورق يشتري
 به مائة وثمان واربعون حبة ذهباً خالصاً وهذا الطريق هو الذي
 اتبع وجرى العمل به ثم بعد الصلح قصت مصارف الحكومة وسمار
 توقيف ضرب معامله الورق وسمدت الاوامر لباك الانكليز بجمع
 كثير من الاوراق واستبداله بتقود فاخذ الجنيه الورق الزيادة
 حتى رجعت قيمته لاصلها ولكن بعد خسارت كبيرة على الحكومة
 لان دين الحكومة ازداد زيادة فاحشة بسبب قلة قيمة تقود الدين
 الذي عليها عن قيمة التقود التي دفعتها في التسديد وكذلك

المستأجرون خسروا ايضا في اجاراتهم لانهم استأجروا بالمعاملة
النازلة وسددوا بالمعاملة العالية

ولما اخذت قيمة الاشياء في التنازل ثانيا بعد هذه الحركة
كان المستأجرون يدفعون خراج الارض بزيادة وبيعون باقل
وزاد المخرج ايضا بقدر الثلث لانه مقدر بالصف ولا مدخل
للقبلة فيه فحسر ارباب الزرع خسارات جسيمة

كل ذلك والشيخ مصغر لكلام الخواجي لما فيه من بيان علوم
لم يكن يعلمها

وبيناها كذلك اذا برجل اقل فكم الخواجي سرا فنهض قائما
وقال للشيخ لا تؤاخذني فلن هذا الرجل اخبرني بان الحكيم
قد حضر بالمنزل فلزمني التوجه اليه فقال الشيخ لعله خير قال ان
ولدي متغير المزاج منذ ايام ولكنه بخير ثم انصرف

فقام الشيخ وركب العربة ومعه ابيه ويعقوب فلما استقاموا
في الطريق قال الشيخ لاشك ان امور اوروبا كلها عجيبة ولهم
افكار واختراعات نافذة شريفة فانظر كيف اسلوا الكفر في تحسين
امور الدنيا واختروا لها طرقا بها اتسعت دائرة التجارة بيدهم فان
ما ذكره حضرة الخواجي من طرق التيسير والسهولة التي سلكوها
واستعملها ارباب البوكة قد هون امر التجار على كل انسان
وتيسر لكل شخص صادق حسن الادارة فيما يجر به من التدبيرة
واكن لا ادري هل هذه البوكة من اختراع الانور وبارزين ام هي

امر قديم اخذه الاور وباويون عن سبتهم
فقال يعقوب ان معلوماني بالسبة لذلك خير كثيرة ومع هذا
اخبر حضرتكم بما اعلمه في هذا الشأن

وهو ان الكنعانيين في المدة الماضية كانوا يستعملون
البنوكة في امر التجارة ولكن لم يصلوا عن ذلك خبر شاف يوثق به
والذي اتفقته ان الاثنيين كانوا يعرفونه ويتعاملون به وكان
عقاهم هم الذين يتولونه وبذلك كانوا يتحصلون على اموال جسيمة
ويبلغون درجات عالية بسبب كثرة النقود وكان تعاملهم بالتقد
قط فكانوا ياخذونها بربح معلوم ويقرضونها بربح غيره على رهن
وضمانات كما تفعل البنوكة الان فيحصلون على ارباح كثيرة

واما البنوكة التجارية فلم تظهر الا في القرن الثاني عشر من
الميلاد ببلاد البناديك وسبب ظهورها جماعة من التجار كان لهم
مبالغ عظيمة على الحكومة فاتفقوا على ان يجمعوا سندات تلك
المبالغ ويتعاملون بها في تجارتهم كما لو كانت الحكومة صرفتها
وحيث كانت الحكومة تدفع فائضا لمبلغ الدين كان ذلك
الفائض يتقل مع الدين من تاجر الى اخر تبعا لحوال التجارة
ومن لا اخذ له ولا عطاء ياخذ فائضا مبلغه من البنك بدون
استئذان الحكومة

ثم ان تلك الطريقة اتبعت في اغلب البنوكة التي ظهرت
فيما بعد وجري بها العهل في بعض البلاد مثل بلجيكا وهولانده.

ونحوها والغالب ان المعاملة كانت اولاً بالنقود ليس الا واول ظهور ورق النقد كان ببلاد الانكليزي في بسكها الذي ظهر سنة الف وستائة واربعة وتسعين ولم يتحقق استعمالها قبل ذلك وفي تلك المدة كان المعلوم ان جميع الاختراعات ايا كانت انما هي حق الحكومة سيما ما يتعلق بامر التجارة وسبب انشاء البنك الانكليزي هو ان الحكومة رغبت في اقتراض مليون والفي جنيه انكليزي فانشأت البنك المذكور وخصت من يدخل في الاقتراض بمزايا للترغيب منها انها جعلت لهم فائظاً في كل مائة ثمانية كل سنة ومنها انها رخصت لهم في الاستيلاء على مبالغ ممن يرغب تنمية ماله عندهم ومنها ان لها ان تقرض من شاءت وتجري الاسكت في اوراق التجارة كالسندات وورق الحوالات ومنها ان لها ان تخرج ورق نقدية تدفع مبلغه تقدا حين عرضه عليها ومنها انها تحول عليها امورا ميرية في مقابلة ربح معلوم وقد جعل في الاصل ميعادها ١٢ سنة لكن لما ظهر للحكومة من ذلك فوائد صارت كلما انتهى الميعاد تجدده حتى كانت سنة الف وسبعائة وثمانية فثبتت على ما هي عليه الى الان وكانت النوكه كلما تجددت المواعيد تحصل على مزايا جديدة ب ورود المبالغ اليها بكثرة حتى صار البنك تقريباً هو القائم باحوال التجارة والحكومة ووصل رأس ماله قريباً من خمسة عشر مليوناً من الجنيه الانكليزي وهذا القدر كان دائماً ديناً على الحكومة وكان ذلك اشبه بالضمان للبنك

وزيادة قوة في اعتماد الناس وإيمانهم له وبهذا السبب كانت
البنوك كأنها مشاركة للحكومة في أمورها حتى كان كل اضطراب
وتقلب يحصل حساً كان أو قبيحاً إذا تأثرت منه الحكومة بأثر منه
البنك أيضاً

وفي سنة الف وسبعمائة وسبعة وتسعين لما حصل توقف في
دفع قبة الورق للبنك تقوداً حصل له اضطراب عظيم وصارت
البنوك تشبه فوريقة ورق لأنها كانت تشر ورق القدية بحسب
احتياج الحكومة ولذلك حصل في قبته نقص كما ذكر لكم حضرة
الخوaja واستمر ذلك الى سنة الف وثمانمائة واثنين وعشرين
والمنافع التي عادت على الحكومة في تلك المدة لا يمكن حصرها
ومتوسط ما اقترضته الحكومة من البنك يقرب من خمسة وثلاثين
مليوناً من الجنيه الانكليزي ومع هذا لم تقف حركة التجارة وكان
الاسكت جارياً انما نزلت قيمة ورق النقد قريباً من خمسة
وعشرين في المائة وقد حصل الاذن من الحكومة للبنك الانكليزي
في اخراج اوراق نقدية قدر اربعة عشر مليوناً من الجنيه فقط وإذا
زاد مبلغ الورق عن ذلك يلزم ان يكون له مقابل من النقد
العين او من السبائك في صندوق البنك

وفي سنة الف وثمانمائة واربعة واربعين اتسم البنك الانكليزي
بمقتضى الاوامر الملوكية الى بنكين الاول استلم الصنف الموجود في
البنك والسندات التجارية المتضمنة للاربعة عشر مليوناً من الجنيه

منها ما يقرب من اثني عشر مليوناً على الحكومة وجعل لها ان يخرج ورق قدر الاربعة عشر مليوناً سندات مضافاً عليها قدر الصنف والناس ان يشتروا منه ورق النقد ويبدلونه بصنف عين فالأوقية من الذهب الذي عياره اثنان وعشرون قيراطاً بثلاثة جنيهات وسبعة عشر شلينا وتسعة ديناراً والأوقية من الذهب السبيكة الذي عياره كالسابق بثلاثة جنيهات وسبعة عشر شلينا وعشرة ديناراً ونصف والقسم الثاني يأخذ من الأول بمبادلة الذهب بأوراق النقد أسوة الأهالي سواء بسواء

ومن أجل هذا التاريج صار منع البنوك من اخراج ورق نقدية مطلقاً وإذا اجتمع بنكان صغيران فلا تعدى ما ينشرانه من الورق قدر ما كان ينشره واحد منها قبل صدور الأمر ويمكن البنك الانكليزي ان يزيد في تكثير البنوك التابعة له على حسب رغبته في تكثيرها في جميع الجهات بدون تغيير قدر مبلغ الورق المخصص له وإذا ابطال البنك الكبير أحد البنوك الصغيرة فله باذن من الحكومة ان يضيف الى نفسه ثلثي ما كان يطل منه

وعدد البنوك التي في المديرية التابعة للبنك المذكور سنة الف وثمانمائة وثلاثة وخمسين أحد عشر بنكا عمومية غير مائة وسبعة وستين بنكا خصوصية توجد ببلاد الانكليز وبلاد الغال من ضمنها خمسة وستون بنكا لها الاذن باستعمال ورق النقد ولها بنوك يجمع

الاقطار الانكليزية متفرعة عنها عددها ثلاثمائة وواحد واربعون
بنكا

واول بنك حدث ببلاد فرانس انشاء رجل انكليزي سنة
الف وسبعائه وستة عشر وفي اول الامر حصل له رواج ولكن
من تسلط الحكومة عليه وعدم اتطاع طلباتها فسد حاله وبطل
وفي الامر على ذلك نحو ستين عاما ثم صار تنظيم صندوق
الاسكت وكان رأس ماله خمسة عشر مليونا ليورا تورنوا منها
عشرة ملايين اخذتها الحكومة قرضاً بشرط دفعها على تقاسيم
سنوية ولكن بسبب قلة الائتمان وعدم الصدق في كلام الحكومة
لم يحصل نجاح هذا الامر الا بعد صرف نظرها عن اقتراض هذا
المبلغ من الصندوق المذكور

وعلى مقتضى الامر الصادر سنة الف وسبعائة وتسعة وسبعين
جعل رأس المال اثني عشر مليونا وربح في المائة اربعة في السنة
في حال السلم واربعة ونصفا في حال الحرب

وفي سنة الف وسبعائة واثنين وثمانين كسد حال التجارة
فتأثر من ذلك صندوق الاسكت ولكن دفعت الحكومة له ما
كان عليها قدماً فانصلح حاله واستمر على هذا الامر مدة ثلاث
سنين حتى حصل لكل سهم في السنة خمسة عشر ونصف

وفي سنة الف وسبعائة وسبعة وثمانين صدرت اوامر يجعل
رأس ماله سبعين مليونا ورخص له في شراء ورق النقد والتجارة

ومدوا لذلك ميعاداً ثلاثين عاماً واقترضت منه الحكومة سبعين مليوناً فحصل من ذلك وقف الحال بسبب عدم إمكان الصرف لارباب الورق لوفته

وفي سنة الف وسبعمائة وثمانية وثمانين صدر امر بعدم صرف نقدية في مقابلة اوراق واستبدالها باوراق تجارية من عنده ولكن من كثرة طلبات الحكومة وازدياد كمية ورق النقد حصل اضطراب عظيم نشأ منه توقيف العمل والدفع واستمر ذلك الى قيام حرب فرنساوية وبعد الهدوء ظهرت بنوكة تعاملت في بعض الامور التجارية واول ما ظهر صندوق الحساب التجاري سنة الف وسبعمائة وستة وتسعين وبعده سنة ألف وسبعمائة وثمانية وتسعين صندوق التجار وترتب على ذلك نزول سعر النقدية من تسعة في المائة الى ستة وراج امرهم رواجاً عظيماً ورجحوا من دون ان يسمع بما يجمل بامانتهم وما ذاك الا لكونهم غير مرتبطين بالحكومة ولكن لما ظهر للحكومة ان من الضروري وجود بنك تستمد منه شرع بونابرت الاول ايام قنصلته في تشكيل بنك سماه بنك فرانساً على نسق بنك الانكليز وجمع له جملة من البنا كيرة المشهورين ولاجل ان يأتمنهم الناس دفعت له الحكومة خمسة ملايين فرنك قيمة خمسة الاف سهم فدارت حركة البنك وجرى فيه الاخذ والعطاء وكان هناك بنك باسم صندوق الحساب التجاري وكان التجار والناس يعتمدونه فجمعت الحكومة الاثني وجعلتها بنكاً واحداً وكان ذلك في سنة

الف وثمانمائة تقريباً وفي أول سنة كان عددها أخذ من الأسهم سبعة
الاف وخمسمائة ثم ازداد حتى بلغ خمسة عشر ألفاً ومبلغ ما صار أسكته
مائة وواحد وعشرون مليوناً في ظرف سبعة أشهر ونصف وفي
السنة الثانية بلغ مائتي مليون وخمسة وفي السنة التي بعدها بلغ
اربعمائة مليون وثلاثة واربعين مليوناً وكان كل بنك ينشر أوراق
التقديية ولم يحصل من ذلك ما يجمل بالاخذ والإعطاء إنما في
سنة الف وثمانمائة وثلاثة صدرت أوامر الحكومة يجعل ذلك
مخصوصاً بالبنك الفرنسي فحصل الحق بعض البنوك به وكانت
مدة الرخصة خمسة عشر عاماً ومبلغ رأس المال خمسة واربعين
مليوناً والربح في المائة ستة في السنة وما زاد من الربح يحفظ في
البنك

وحيث كانت الحكومة دائماً تتداخل في أمور البنك كان
سير البنوك غير مستقيم فكان في بعض الاوقات يحصل الكساد
ويقول الامن واستمر ذلك الى سنة الف وثمانمائة وستة
ثم عين بونابرت رئيساً للبنوك جعل معه وكيلين وحدد
لها حداً تسير عليه وجعل رأس مالها تسعين مليوناً وحدد الميعاد
الى خمس وعشرين سنة ورخص في احداث بنوك في المدن تبعا
لهذا البنك ولكن بسبب ما ظهر للحكومة من عدم الثبات مع الخوف
الذي كان يعتري الناس لم يحصل رواج وتعطلت البنوك
وخسرت وبقيت اكثر مبالغها بصناديقها بدون عمل وكان هذا

الاضطراب يكثر ويقل الى سنة الف وثمانمائة وثلاثة ثم تحصلت
البنوك على حريتها واستقلالها بالنظر في امرها كما تشاء وسعد
البنك الفرنسي من بين البنوك بنشر اوراق النقدية فصارت اغلب
المعاملات واردة على هذا البنك في المدن وفي المديريات فحصل
الضرر نفيه من البنوك واستمر ذلك الى ان حصل القيام الذي
كان سنة الف وثمانمائة وثمانية واربعين فصدر الاذن للبنوك
الاخر بنشر ورق النقدية فكثر نشر الورق وحصل كساد عمومي
فيه وتقصت قيمته فصدرت الاوامر ثانياً باستئصال البنك الفرنسي
به واستمر الحال على ذلك الى الآن ومن ذاك الوقت انتظمت
امور التجارة

وفي سنة الف وثمانمائة وسبعة وخمسين صدرت اوامر بامتداد
ميعاد الاوراق الى سنة الف وثمانمائة وسبعة وتسعين ورخص لم
في مبلغ واحد وتسعين الفا ومائتين وخمسين سهماً مستجدة وبهذا
زاد رأس المال عن اصله وبسبب هذه الزيادة رغبت الحكومة
في اقتراض مائة مليون وبقي ما كان لها من المزايا على اصله
وزيادة على ذلك صار يمكنها تشكيل بنوك في المديريات لكل
بنك مجلس ومدير يعين بمعرفة مجلس البنك ويكون مقبولاً عند
الحكومة وعدد اعضاء المجلس المذكور يختلف من ستة الى خمسة
عشر ومن ثلاثة مفتشين منتخبين بمعرفة مجلس البنك الفرنسي
واما الاعضاء فتعينهم بمعرفة الحكومة ايضاً من خمسين منتخبين

من كبراء ارباب الاسهم الذين في الجهة التي بها البنك ويقدر
المجلس اسماءهم للحكومة في عريضه فقتنخب منهم من يصلح
ويوجد ايضاً بنكان شهيران غير البنك الفرنسي وفروعه
احدهما لتسهيل امر القرض على مرهونات العقار والاراضي والاخر
لتسهيل الاعمال المهمة مثل انشاء ورش او معامل او سكك حديدية
وما اشبه ذلك

وبينا هم في هذا الحديث اذ وصلت بهم العربة قريباً من
العين فنزلوا ومشوا الى ان وصلوا الى السين فقال ابن الشيخ اني
من الامس الى هذا الوقت لم اسمع الا الابالاف المولفة من الجبنات
الانكليزية وكذلك لا نرى في بلادنا الا دراهم مضروبة بالبلاد
الاوروبية واغلب معاملة بلادنا بالجنيه الانكليزي والبتو والريال
ابي مدفع وابي طيره والشينكو وكلها مضروبة باوروبا

ولم يضرب بلادنا غير الجنيه والريال المصريين والمجديين
مع عزة وجودها وقلة المعاملة بها فهل اخرجت الارض كوزها
للاوروبا وبين ام تحولت اليهم كنوز كسرى التي كان حازها ام
عثروا على ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد

فقال يعقوب الكلام في هذه المسألة متوقف على مراجعة رسالة
كنت جمعتها فاذا رجعتنا اطلعتكم عليها وفيها بيان ما استخرج من
المعادن في القرون الخالية وما استخرج منها في القرون التالية مما وحدته
في كتب المؤرخين ودفاتر الاحصاء المحفوظة في دفترخانة الحكومة

المسامرة (١٠٧)

الهوام والدواب

فاستحسن الشيخ منه ذلك ثم انهم وصلوا الى الغابة فدخلوها
وطافوا في ارجائها وكان الجو صاحياً والوقت معتدلاً وظل الاشجار
قد رسم على الارض رسوماً يضيء ما بينها من نور الشمس كبساط
مكمل بالجواهر وعلى حسب شكل الارض من انبساط او تكور
مع تقارب الاشجار تباعدها يظهر للظل ضوء حسن وصور اشكال
مختلفة بتغير الواصف في وصفها وكان النسيم يحرك اغصان الاشجار
فياخذ من رطوبتها ويسير على وجه الارض فتتبعش به الأرواح

وينشا عنه الانبساط والانه شرح وبسبب ذلك كان مشيهم على الارض هوناً هيناً وكانوا اذا تعبوا جلسوا على بساط الارض الاخضر وتوسدوا احجاراً ملساء تشبه المرمر فكان الشيخ يعجب من اتساعها وتنوع اشجارها وكان لا يعرف اكثرها ويقف عند كل شجرة تعجبه ويسأل عنها يعقوب فيذكر له ما يعلمه وكثيراً ما كان لا يقدر على وصف اشجار لا يعرف اسمها وكان يجمل من ذلك ويعتذر للشيخ ويقول ايها الاستاذ ارجوك ان تغفر لي ذنب جهلي فان معرفة جميع النبات والاشجار واسماؤها وسمافها وخواصها علم كالبحر بلا ساحل وله رجال مضت اعمارهم في تدوين كتبه وانا لا اشك في ان للخوارج بهذا العلم معرفة تامة فان هذا الفن من ضمن ما يقرأ بالمدارس واما انا فلم ادرسه والذي عرفته منه انما استفدته من المطالعة فقط فكان قليلاً جداً والفضل في ذلك للسائح الذي عطف الله قلبه علي فاني بعد دخول اخي الدير رجعت الى لوندرة فاقمت عنده مدة وسافرت معه اسفاراً في جهات شتى وكان لي بمنزلة الوالد ولعله الرغبة مني في حب الاستفادة كان يعلمني من معلوماته فحسن امري وانطلق لساني وانزته منزلة ابي بل اعظم فمضى علي خمس السنوات التي اقيمتها معه كأنها ساعة من نهار لحسن معاشرته وكنت اود ان اكون بقية عمري في خدمته ولكن الدهر حال بيني وبينه وبعد ان كنت مؤملاً ان لا افارقه قطع املي وهدم من معيشتنا لذاتها

فناجأه هادم اللذات ومفرق الجماعات ففارقني انسي وبالييت
غض الدهر عنا طرفه ولم يتخذ التفريق بين الاحبة حرفة ومذ
حكم الله عليه بالموت وهو بايتاليا تجددت احزاني وهاجت اشباني
ولعبت بي ايدي الحادثات وعرضت لي آفات البليات فاتخذت
صنعة الملاحة وجبت من البحار كل ساحة وطفت جميع البلدان
لاخبر من فيها من السكان فلم اجد بعده بدلاً اركن اليه واعول
في مهاتي عليه فاسأل الله ان يغفر في رحمته ويتجاوز عن سيئاته
ثم هطلت عيناه بالدموع فاخذ الشيخ يهون عليه حتى هدأت
عبراته ثم قال ايها الاستاذ اني لما تذكرت من كان محسناً الي لم
اتمالك من البكاء عليه حيث حرمت من النظر اليه

فقال له الشيخ هذا بعض ما يجب لصاحب المعروف على الحر

البر العطف

ثم ان يعقوب خشي ان يضل عن الطريق فعاد راجعاً الى
مبده فوجدوا ربوة مظلة بالاشجار معشوسية فجلس الشيخ فيها
ليسترح فجعل ابنه يتأمل في جميع اشجارها ويعجب من عظم كل
شجرة ووقف عند شجرة من شجر البلوط قد اخذت غايه الارتفاع
وبجانبا شجرة صغيرة لا ورق نفضونها وعليها دواب صغار
لا تحصى فتأملها فوجدها تاكل من الانصار جلدها والتفت
فوجد من جنسها فوق اغصان اشجار اخرى ووجد بعض تلك
الدواب يمشي على الارض الى اشجار فيصعد عليها فقال ان في

مصر بعض دواب تاكل الزرع الاخضر واخرى تاكل ورق
الشجر وفي بعض السنوات تكثر على اشجار الفاكه فتضرها ضرراً
عظيماً ولكن لا شبهة بينها وبين هذه الدواب

فقال يعقوب ان الهوام المضرّة بالاشجار لا تحصى عدداً وتختلف
انواعها باختلاف انواع الشجر والبقاع وفي بعض السنين تتجاوز
الحد في الكثرة بعض الجهات وتقل في جهة اخرى فمن يدخل
احدى غابات امانيا يسمع لتلك الدواب صوتاً متظماً يحصل من
قرضها غصون الاشجار واوراقها فيخرج غالب الناس اليها
ويتشرون في ارجاء الغابة ويقسمونها بينهم ويضربونها من كل جهة
ولكل فرقة من الناس رئيس ومعهم مزاريق وعصي طوال كانهم
خارجون لمقاتلة الاعداء وفي بعض الجهات يشتغل كثير من
الناس بحفر خنادق عميقة في محاذة الطرق والحدود يمدونها الى
مسافة بعيدة للفصل بين اجزاء الغابة او بينها وبين ما يجاورها
لمنع الدواب عن الاشجار الخالية منها وبالليل يظهر نوع اخر
منها يعرف بمصر بابي الدقيق او الفرش اذا رأى النور اسرع اليه
حتى يحرق نفسه في النار فلاجل قتله يشعل الناس النار في
الاشجار فيرى من يطوف بالغابة في كل قسم شجرة او اكثر
مشتعلة بالنار لها هب ودخان صاعد نحو السماء بحيث تضيء من
كل جهة والدخان متكوّن كالسحاب العظيم فوق الغابة ويقرب
الاشجار اشخاص لتقوية النار وايقاد غيرها اذا اقتضت الحال ذلك

فيكون حال مرعج وبأسف من يراه على اتلاف هذه الاشجار العظيمة وما فيها من الخيرات ولا يسعه الا التفويض لقدرة الحكيم جلّ وعلا فان الاسان لا يدرك الحكمة في تسلط هذه الهوام على اعمال الاسان واتلاف ما به منافعه من هذه الاشجار وغيرها وعلى صغر هذه الهوام واحتقارها بالنسبة للانسان لا يمكنه التخلص من ضررها وفي بعض الاوقات تضطرب اهل البلاد ويخرجون جميعاً رجالاً ونساءً صغاراً وكباراً ويفرقون في ارجاء الغابات ومعهم عصي وحراب وشاميط لقتلها وتارة يجفرون خنادق فتقع هذه الدواب حين عبورها بالخنادق فتكون طبقة عظيمة سمكة فيهلون عليها التراب .

ثم قبض على دابة صغيرة ما على شجر البلوط وقال هذه تاكل خشب الشجر وتدخل فيه وتحفره خطوطاً حتى يتلف كله وتجعل هذه الخطوط التي حفرتها بيوتاً لها بين الخشب والاشر تبيض فيها وتقس ويقال ان الانثى تبيض من خمسين بيضة الى مائة

واغلب هذه الدويبات يكثر ظهورها في فصل الخريف وفي بعض الاوقات يتكون في الجوّ منها طبقات تمتد امتداداً عظيماً في هذه البلاد بحيث تكون كالجراد في بعض الجهات والخنازير تأكل هذه الديدان وتنكب عليها ولذلك هم يستعينون بها على اتلافها فيأتون بالخنازير في شهر اغسطس الذي تنزل فيه الديدان

من فوق الأشجار تسكن جوف الأرض أو تحت الحشائش فيوزعونها
في داخل الغابات فكما نزل دود من فوق الشجر التقطته وإكلته
ومن هذه الهوام صنف صغير الجسم له جناحان عريضان
بالنسبة لجثته يطير بها في بعض الأحيان ويسى بين الأهالي
بخرق الأذن ويزعمون أنه يدخل في أذن الإنسان ويخرقها ويسكن
في الخ كذلك ولكن هذا غير صحيح وإنما سبب هذه التسمية أنه
يوجد في محل الذيل لذلك الصنف شيء كالألة المستعملة في
خرق أذن البنات وهذا الصنف يكره الضوء ويقنات من القواكه
والأزهار كالورد وغيره والآن منه نبيض وتجعل بيضها تحت
ورق الشجر مجتمعا وترقد عليه كما يفعل الدجاج وإذا حصل له
تفرق بعث أحد فيه مثلاً فإنها تنقله إلى محل آخر وتضم بعضه
إلى بعض وترقد عليه إلى أن يقس فيكون أولاً ديداناً صغيرة
جداً لا تعجب ما وراءها فتحنو عليها الأم بالشفقة والتربية إلى أن
تأخذ لونها أسمر فتبقى على هذا اللون وتستغني عن أمها ومنها صنف
يكون عادة فوق غصون الأشجار ويقنات من صيد الدويبات
الصغيرة ولا يضر بالشجر وتميز عن الجراد بطول جسده وعظم
أجنحه وهو بطيء الحركة أخضر اللون مشرب بصفرة يشبه لون غصون
الأشجار التي يعلوها بحيث لا يفرق الناظر بينها وهذه الدواب كثيرة
التحيل فإذا أرادت اقتناص دويبة دنت منها مع السكينة والاحتباس
حتى إذا كان بيها قدر مد ذراعها وثبت عليها وإمسكتها

فتدخل في جسها كثيراً من الشوك الذي يبديها ورجليها فتهلكها
وتأكلها وتعرف بمصر بفرس النبي وتسمى أيضاً المقدسة لأنها ترى
في غالب الأوقات رافعة نصفها الأعلى عن الأرض كهيئة المبتهل
وبعض الناس يقول أنها تهدي المسافر للطريق

ومن الدويات التي تأكل أوراق الشجر دوية طويلة
دقيقة ذات أرجل طوال جداً لا فرق بينها وبين أسود الورق
ولذا لا يميزها الناظر إذا كانت فوقها وهي بطيئة الحركة وإذا أدركتها
الشمس في سيرها وقفت ومدت ذراعها وسبب نخافتها تسميها
الأطفال العصا الماشية أو شعرة الشيطان

ومنها ما يكون له اجنحة يطير بها وتسميه الأهالي في بعض
الجهات الورقة الطائرة

واشنع جمع هذه الدويات الدويات النطاطة ذات الثوب
التي منها جميع اجناس الجراد لها أيد وأرجل طويلة بعظم بها
وثوبها ولها صوت يسمع متى كانت الشمس فوق غصون الأشجار
وتألف الشمس وجاف الأماكن وهي أنواع كثيرة وفي البلاد
الحيلية تجتمع بكثرة في الشقوق التي بها النيات والعشب ولها
نغمة مخصوصة عند طلب الذكر للأنثى أو الأنثى للذكر عند
استغاثتها بذكرها من ذكر اجني يحاولها وتحدث هذه النغمة من
حك أرجلها على ثوبها الذي فوق جسدها وبحسب اختلاف قوة
الاحتكاك تختلف قوة النغم وكلما ارتفعت الشمس فوق الأفق

قوي النغم وكلما مالت للغروب او قدت درجة البرد ضعف
وكثيراً ما تكون هذه الانعام غير مسبوقة لنا وتكون مسبوقة
لجنسها فقط والذي يكون منه - ا - ذا نغم ظاهر بحيث نشعر به لا
يهوى الا البلاد الباردة وعكسه يهوى البلاد الحارة وكل من
نظر الى هذه الدويبات العجيبة الشكل استحسنتها واعجبه شكلها
ولونها الاحمر والازرق وعادة تكون قليلة ولكن لاسباب لا
نعلمها تملأ جوفها من الهواء في بعض الاوقات وتسافر الى البلاد
الشاسعة ويحصل منها ضرر كبير وقد ملئت بذكر مضارها
الصحف في الازمان الماضية والحاضرة وعرف الاقدمون منها نوعين
ينسب اليها تلف اصناف المزروعات احدها وهو الاكبر يعرف
بالجراد السياح ويكون غالباً في السواحل الغربية من افريقية
وفي سواحل الصين وثنائها وهو الاصغر يظهر باوروبا لكنه قليل
وفي امريكا والاورستراي يظهر نوع من الجراد غير كثير الاذى ولا
يكثر نوعه كالبقية والذي بافريقية يتقلب من حين فقسه الى كبره
في خمسة اطوار فالاول بعد خروجه من بيضه بخمسة ايام والثاني
بعد الاول بستة ايام والثالث بعد الثاني بثمانية ايام وفي هذه
الثلاثة يكون بدون اجنحة اصلاً ثم الرابعة بعد الثالثة بسبعة ايام
فتبدو الاجنحة صغيرة والخامسة بعد الرابعة بسبعة عشر يوماً تكون
تامة الاجنحة فتكامل منها القوي بعد خروجها من البيضة بخمسة
واربعين يوماً

المسامرة (١٠٨)

الجراد

فقال الشيخ ان الجراد آفة وانا حل بجهة اهلك المحرث والنسل وقد حل في بعض السنوات بلادنا فاتفق اشياء كثيرة حتى ان الحكومة اخرجت الالهالي لجمعه وجمعت لم جملاً على ذلك فجمعت على كل افة منه قرشاً

فقال يعقوب كتب التاريخ مشحونة بذكر الجراد وما حصل منه من المصائب وهو شالبا يظهر من صحراً بلاد العرب والشار فان الريح المشرقية تأتي به الى افريقية واوروبا وكثيراً ما تكون

سفن السياحين في البحر مغطاة به فيكون فوقها كالسحاب ويكون
متدًا فوق البحر مسافة بعيدة وأكبر مساعد له على السير هو
الريج

وفي سنة الف وسبعمائة وثمانية وأربعين وصلت جيوش
الجراد بلاد الانكليز حتى تعطل جيش شارل الثاني عشر عن
السير بعد كسرتة في بلتاوا من بلاد البسارابي فمن كثافته كالسحابة
لم تتمكن الناس ولا الخيل من السير وقد تغير نور النهار بظلام
شديد

وقد رأى الناس في بلاد الهند وبلاد مبرات سحابة من الجراد
طولها ثمانون مائة وسمكها عدة اقدام وذكر بعض السياحين انه
يكثر بعض جهات افريقية في بعض الاحيان حتى يكون سطح
الارض والانهر مكسواً به بحيث لا يتمكن الانسان من وضع
قدمه على الارض من كثرة الرم

وفي سنة الف وثمانمائة وخمسة وثلاثين اختجب نور الشمس
والقمر عن ارض الصين بسبب سحابة منه حتى اهلك المزروع
ثم اهلك ما في المخازن وملبوسات الخلق داخل بيوتهم ولم يسع
الناس الا الفرار الى رؤوس الجبال

وفي سنة الف وسبعمائة وثمانين نشاء منه فحط عظيم ببلاد
مراكش حتى اكل الاهالي اعواد النبات وجنوره وحب الشعير
الذي في ارواث البهائم وبعير الجبال

وفي آخر سنة الف وثمانمائة وأربعة وستين نزل ببلاد
السينيغال فاهلك جميع محصولها وشوهد منه في البحر سحابة طولها
خمس عشرة ملقة

وفي سنة الف وثمانمائة وخمسة وأربعين حصل بسببه قحط
ببلاد الجزائر وتبعه في عدة سنين قحط عظيم وفي سنة الف
وثمانمائة وأربعة وستين خرج من الصحراء وهجم على البلاد والجزائر
فاكل جميع المحصول حتى لم يبق شيئاً واستعملت جميع الطرق
للتخلص منه ففرقت العساكر مع الأهالي لجمعه ومع ذلك فلم يجد
هذا شيئاً فاكل شجر العنب والتوت والزيتون وغير ذلك حتى
اكل شجرة الدخان ولم تمنعه مرارتها من أكلها ولم يترك جهة من
الأرض إلا وقد غطاها بأحيائه وأمواته فكانت السحابة منه تمتد
نحو ثمانين ملقة وذلك في عموم جهات الولاية

ولاجل التخلص من وباله كان الناس يجتمعون ويصيدونه
بالشباك من الأرض ورووس الأشجار ثم يحرقونه بالنار وأهل
السودان يطردونه بالصوت وأهل هولاندة استعملت المدافع
في إزالته وفي الأزمان القديمة كان اليونان يجعلون على كل شخص
كيلاً مخصوصاً يأتي به منه

وفي سنة الف وثمانمائة وثلاثة عشر ببعض مديريات فرانسوا
جعلت الحكومة لكل من يأتي بكيلو جرام من بيضه نصف فرنك
ولمن يأتي بهذا القدر من الحيوان ربع فرنك

وفي مديرية مرسيليا صرف في جمعه خمسة وعشرون ألف
فرنك وكذا مديرية ارل صرفت مثل ذلك وفي الجزائر جعل
ربع فرنك على جمع كيلوجرام فكانت الناس تأتي بأربعين أو
خمسین جملا محمله منه

وفي بعض البلاد يوكل الجراد بأنواعه وقد جوز موسى عليه
السلام لقومه أكل اجناس أربعة منه واليونان كانت تبيعه
بالاسواق وذكر استرابون الجغرافي ان الحبشة يأكلونه ويجعلونه
من الاطعمة والمغاربة في الجزائر يأكلونه ويسهونه الجراد الغربي
ويكتفون بقطع راسه وجناحيه وارجله الطويلة ثم يملحونه ويأكلونه
والاولاد والساتجعله في خبوط وتبيعه في السوق وهناك بلاد
تقلبه بالزيت واهل هولاندة تاكله ايضا وبعض الناس يزعم ان
الذين يجعلون قوتهم منه لا تتعدى اعمارهم الاربعين وفي راس
الاربعين يتلى جوفهم وحلدهم ديدانا صغيرة تهلكهم وكثير من
الحكام والسياحين يكذبون ذلك

فقال الشيخ في شرتنا يجهز اكله مطلقا فان الشارع نص
على حرمة الميتة الا السمك والجراد وحرمة الدم الا الكبد والطحال
فسيجان من در الاكوان واحسن صنعا فله في تسليط بعض
جنوده على بعض حكم واسرار لا يقف عندها علم البشر فعلى الانسان
التسليم للحكيم العليم

فله في خلفه حكمة تكل البصائر عن دركها

فسلم لربّ الورى حكاه كما تفعل الطير في أيكها



المعاصرة (١٠٩)

نور الغاز

وبينا هم يتجادبون اطراف الحديث اذا بالخواجيا الانكليزي
اقبل فراه ابن الشيخ على بعد ققام ليقابله فالتفت الشيخ فراه
مقبلاً ققام له فلما جلس الخواجيا قال ان بُعدي عنكم هذين اليومين
كغياب عامين وحقكم ما تخلصت من صاحبي الا بعد ان اعتذرت
له بحضوركم ووعدته بالعود اليه مع حضرتكم ولو رأيتم هذا الرجل
ومسكته لانهون عليكم مفارقتة فانه على طريق يمر منه خلق

كثير وحواله بستان عظيم في وسطه عين ماء نابعة من الصخر
 وقربه بلدة لطيفة فيها كثير من الامراء والاعيان يجتمعون كل ليلة
 عند احدهم وهم اناس ظرفاء لا يستوحش انيسهم ولا يلهم جليسهم
 وهذا الرجل على غاية من الرقة والल्प والادب وزوجه
 خير منه

فقال الشيخ نحن ذهبنا عند حضرة الخواجا الطلياني صاحبكم
 وتوجهنا الى البرصة معه وفيها ما يعلق بهذه المصلحة من الامور
 العامة وغيرها وبين لنا الايام التي ترنت عليا في المدرسة المشرقية
 وذكر لنا تشوقه لحضرتكم وراينا منه خلقا حسنا قل ان ترى مثله
 فحصل لنا غايه الانس لولا غيابكم عنا فان يعقوب كان وافيًا بخدمتنا
 قائمًا بما فيه رغبتنا وراحنا لكر غيابكم عنا لكونه غير معتاد لنا اقلتنا
 فاثني عليه الخواجا وقال ما عندكم بعض ما عندي ثم قال اظن
 ان الترحل قد ارف فان الليل قد اقبل ونريد الرجوع قبل
 الظلام

فقال الشيخ نحن حضرنا هنا بعد الظهر وتزمتنا في الغاية لكن
 ما وصلنا الى اخرها لخوف يعقوب الضلال عن الطريق
 فقال الخواجا احسن منتزه هنا هو هذا المكان فانه مرتفع يرى
 منه كثير من ضواحي ناريز ولكن الناس لم يعتادوا التنزه فيه بل
 اعتادوا التنزه في غابة بونونا

فقال الشيخ قد ابيت الى هذا المكان مرتين هذه ومرة قبلها

وفي كل مرة يحدث لي في هذا المكان سرور وشباط لا أجده في غيره لاني متى كنت وسط هذه الاشجار ينجلي لي انها تحدثني بمجاذب الالام الماضية وحين ارى بها الاشجار المختلفة كالبلوط والصنوبر والحمور وغيرها يزداد فلي تعظيما للخالق جل وعلا واجد في نفسي اشراجاً جزيلاً

ثم رأيت في اثناء سيرنا اشجاراً كثيرة الانواع جداً لا ترى ببلادنا فسالت عنها يعقوب فلم يفدني الا عن بعضها فقال الخواجا انواع اشبر والنبات لا تحصى ولكل نوع منها خواص وفوائد ومزايا ولكل نوع منها تربة من الارض تناسبه وتختلف طباعها ايضا في احتياجها الى الماء والهواء والحرارة فبعض الاشجار لا يصلح الا في جهة مخصوصة بهواء مخصوص مثلاً وبعضها يصلح في كل ارض وفي كل هواء فلذا تجد من الانواع ما هو عام في جميع البقاع وهناك انواع لا تثبت الا في الماء ولو انكشفت عنها ماتت وانواع لو مسها الماء هلكت ومنها ما يبقى زمناً طويلاً وما لا يبقى الا اياماً واني وان كنت درست التاريخ الطبيعي الا اني لصغر سني اذذاك وعدم اقتصاري عليه لم انحصل منه الا على بعض جبل والا فله رجال تفرغوا له وافنوا اعمارهم فيه حتى اطلعوا على اسراره فاظهروها للناس فانتفع بها الجمل وتمتعوا التمتع الاعم ولم تتسع دائرة هذا العلم الا في هذا الزمان فبهمة افاضل هذا الزمان استكشفت نباتات كثيرة واستعملت فوائدها في مصالح عمومية وسهل بذلك استنبات

كثير منها في بقاع لم تكن بها من قبل وبعد ان كان نفع نبات
كل جهة منصورياً عليها صار عاماً لها ولغيرها
وستوجه غداً الى جهة النباتات ان لم يطرأ مانع وهناك نطلعكم
علي اجناسها المختلفة فقد اهتمت الحكومة الفرنسية بانشاء هذا
الستان العظيم وجمعت فيه كل ما يحتاج اليه في تسهيل طرق
التعليم والتعلم ان اراد ليطبغوا العلم على العمل فاستحسن الشيخ هذا
الاهتمام من الحكومة فقال الخواجا ولم تقتصر على ذلك بل جمعت
ايضاً من كل نوع وجد على وجه الارض من الحيوانات والطيور
والوحش والحشرات وكذلك من جميع الاحجار والمعادن كل
ذلك ليطبق مدرس التاريخ الطبيعي العلم على العمل فاطرب
الشيخ هذا الصنع واشتدت رغبته في الخروج معه الى تلك الجهة
وفرح ولده بذلك فرحاً شديداً وسأل عن هذا المحل هل هو داخل
باريزام خارجها فقال الخواجا هو في باريز بل قريب من دارنا
وابوابه مفتحة لمن اراد الدخول ثم دخلوا من احد ابواب المدينة
وكان دخولهم بعد الغروب فوجدوا جميع الطرق مضيئة بالمصابيح
الموقدة بها فكان لها منظر حسن يسر الناظر ويشرح الخاطر بسبب
اتظام الطرق واتساع الحارات واصطفاف المصابيح ووضعها على
ابعاد متساوية وكلما انتقلوا الى موضع راوا صورة احسن من
الاولى على حسب تقاطع الطرق والميادين وكثرة الانوار واختلاف
الجهات كالاسواق ومحال التجارة فكان يظهر للشيخ وولده ان المدينة

مزينة لاسباب وقتية لانهم رأوا العربات واصناف الخلق قبل
وتدبر في جميع الطرقات التي مروا بها كما يحصل ذلك بالنهار
سواء بسواء ومن كثرة الضوء واتصاله بضوء النهار تذكر الشيخ
شطربيت فتمثل به وهو

(ويليل الكفر ليس له نهار)

فتبسم الخواجا وقال هذه الكلمة لرفاعه بك احد رجال
المدارس المصرية قالها في رحلته وقد وقع لي منها نسخة
فرايته قد اكثر فيها من مدح باريز واهلها واطنب في وصف
نساءها ورجالها وطاف حول الدن الا انه لم يدندن ورتع حول
ذاك الحمى وحام وما رفع عن وجه ليلي اللثام واطنه لم ياتها من
ابوابها ولا كشف له عند وصفه لها عن تقابها ومع ذلك فجميع ما ذكره
ورآه قد تغير الان ومضى من وقته الى الان نحو ثلاثين سنة وفي
هذه المدة تقدمت العلوم والصنائع تقدماً زائداً وظهر في اعمال الخلق
النتائج المفيدة فصلاح بذلك شأنها واتسعت دائرة ثروتها ففي وقت
رفاعه بك كان الغاز مثلاً مستعملاً الا ان الطرق التي كانت
جارية في استعماله واستخراجه لم تكن كما هي الان وما حصل من
التحسينات والاستكشافات ازال كثيراً من المضرات التي كانت
تحصل للناس من عدم صفائه اذ ذاك وهكذا كل شيء اخذ في
التقدم والتحسين

فقال ابن الشيخ كان يخطر ببالي ان هذه المصايح من الزيت

فأعجب من شدة ضوئها وإتامل في خلال النور لعلني أرى قبيلة
فلا أرى إلا ضوءاً يلعب ونوراً يسطع

فقال الخواجا ليس الأمر كما تظن لأن الغاز ليس زهياً من
الزيوت بل هو مادة أخف من الهواء ولا لون له وهو عبارة عن
أدروجين وكربون ويسميه الكيماويون بالأدروجين المكربن وله
معامل يدبرونه فيها ولم طرق لتوزيعه داخل البيوت وفي الطرقات
فيجعلون له وإبوراً له مجاراً تحت الأرض من مواسير الرصاص
ونحوه فيوزع إلى الجهات بثمن معين وتلك العبد التي تراها قائمة
على الطرق مجرّفة وتجويفها متصل بالماسورة التي تحت الأرض في
محور الطريق وتلك الماسورة متصلة بذلك المحل الذي يدبر فيه
الغاز فإذا دخل الليل مرت الخدّمة على تلك العبد وبايديهم
شعل من نار فيفتحون الحنفيات التي بأعلا العبد المحبسة للغاز
فيضعون الشعلة فوق الثقب الموجود في النهاية العليا لتجويف
العبد المغطى بالفانوس فحالا يلتهب الغاز وبضيء فإذا جاء النهار
قطعوا الوارد بقفل الحنفية فيقطع الضوء

فقال ابن الشيخ إن هذا الشيء عجاب ما كان يخطر ببال
أحد من أهل مصر وغاية ما يظن أن الغاز اسم لنوع من
الزيوت يستعمل استعمال الزيوت وحيث أنه هوآء أو شبيه بالهواء
فكيف عرفوا ذلك وانفعلوا به

فقال له الخواجا وكانوا قد قربوا من النزول سأبين لك

بعض ما جعلت بذلك فلما وصلوا الى محل اقامتهم دخل كل مكانه وامر يعقوب الخادم باحضار الاكل فاحضره وكان بالمائدة مصابيح في الحائط مغطاة بالبلور الموشى وعليه رسوم لطيفة وفي تلك المصابيح صور كالشمع الابيض النظيف فكان ابن الشيخ يمعن النظر اليها

فقال الخوارجا لعلك تتعجب من عدم احتراق الشمع الذي تراه فقال نعم لاني من حين جلست الى الان وهو على حاله لم ينقص منه شيء فقال كيف ينقص وهو حجر ابيض من انواع الرخام والمرمر ثم قال ان الناس لما استعملوا الغاز داخل بيوتهم اخترعوا هذه الهيئة تشبهاً للروتق وتقليداً لما كانوا يالفونه من قبل استعمال الشمع فهذه الشموع التي تراها احجار مجوفة والغاز يمر في تحويها وخدمه البيوت يوقدونها كما توقد خدمة الحارات الفوانيس التي تراها وقبل الان بنحو مائتي سنة كانت جميع مدن الديار الاو وياوية كغيرها من مدن الدنيا مظلمة ليلاً من قلة المصابيح وغاية ما هناك انه كان يوجد بعض قناديل على ابواب بعض الحارات متباعدة وكان يتقطع المرور من الطرق بعد نحو ساعتين من الليل فكانت المدن وقتئذ عرضة لامتداد ايدي اهل الخيانة اليها وكثيراً ما كان يقع بها القتل والسلب

ثم في سنة الف وخمسة واربعه وعشرين ميلادية كثر الشر

واربائه وتعددت الحرائق بمدينة باريز فصدرت اوامر الحكومة بالزام
الاهالي تعليق قناديل على ابواب بيوتهم وعلى الشبابيك والطاقت
المطللة على الشوارع واستمر ذلك الى سنة الف وخمسة واربعة
وتسعين نجعل بدل القناديل في الحارات والشوارع فوانيم من
خشب عليها فوانيس بشمع الدهن وصدر الامر بمنع المرور في
الشوارع ليلاً بغير فانوس

ثم في سنة الف وسبعمائة وثمانية وثلاثين صار تنوير الطرق من
الحكومة بعد ان كان على الاهالي وفي سنة الف وسبعمائة وتسعة
وثمانين جعل مكان شمع الدهن زيت ولم تنزل بعض جهات من
اوروبا تستعمله الى الان وكان من المصايح ما يوضع فيه فتيلة
واحدة ومنها ما يوضع فيه اكثر

وقد اخبرنا ما تحرقه الفتيلة الواحدة من الزيت في ظرف
ساعة فوجد ثمانية جرامات ونصف جرام وكان ما بين كل مصباحين
مائة متر فكان النور اذ ذاك قليلاً جداً ولم تحصل الفكرة في
الغاز والتكلم في شأنه الا في سنة الف وستمائة وست وثمانين ميلادية
وسببه ان رجلاً من اهل باريز ادعى ان الغاز المتحصل من المواد
النامية اذا تجميع في ظرف محكم وعرض للهب ائقد واطاء واقام
على دعواه براهين ولكن لم يلتفت احد الى قوله الى ان جاء
ويونا الانكليزي وشرح كيفية استعماله في الاستصباح عوضاً عن
الزيت وكان في سنة الف وسبعمائة وسبعة وسبعين من ذلك العهد

اشتغل الكيماويون وغيرهم بهذه المادة

وفي سنة ١٨٠١ ظهر عالم فرنساوي فاستخرجه من الخشب فضلاً عما يخرج من الخشب من قطران وغيره من المواد وهو الذي بين طريق استخراجها من الفحم الحجري ومن الزيوت والمواد الدسمة وفي سنة الف وثمانمائة وعشرة بمقتضى قرار من البرلمان الانكليزي اذن لجماعة نساوية في الاستصباح في لوندرة بالغاز فاوقدوه فيها وارادت اهل هذه الشركة في سنة الف وثمانمائة وستة عشر ان تلتزم ايقاده في مدينة باريز فلم يجابوا الى ذلك ولم يظهر وجوده فيها الا من ابتداء سنة ١٨٢٩

فقال الشيخ انا الى الان لم نسمع به ببلادنا بل المستعمل بها الى الان الزيوت والشمع في البيوت ويضع ارباب البيوت الشهيرة قناديل على ابوابهم ويندر وجود قديلين او ثلاثة بالحارة الطويلة وكثيراً ما يحصل من الضطية التنبه بوضع قناديل على جميع البيوت فلا يسمع امرها وبهذا يقل المارون جداً بالليل وتخرج اللصوص والاشقياء من اوكارها

فقال الخواجا يوشك ان يستعمل الاستصباح بالغاز بمصر وبغيرها من بلاد المشرق كما هو باوروبا وما ذلك بعزيز انما يقف على تيقظ الحكومة له خصوصاً اذا علمت انه اقل من غيره مصرفاً وثناً واكثر منه نوراً ولعل بسببه تكثر الحركة وتوسع الثروة ويحصل الامان وثقل اللصوص واهل الفساد

وحيث اخذت مصر في التقدم الان وسهل عليها جلب ما يلزم لذلك برآ ومجرأ فعن قريب يحصل ذلك حتى لا يكون بينها وبين البلاد الاور، باوية فرق

فقال الشيخ هل يمكن كل نسان تحصيله لما باستخراج او شراء كالزيوت والشمع قال الخواجا نعم كل انسان يمكنه ذلك اذا عرف طريق تحضيره وتحصل على ادواته واولاته ولكن في ذلك كلفة زائدة ولذا جرت العادة بان يكون ذلك لشركاء مقتدرين يتعهدون به مدة معلومة بامر من الحكومة وتجعل الحكومة لهم قدراً معلوماً على توزيعه في الطرق العامة والخاصة والبيوت وتشرط عليهم شروطاً منها ان يكون تقياً صالحاً للاستعمال وان لا ينشأ عنه ضرر بالصحة وجميع اوروبا نستخرجه من فحم الحجر فقط وان كان يمكن استخراج من غيره كالخشب والدهن والزيوت والمواد الراجحية كالصمغ وغير ذلك مما يسيل على بعض الاشجار وطرق تحضيره من الفحم الحجري ان يوضع في اسطوانات من الحديد الزهر طول الواحدة نحو متر ونصف او مترين ولا تملأ الى اخرها بل يبقى منها جزء فارغ ليجمع الغاز فيما بقي منها ثم تسد سداً محكماً ثم توضع في افران مخصوصة لها وبوقد عليها حتى تبلغ من الحرارة الدرجة المطلوبة فينفصل من الفحم بخار فيه الغاز المذكور ومعه غازات اخرى فيصعد في انابيب من الحديد مستديمة البرودة فيصنوف من المواد القطرانية الموجودة معه ثم يجعل في صناديق كبيرة

مقسمة الى طبقات بالواح من الصاج وفيها خروق صغيرة وفوقها جير قد طفيء لاجل ان يمر الغاز منها ويتخلص من بعض الغازات المتزجة به ويمروره في حوض الماء الذي فوقه مخزن الغاز المعد للصرف يتخلص من باقي الغازات على قدر الامكان ويكون صالحاً للاستعمال ويسمون الفحم الذي اخذ غازه بالكوك وهو الذي يستعمله الحدادون

والمخزن المذكور عبارة عن ناقوس او اصطوانة من الصاج ذات قعر سعته قدر سعة الحوض وتوضع فيه منكوسة بحيث يكون قعرها الى اعلى الحوض وفيها الى جهة قعره واذا كانت خالية من النار كانت مغهوسة جميعها في الحوض ويكون قعرها مع سطحه مغطى بالماء وكلما دخل فيها النار ترتفع شيئاً فشيئاً ولكن بمقدار متوازن في الصعود والهبوط عند ازدياد الغاز وتقصه بواسطة ائثال بحيث تكون حركاته صعوداً وهبوطاً منتظمة في اتجاه رأسي لا تفارقه وعند مدخل انايب الايراد آلة يقال لها العداد يعرف بها مقدار الحاصل من الغاز كل لحظة وآلة مثلها في مبدأ انايب الصرف يعرف بها قدر المنصرف وهذه الطريقة يمكن معرفة قدر الوارد والمنصرف والباقي في كل لحظة

وقد ذكرت لك فيما مر ان لم في توزيعه في طرقات البلد وشوارعها كيفية حسنة وهي وضع مواسير من الحديد الزهر محكمة تحت الأرض على بعد متر فكثر من ظاهرها وتلك المواسير متصلة

بعضها وكلها متصلة بما سورة يقال لها الام منصلة بمخزن الغاز
ويجعلون في المواسير الموجودة بالحارات امام كل فانوس او فرع
خروفا يخرج منها مواسير رقيقة من الرصاص لتوزيع الغاز
في كل حارة وهناك حنفيات تفتح وتغلق بحيث يمكن منع الغاز عن
جهة مخصوصة او اصاله اليها متى ارادوا

ففي الحقيقة ان استخراجها يحتاج الى احتراسات وعمليات كثيرة
ومصاريف واسعة ومع ذلك لا يصفو بالكلفة بل يبقى فيه رائحة كريهة
وكثيراً ما يحصل في محل ارتباط المواسير المدفونة في الارض
تنفس فيخرج الغاز ويتشرب في الارض ويغوص فيها قدر ثلاثة
امتر فيضر بحياة الاشجار والنبات ويفسد ماء العيون والابار القريبة
وإذا اريد احكام تلك المحلات يرى ان الارض اكتسبت من
رائحة الكريهة وربما بقيت فيها مدة ثقل وتكثر على حسب حال
الارض رطوبة ويوسه واحيانا يمر قريبا من مجاري المرحاض والسراديب
الداخلة في البيوت فاداء تنفس ودخل فيها يستمر حتى يملأ البيوت
من منافذ القصبات وغيرها ثم يصعد الى المساكن فيضر باهلها
وكثيرا ما تكون احكام حنفيات تزرعه في داخل البيوت غير
محمكة السد فلا يمنع منها التنفس ويتشرب في الغرف فيضر باهلها
وند دلت التجربة على ان القنبلة واحدة منه تحرق في الساعة
الواحدة مائة وثمانية وخمسين ليترًا ويلزم لذلك احتراق مائتين
واربعة وثلاثين ليترًا من الاكسوجين اللازم لتقوم حياة الاتس

ويحصل من ذلك مائة وثمانية وعشرون ليترًا من حمض الكربون
المضر بالصحة فان كانت الفتيلة في مكان لا يصل اليه الهواء فلا
يمضي الا قليل وقد وصل اليها هواء ردي يحصل منه ما يحصل
من دخان الفحم من الاختناق والتملل والامراض الصدرية فلذلك
كان الاحسن ان لا يستعمل في داخل البيوت الضيقة ولا بماكن
الجلوس والنوم بل يستعمل في البساتين والاماكن الكثيرة الهواء
وقد استدلووا بالتجربة على انه متى اخلطت الغاز بالهواء بنسبة
معلومة وكان في المكان جسم ملتهب كشمعة او غيرها فلا بد ان
يحصل في الهواء التهاب ويكون له دوي وقرعة شديدة يخشى
منه الضرر على من كان قريبًا منه لكن محل حصول ذلك منه
اذا زاد الهواء عن الناز اكثر من احدى عشر مرة ونصف فلو
فرض ان حجمًا من الغاز اخلط بقدره خمس مرات من الهواء او
سنا او سبعمًا الى احدى عشر مرة ونصف فلا يخشى منه ولا ينشاء
عنه هذا الالتهاب ومتى زاد عن ذلك ولو قليلاً التهاب فالاقامة
في مثل هذا المكان خطيرة لان زيادة الهواء غير مأمونة فيكون
الضرر غير مأمون فيلزم الانسان اذا احس برائحته في غرفته
وكان بها قنديل او شمعة ان يطعمها كذلك الاجسام المتقدة كالمنقد
ونحوه وكذلك لا ينبغي الدخول في مكان احس برائحته فيه
ثم قال وكان عدد النباتات في مدينة باريز سنة الف وثمانمائة
وثمانية واربعين ثلاثة عشر الف وسبعمائة واحدى وسبعين لنبه

صرف عليها نحو اربعة واربعين الف جنيه

وفي سنة الف وثمانمائة وخمسة وخمسين بلغ عدد الشركات
 المتعده في المدينة ثمانية ومقدار المنصرف في المعامل والالات اعني
 رأس مال هذه الشركات قريبا من مائة وعشرين الف جنيه
 وكانت ثمن المتر المكعب سبعة عشر سنتيا بالنسبة لما تأخذه
 الحكومة وبالنسبة للاهالي ثلاثين ومدة الالتزام خمسون سنة وبلغ
 مقدار المحرق من الغاز في سنة ١٨٧٧ قريبا من ثلاثة وخمسين مليون
 متر مكعب واحترق فيها مليونان وستائة الف وكسور هيكوليتر
 من فحم الحجر وبلغت قيمة ذلك ستة ملايين ومائة الف فرنك
 فقال ابن الشيخ قد خرجت مع يعقوب منذ يومين فصادف
 وقت دخولنا ان البواب كان يتشاجر مع زوجته بسبب ان هرّتها
 قلبت زجاجة ففاحت منها رائحة كريهة فشمناها فسألت يعقوب
 فقال هي رائحة زيت معدني فلم افهم معنى هذه العبارة لاني لم
 اسمع بزيت معدني الا منه والذي اعرفه هو الزيوت المستخرجة
 من النباتات والابزار والفواكه

فقال الخواجا استعمل بعض الناس من عهد قريب في
 المنازل والورش والفوريقات ونحوها زيوتا اتخذوها من خلط
 الغاز بزيوت النباتات بكيفية وتدبير مخصوص واستعملوا ايضا
 زيوتا متخذة من الغاز والنفط

وحيث كانت هذه المواد كلها خارجة من جوف الارض من

بقاع معلومة سميت زيتاً معدنية والنبات والمسارج المستعملة لها
ليست مثل المستعملة للزيوت النباتية بل تختلف في التركيب والقصد
من ذلك كله تميم حرق الابخرة الحاصلة من تلك المواد
ويوجد ايضا زيوت مدسرة من خلط زيت الترابتين او النفط
او الغاز بالكؤل او غيره مثل زيت الخشب او الغاز المائع وها
قناديل مخصوصة بحيث لا يستصح به الا فيها ولكن لكون جميع
هذه الزيوت سريعة التبخر والتطاير وبادني شرارة تلتهب بسرعة
كان استعمالها لا يخلو من الضرر وكثيراً ما حصل بسببها حرائق
كبيرة وها روائح كريهة ولا تزول من الارض التي تصيبها الا
بعد زمن طويل فتلك الاسباب استدلو على ان استعمال هذه
الزيوت كما هي من غير خلط اوفق واخترعوا للاستصباح بها
قناديل جربوها فيها فوجدوها محصلة للغرض المطلوب ومع ذلك
فيلزم تمام التحفظ والاحتراز في نقل تلك المواد من مكان الى اخر
وفي حال استعمالها

وبسبب رخص سعرها وشدة ضوئها صارت هي المستعملة
الآن سيما في جهة الارياف فاستعملها الغني والفقير حتى بلغ قدر
المستخرج منه سنة الف وثمانائة وثمانية وخمسين الفين وخمسة
وعشرين مليوناً من الليرات وقد حفر ما عدا الآبار التي كانت
يستخرج منها مائتان وخمسون بئراً واذا نجحت التجارب في زقود
الواهورات بها بدل الفحم الحجري عمت فائدتها واتسعت دائرتها

وانتشرت في جميع البقاع

وقد اخترعوا اليوم اختراعاً جديداً وهو انهم استعملوا قنديلاً لطيفاً مستوفياً لجميع اللوازم الا انه لا قبيلة فيه بل يكتفى عن القبيلة بوضع جسم فيه ذي مسام كتقطعة فحم او اسفنجة تنفس في الغاز المعدني وتوضع فيه فبدلاً عن احتراق الزيت الذي يتصاعد منه الدخان والروائح الكريهة يكون الاحتراق للغاز الحاصل من هذه الزيوت فانه يمرور الهواء عليه يتشرب من الابخرة فتصل الى المسرحة فتلتهب الشعلة وتضيء مثل الغاز المستعمل الى ان ينتهي والغاز الذي يكون في القنديل مركب من تسعين جزءاً من الهواء وعشرة من الغاز ومع ذلك لو ارد استعماله في طبقات المنزل جميعها لا خير فيه ويكفي لتوصيله ماسورة واحدة وبذلك امتنعت اسباب الضرر وسهل على كل انسان الحصول على الغاز بثمن قليل

فانظر كيف كانت ثمرات ابحاث العلماء والكياو بين قد حصل منها فوائد جمة اتفقت بها الناس عموماً وذلك من المادة النفطية على اني لم اذكر لحضرتك جميع الامور والصنائع التي تدخلها هذه المادة لان شرح ذلك بطول فعلى جميع النوع البشري ان يرفع اكف الصراعة بطاب زياد عدد هؤلاء الداياء حيث تنج من اعمالهم الخيرية تمتع القدير بالنور الذي كان محروماً منه قبل ذلك الاختراع الذي بواسطته اتسعت دائرة المعلومات

فقال الشيخ كم لله من فواضل وفضائل وكم ادرك المتأخرون

ما لم تدركه الاوائل فمن جد وجد ومن لج ولج وقد استحو

الفرنج الثناء الجميل وادركوا المجد الاثيل حيث نالوا من التقدم

ما نالوا وان كان يؤثر عن المتقدمين ما يقرب من ذلك فقد كانت

العرب في حربهم تدبر من النفط ناراً ترسلها الى العدو بكيفيات

مختلفة منها ما كان يسبح فوق الماء حتى يصل مراكب العدو فيحرقها

ومنها ما كان يصعد في الجو ويسقط في اوقات معلومة على اماكن

معلومة وغير ذلك مما هو مذكور في كتب مطولة

ومن معرفتهم لهذه الكيفيات وجهل العدو بها كان الفرنج

يهابونهم في حروبهم وكثيراً ما انهزموا منهم كما حصل في حرب

الصليب وغيرها

المعامرة (١١٠)

السلف، والخلف في الاسلام

ولكن لا يدري الان كيف تسمى العرب هذه المعارف بالكلية
وهجروا استعمالها في بلادهم بعد ان علموا فائدتها في حروبهم حتى
علمها الفرنج وتفتنوا فيها وقد قالوا انا ظهر السبب بطل العجب فليت
شعري ما سبب هجرها في بلاد العرب فان قلنا ان السبب بلادتهم
وقصور عقولهم فهم ليسوا كذلك فانهم فرسان الفصاحة واخوان
البراعة والسماحة وان قلنا تغير طبيعة ارضهم وهوائها فما على حالها
لم يتغيرا وان قلنا تغير قوانينهم وعاداتهم فهي على ما كانت عليه لم
يتغير منها شيء وايضا فان الارض لم تجعل شيء كانت تجود به من
قبل وكذلك الشمس في غروبها وطلوعها لم تتحول قط عن

مستورها وأكثراً إذا جازنا في أرواح هذه الأمة وما حصل لها خلفاً وسلفاً
وما أحدثه خلف بعد مضي السلف وجدنا السبب إنما هو ما صار
عليه الأئمة من خلف هذه الأمة فانهم تركوا ما كان عليه السلف
من النظر في مصالح الأمة والسعي فيها فيه نفعها فنبذوا ذلك كله
وراء ظهورهم وأتبعوا الشبهوات وإنما هو نواجيات وحملوا الناس
ما لا يطبقون وشغلواهم بتخصيل ما يشتهون فان الأئمة للرعايا
كالرأس للجسد أو كالقلب بالنسبة للجوارح إذا صلح صلحت وإذا
فسد فسدت وقد كان السلف صارفين انظارهم نحو مصالح العباد
العمومية فكانوا يتقدمون بهم في اقوالهم وافعالهم وكذلك الفرع لما كان
رؤساً واهم بتلك الصفة ظهرت فيهم العلوم والصنائع وسرت منهم
الى غيرهم حتى غمّت سائر المواضع

فقال الخواجه ان من نفع سر المنة بين من علماء ملتكم واخبار
الماضين من ائمتكم رأي. ان المسلمين كانوا في صدر الاسلام لا قصد
لم الا نصرة الدين واعلاء كلمة الايمان وكان لا يتولى الحكم بين
الناس الا العالم بالاحكام الشرعية

فقال الشيخ قد ورد في الحديث خيركم قرني ثم الذين يلونهم
ثم الذين يلونهم فكل قرن شر ما قبله وخير ما بعده وفي صدر
الاسلام كان تعظيم العلم واهله امراً لازماً اذ كانت الاحكام الشرعية
بين الكافة هي المظور اليها ولا معول فيها قلب وجل الاعايبها
فكان العلماء في الحقيقة هم اولوا الامر الذين اوجب الله طاعتهم

واعلى في الخاقين رايهم

وبسبب ما كان لاهل العلم من الشرف والاحترام بين
الخاص والعام رغب الناس في تحصيله وجدوا السير في سبيله
حتى اتسعت دوائره وعلت في جميع البقاع منابره واستنارت به
بصائر العباد وانصلح به امر المعاش والمعاد اذ بكثرت لم يكن قاصراً
على الاحكام الشرعية والفنون العربية بل تعدى ذلك الى جميع
ما تلزم معرفته لعموم مصالح العباد وعمار الاقطار والبلاد فقد بذل
العلماء مجهوداً في كل علم والفنون اسفار الكتب في فنون شتى ففضلاً
عن المؤلفات التي لا تدخل تحت المحصر في الاحكام الشرعية تجد
مؤلفات كثيرة في فن الفلاحة والملاحة والتاريخ والتجارة والعمارة
والصنائع المتنوعة والطب والحكمة والفلسفة والرياضة وغير ذلك
ما يستعين به العالم ويهتدي به الجاهل فكان العلماء بين الناس
كالاهلة في السماء تبعث انوارها على سائر ارجائها وبسبب ذلك
تألفت الطبائع في جميع البقاع فزادت قوة الامة وقويت شوكتها
وكان ذلك سبباً في سعادتها واتساع دائمة ثروتها وما سبب ذلك
الا بناء الاحكام احكامهم على سنن الشريعة وسلامة بواطنهم من
الاغراض الفاسدة فلم يكن همهم الا السعي في المصالح العمومية
واجتماع الكلمة الاسلامية وبماسار الاحكام في غير هذا المنهاج وسلكوا
شيئاً فشيئاً طريق الاعوجاج وصار اكبر همهم تحصيل اغراضهم
الفاسدة وحادوا عن احكام الشرع الى شهواتهم تصرمت اسباب

الائتلاف بين الامة وتفرقت طبقاتهم بفرق قلوب الائمة فسار كل فريق على حدته وترك كل منهم موجبات ثروته فاوجب ذلك فقر الجميع وضعفهم وبما داخل كبراهم من الطمع حصل بينهم التباغض والعدوان وكثر التحاسد والحمرمان وظهر ان ذاك التمدن الاسلامي الجديد. واظن ان ابتداء ظهوره كان في زمن العباسيين ويمكن تعيين ابتدائه بخلافة المأمون وذلك انه اكثر من شراء المالك ثم قلدهم المناصب العلية وامرهم على اشراف الامة الاسلامية فكان المالك هم اصحاب المحل والعقد وفي ذلك نوسيد الامراى خير اهله وتوليه السفهاء امور الكرماء فحدث الفور والتباعد بين الناس ثم قويت شوكة المالك حتى تعدوا على الخلافة نفسها فاستوجب ذلك ازلتها وتفرقت الكلمة الاسلامية واختبرت الاحكام الشرعية فاخذ العلم في التقهقر وقل اهل له لقد ما كان له من المزايا واستمر تأخير رجال الفضل من الائمة وتقديمه لا خيرة له بالشرع ولا مدراحوال الامة وتصورا تمدن الاساذمي ذن . . . برته الاصلية فان اصله كان موعسا على العلم والادل الذين هما اكبر دعائم الدين

واما التمدن الذي قام مقامه فاساسه البغي والظلم وقهر العباد فباتمدن الاول كان اجتماع طوائف الامة بالرض والاختيار لما كانت تستمد منه من الفوائد التي تم للجميع والافراد من جليل وخير فكانت الناس منجذبة اليه بالطبع فكان ينمو بالتدرج حتى

كثر العلم والمال وبالتمدن الثاني حصل الفشل والتباغض بينهم
 وصارت الامة على قسمين حاكم ومحكوم فتخصص الاول بالمزايا
 والرتب وتحصيل الاغراض والشهوات وانساق القسم الثاني في
 طريق النذل والقهر وتجرد بالتدرج عن مزايا الشرف حتى كاد
 يلحق بالحيوان البهيمي الذي يتصرف فيه مالكه من غير ان يكون
 له اختيار ولا يشك احد ان ذلك اكبر اسباب التقهقر فستان ما
 بين زمان اقيمت فيه الشعائر واستنارت منه البصائر وكثرت فيه العلوم
 والمعارف وزمان تعطلت فيه الاحكام وتباغض اهل الاسلام
 واندرست فيه العلوم ولم يبق من الاحكام الا الرسوم والكلام في
 هذا المعنى طويل وفتح بابه الان لا يفيد

المسامرة (١١١)

القار

ثم استأذن الخوaja من الشيخ في القيام فاذن له وشيعه ثم رجع وتوضا
وقضى ما عليه نفلاً وفرضاً ولكنه لم يتم تلك الليلة فدخل عليه ولده
فقال يا بني قد سمعت الاقامة هاهنا واودت ان نكون خارج البلد
وقد تكلمت مع الخوaja في هذا الامر فاستحسنه فاذا تقول فقال له
ولده الرأي ما رأيت انما اخشى ان يكون المحل بعيداً فيشق عليكم
الحضور الى الدرس فقال له ان هو الا يوم في الاسبوع ومع ذلك
لم يصرف الخوaja نظره عن هذا المكان بالكيفية فان شئنا اقمتنا هناك
وان شئنا اتينا هنا فقال له ولده متى يكون ذلك فقال لم تنفق
فيه على وقت ويغلب على ظني انه يكون غداً لانا متفقون على ان
نذهب بعد ظهر هذا اليوم الى بستان النبات فرأى ابن الشيخ
الوقت واسعاً فقال لوالده اتأذن لي ان اخرج مع يعقوب الى ان
يجيء الوقت فقال له لا مانع ثم قاما ودخلا مكان المائدة فوجدا

الخواجا في ائظارها فاكلوا جميعا وبعد الاكل اخذ ابن الشيخ بيد
 يعقوب وخرجا ثم انعطفا على غرفة يعقوب وكان في نفس ابن
 الشيخ كلام ما سمعه من الخواجا حين كان يتكلم على الغاز ومواد
 استخراجها وكيفية استصباح به فقال يعقوب خطر بيالي ان اسال
 الخواجا عن الفار الذي تطل به السفن فاني رايت حين كنت بمصر
 ولكني لا اعرف من اي شيء يستخرج ولا من اي جهة يجلب
 فقال يعقوب ان القطران والترابطين مواد راتحجية تستخرج من
 الشجر ما عدا الفار فانه من الارض وهو ثلاثة انواع نوع صلب
 ونوع مائع ونوع بين ذلك فالاول يلين بالحرارة ويناع اذا وصلت
 الحرارة لدرجة الغليان واما الاخير فيكفي لميوعته ادنى حرارة وتلك
 المادة بانواعها يخرج منها زيت يقال له زيت معدني فاذا تكرر
 تصعيده صار تقيا وصلاح للاستصباح به وما بقي بعد التصعيد تارة
 يكون مادة فحمية وتارة يكون مادة لزجة لينة والثقل النوعي لتلك
 المادة يقرب من ثقل الماء ولذلك اذا اجتمع معه طفا على ظاهره
 او قريبا منه وله رائحة تخصه لا تظهر الا عند العرض على النار
 ومن خواصه انه اذا احرق لا يتخلف له رماد بل تاكله النار
 جميعه والجماد منه لا يدخل الماء في مسامه ولا يفسد خواصه وهذه
 المواد تذوب في الكوئل وزيت التريبتينة ولا تذوب في الماء وزعم
 بعضهم ان هذا المعدن يركني مكون بين طبقات الصخور التي
 تكونت قديما ويكون في الغالب قريبا من معادن الكبريت

والجبس ومنابع المياه الحارة المعدنية وزعم اخرون ان
 اصله حاصل من المواد الفحمية بفعل شديد اثر فيها
 فعزله عنها كما ان اصل الغاز من الفحم الحجري وليس للغار
 بانواعه جهة مخصوصة بل يوجد في جميع بقاع الارض انما
 منه ما يكون على السطح ومنه ما يكون قريباً منه وفي بعض
 الجهات موجود منه طبقة عظيمة المقدار يؤخذ منها من زمن
 مديد الى الان وهي لم تنفذ ولعل له مدداً وان كالا نعرفه وبالجملة
 فانواعه ومواضعه كثيرة وان كان المشهور منه في التجارة ثلاثة
 انواع كما ذكرنا فارالموميا ويقال له فار يهونا او اسفلت وقار
 مالت والزيت الحجري ويقال له باللسان الافرنجي بيترول فالسوع
 الاول جامد بطبيعته واذا كسر كان شبيهاً بالزجاج ولا يذوب
 الا بجمارة شديدة تفوق درجة النليان ويوجد في شواطئ بحر
 لوط اي البحيرة الميتة فاذا صعد من قاعها شيء على سطح الماء
 وتراكم قذف به الريح الى الشاطئ ويكون في اول الامر ليناً ثم يجهد
 بالهول ويجمعه الناس وتجرون به ويخرج ايضاً من جزيرة
 بجزائر اللاتي ولكن ما يستخرج من بحر لوط اجود منه وكان
 قدماء المصريين يستعملونه في حفظ اجسام موتاهم من البلى
 فيغسسون فيه قطعاً من قماش ثم يلفون فيها موتاهم وهذا المعدن
 يوجد ايضاً باوروبا الا انه قليل الاستعمال فيصنعون منه شمعاً
 اسود تختم به ظروف المكاتب وطلاً اسود يسمى باسودالموميا والنوع

الثاني وهو مالت ويقال له الفار الجيلي اسود اللون وليته وصلابته
 على حسب حرارة الجو ولا يجهد الا في اوقات البرد واذا عرض
 لحرارة الشمس لان وامتد على سطح الارض ومتى بلغت
 الحرارة ثمانين درجة صار مائعا وهو كثير الوجود بارض فرانس
 والانكليز وغيرها وقد يخرج في بعض الجهات ثقباً من ثقب
 في الصخر كالعيون فتلقاه الناس بمجاريه وقد يوجد في بعضها
 مختلطا برمل او تراب فاذا اردوا تخليصه قطعوه بارضه ووضعوه
 في قدور مملوءة ماء واوقدوا تحتها حتى تغلي فيرسب ما خالطه
 ويطفو هو فوق الماء فيؤخذ بملاقق ويعمل قوالب كل قالب
 نحو اربع اوقات ثم يضعونه في براميل وهذا النوع يدخل في
 امور كثيرة كاللون والولائش ويطلق به الخشب والحبال التي
 يراد استعمالها في الماء لاجل حفظها وقد كثر استعماله الان حتى
 استعماله في الطرق بحوانب الثوارع بمزجه بحصى ورمل فيتحصل
 به من نسيجه في نسيجه من نسيجه وكذا في برينة
 سطوح لمنارل وظهور التناظر ويبيط لحارات عوضا عن الحجر
 والبلاط فاهم وجدوه في كل ذلك اقل كلفة من التحجير واكثر
 فائدة وقد بلغ ما يستخرج منه الان بارض فرانس في كل عام
 نحو ثلاثة ملايين اقة وقيمة الثامن اقة منه ثرب من نصف
 فرنك واما النوع الثالث هو الزيت الحصري والتمرول وهو
 المسمى بالنفت فهو مائع لزج طيب الرائحة احمر اللون ومعدنه

ببلاد فارس بقرب مدينة باكو وفي ضواحي بحر الخزر وفي بلاد
 ايتاليا في مواضع كثيرة منها وفي جزيرة سيسليا وهي صقلية وفي
 فرانس في موضع واحد بالقرب من قرية جابيو ولذا يسمونه زيت
 جابيو ولا يوجد الا بمجوار المياه المعدنية الحارة وقد يختلط بها
 فيطفو على وجهها كالزيت في الخيضان الطبيعية او الصناعية
 فيجمعونه ويضعونه في الاواني ويتجرون به ويخرج بالقرب من
 قرية ناكه من بلاد الفرس بخار من الارض تستعمله الاهالي

١١

وفي الاستصباح والمشرقيون واهالي ايتاليا وجنوبي فرانس ينسبون
 له خواص طبية فيعملون منه جباير للجروح وللامراض الروماتسية
 وفي الباطن لقتل الديدان وغيرها ولكن بعد تصعيده مع
 الماء والنتج من هذه العملية هو المسمى عند التجار بزيت النفط
 ويدخل ايضا في اشيا كثيرة من الصنائع ولا يفسد بطول المكث
 وله حرارة شديدة وضوء عظيم ويعسر اطفاءه ورائحته كريهة
 ودخانه كثيف واما كيفية الاستصباح به فقد ذكرها الخولجا فلا
 حاجة الى اعادتها

المسامرة (١١٢)

المنتخب

فقال له ابن الشيخ اللذة في التثقل فالى ابن نذهب فقال يعقوب المنتزهات في هذه المدينة كثيرة ولم ترَ الا القليل منها وبيناهما يتشاوران فيما يذهبان اليه منها اذا بالخواججا موريس الذي كانوا بمنزله منذ ايام دخل عابها والتي عليها التحية فرحبا به ثم خص ابن الشيخ بالتحية وسأله عن والده ثم قال له ان حضرة الشيخ وعدني بالزيارة وقد ازداد شوقي اليه فهل يمكن الان الاجتماع به لاسلم عليه فقال له اما شوقك اليه فبعض ما عنده واما مقابلته فهو في خرفته فقال لا بد لي من زيارته لاحظى بمفالكته ومشاهدة طلعتة فاين تذهبان فقال له الى منتزه من منتزهات المدينة

فقال اذا كان مقصود كما ذلك فما انا متوجه الى استبالية لريوزير
لزيرة حكيمها فان شئت اغتبتها فرصة رؤيتها ويكون ذلك داعياً
للاطلاع على المستشفيات الموجودة في مدينة باريز وللمارساتات
بمساعدة حضرة الحكيم صاحبنا

فقال يعقوب هذا الرأي اوفق وواقفه ابن الشيخ فساروا
جميعاً الى ان وصلوا الى باب الاستبالية فشد الخواجا زراً من
النحاس الاصفر مثبتاً في الحائط بقرب الباب فحرك جرساً عند
مجلس البواب فجاء وفتح الباب وادخلهم واجلسهم في محل معد
لذلك ثم قال الخواجا موريس للبواب اريد زيارة الحكيم
واعطاه تذكرته كما هي العادة عندهم فذهب من فوره ثم رجع يقول
ان حضرة الحكيم يتظركم فقاموا جميعاً الى محله فقابلهم من الباب ثم اخذ
بيد الخواجا موريس وسأله عن معرفه بابن الشيخ ويعقوب
فرحب بها وحياتها ثم طلب لهم كرسي وفضة فجلسوا وشربوا وبعد
لحظة قال له موريس نريد ان نرى الاستبالية فقال حياً وكرامة
وقام وادخلهم حوشاً متسعاً مستطيل الشكل فيه شجر قسم تقسماً
حسناً الى ثلاثة بساتين في البستان الوسط منها حوض ماء في
وسطه فواره تقذف الماء الى ارتفاع عظيم فتسمع لها نغمت لطيفة
تشبه نغمت الموسيقى ناشئة عن اخلاط صوت الماء في نزوله في
الحوض مع صوت عبث الرياح بغصون الاشجار وتغريد الاطيار
فقال يعقوب بخيل لي انهم ما اخاروا هذا الموضع الجميل الحسن

ألا لتروج المرضى وتسليه افئدتهم عما بهم من الالام واثار الاستقام
 ورأينا ان من دبت فيهم التقاهة والصحة يمشون بين الأشجار مقبلين
 ومدبرين وحول الحوض مصاطب وكراس يجلسون عليها وفي
 دائر ذلك الحوش عنابر المرضى وعددها ستة في كل عنبر اثنان
 وثلاثون سريراً وفي اخر كل عنبر ادبجانه ومحل للخدمة الذين
 يقومون بمصالح المرضى وبين كل عنبرين فضاءً ظلل بالشجر لاجل
 تنزه المرضى وعدم سريان الامراض من عنبر الى اخر وفي الضلع
 الاصغر من الحوش حمام وكنيسة ومحل لغسل ثياب المرضى وتغسيل
 من يموت منهم وعند باب الدخول محال الحكماء والادارة والكتبخانة
 وغير ذلك فكانوا كلما مروا بعنبر عرفهم الحكميم بمن فيه وبالداء
 وبالدهاء الذي يناسبه

المعامرة (١١٢)

التبغ

وفي جولانهم بين العنابر شاهدوا مريضاً قد اضرناه المرض ونهك
 جسمه وكساه ثوب التحول والصفرة وهو باهت محمر العينين وله
 ائبن وتشنجات شديدة تكاد تفضي به الى العدم ورأوه يكثّر من
 الشاوب والتي فامعن ابن الشيخ النظر اليه ورق لحاله وبعد ان
 طافوا بالمحل كله رجع بهم الحكيم الى محله فلما استقر بهم المجلس
 سال ابن الشيخ عن مرض هذا المريض الذي لم يغرب عن ياله
 لما رأى من سوء حاله فقال الحكيم ان اس مرض هذا الرجل هو
 استعمال الدخان فان له انكباباً زائداً على مضغه فتولد له منه هذا
 الداء العضال

قال ابن الشيخ المحمد لله الذي انعم عليّ بوالدي الذي رباني على عدم استعمال الدخان حتى نشأت على كراهته فلا يطيق ان اشرب منه مصة واحدة فقال الحكيم عهدي بالشرقيين انهم يشربونه ولم يد ولم زائد فقال ابن الشيخ نعم الا ان شربه ليس محبوساً

قال يعقوب رابت في بعض الكتب النهي عن شربه ويقال ان به مادة سمية تضر بالصحة وربما أدت الى الموت فقال الحكيم ان الكياورين بعد امتحانه قالوا ان فيه مادة سمية تسمى التيكوتين وهو مائع لا لون له متى كان في انابيب مقفولة ويحلون باللون السنجابي اذا لامس الهواء ورائحته كريهة وطعمه لذاع ويكون في الدخنة التي يتلعبها الاسان وهي من السميات الشديدة وان قال بعضهم ان هذه المادة انما طرأت له من الاعمال التي تعمل فيه بالمعامل فليس الامر كذلك بل هي من نفس النبات وتلك المادة في دخان النشوق اكثر منها في الدخان المشروب كدخان السجارة والذي اعلمه ان هذه الشجرة وان عم الارض زرعها وكثرت في الممالك ربيعها لم تظهر ببلادنا الا بعد القرن السادس عشر من الميلاد واظن انها كانت موجودة عند امرتيين من قديم الزمان ويؤيد ذلك ما قالوه من ان كرستوف كولب ارسل بنرها من بلاد الامريقا وقت استكشافه لها الى بلاد البرتغال فزرعوه ومن ذلك الوقت صارت تكثر شيئاً فشيئاً الى الان

قال الخوارج مورييس للناس في استعمالها كيفيات منهم من يدقها ويستنشثها ومنهم من يقطع ورقها قطعاً ثم يصفها ومنهم من يفرها ثم يشربها في شبكات ومنهم من يلفها سجاجات ثم يشربها وبالجملة فلو تتبعنا اهل الارض لوجدنا من يتعاطاها اكثر ممن لا يتعاطاها الا ترى اهل اوروبا واكبايم عليها مع انهم لم يعرفوها الا منذ قرنين اي بعد القرن السادس عشر وقبل ان بنرها اهدي الى الملك شركان سنة الف وخمسة وثمانية عشر وانه لم يزرع بارض البرتقال الا سنة الف وخمسة وثمانية وخمسين ولا بارض فرانسا الا سنة الف وخمسة وستين والذي جلبها اليها سفيرها بالبرتقال وذلك ايام الملكة كاترين دوميديسي فلما زرع واهدي منه اليها اشهر واتبعته الخلق واخترعوا له فوائد حتى قالوا انه شفاء من كل داء

قال ابن الشيخ قرأت في بعض التواريخ ان اول دخوله في ارض الدولة العلية كان في سنة الف وستة وخمس للميلاد زمن السلطان احمد القانوني جلبه الفرنج الى القسطنطينية فتعلم الناس شربه وتولعوا به فافتى المفتي بعدم جواز شربه فهاج الناس وماجول ولم يلتفتوا الى الفتوى واستمروا على شربه فلم يشدد عليهم بعد ذلك وفشى امره حتى صار الان يشربه النساء والرجال

وكما تسمى تلك الشجرة الدخان تسمى ايضا التبغ بمشاة فوقية

وموحدة نحية ثم غين معجبة واحفظ لبعضهم بالنسبة لاسم
التبغ شعراً

بدت في ساء الطب نزهة وامق

فدان لها طوعا شعاع الشوارق

فتاء وباء ثم غين هجاؤها

فدونكها نفاة للخلائق

الى ان قال

لها قوة تنفي قوى كل بلغم

وتذهب بالصفراء في لمح بارق

وتذهب اخلاط الدماغ بشمها

وتفتح للسوداء باب الخوائق

وفيها شفاء للسوم جميعها

وافعالها في الهضم فعل الخوارق

وفيها دواء لست احصره

وكم حكمة فيها وكم من مرافق

فقال الحكيم بعد ان سمع ترجمة هذه الابيات قد كاد الناس

يعتقدون في مبدأ امره انه علاج لامراض شتى وليس الامر الان

كذلك فقال موريس ان هذه الشهرة كانت السبب في الاكثار

من زرعه والان صار يزرع كثيراً بمملكة فرنسا ومملكة البرتغال

وبلاد المجر والمانيا والنمسا وبلاد الموسكو وارض مصر والشام

والصين والامريقتين وجزائر كثيرة من جزائر المحيط وقد رأيتهم
حين سياحتي بامريكا الشمالية يتخيرون لزراعته اطيب الارض واقواها
واكثرها زبدًا واكثرها ربا ويسخونه بمقدار وافر من السباخ وفي
بعض الجهات يزرع في الارض التي نزل عنها ماء النهر لانها
تكون مغطاة بطبقة من الطمي نشتمل كثيرا من البوتاص وفي
اخرى يزرع بسفح الجبال في ارض مخصوصة واولان زرعه عندهم
شهر مايو الفرنجي ويزرع من ربا ورشه تارة يكون احمر ورديا وتارة
اخضر وتارة ازرق فاذا بدا صلاحه واصفر ورقه جمعوه شيئا فشيئا
وجففوه بالقائه على الارض مدة ثم يجمع ويكمل تجفيفه تحت سقائف
ثم يربط حزما ويباع بهذه الصورة ورأيت في اطرافه ابراجا وفيها
بذره فاذا نضج وتم صلاحه اخذوه وحفظوه الى اولان زرعه فيبذرونه
في الارض بالنقرة وكية التماوي لكل ثلاثة عشر مترا ملعقة صغيرة
ويصبرون عليه نحو شهرين ثم يلعونه وينقلونه للارض التي تخيروها
له ويسمى المنقول قبل نقله زريعة وبعد نقله بلغة اهل الفلاحة
شلا ومن العادة انه قبل جمعه بستة اسابيع يقشر ورقه القريب
من الارض الى ارتفاع قدم وفي بعض الجهات يصل ارتفاع النبتة
منه الى مترين او قريب من ذلك

ورأيت في بعض اوراق حواث سنة الف وثمانمائة وتسعة

وخمسين ان فرانسوا ارنه شرفوريقه باسم الدخان خاصة موزعة
في مدينة باريس وغيرها وان بها من العباث نحو خمسة عشر الف

نفس وانه يستخرج من تلك الفوريقات في كل سنة من ذلك الصنف ما ينف على ثمانية وعشرين مليوناً من الكيلوجرامات وان ايراد الحكومة من ذلك في تلك السنة نحو مائة وثمانية وسبعين مليوناً من الفرنكات فانظر ما بين وقتنا هذا وبين زمن لويز الثالث عشر الذي منع في ايامه شرب الدخان وبيعه الا للاجراخانات وتوعد كل من باعه لغيرها او شربه بالعقاب الشديد وكان ذلك في سنة الف وستائة وخمس وثلاثين

واما المتحصل منه ببلاد النمسا فيقرب من سبعة وثلاثين مليوناً من الكيلوجرامات وكله يرد الى الحكومة لانها هي المتصرفه فيه دون غيرها كما هو جار ببلاد فرنسا فتشتره من الاهالي بنحو مليون ونصف من الفرنكات وتجمعه في الفوريقات وتصنع به ما يلزم له ثم تبيعه على ذمتها وقد اتسعت زراعته في ارض البروسيا حتى بلغت فوريقاته الان بها نحو سبعمائة وعشر فوريقات وفيها من الشغالة خمسة عشر الف نفس وبلغ قيمة ما يخرج منه كل سنة من بلاد الايتازوني من الامريكا ما تبلغ قيمته نحو مائة مليون وعشرة ملايين من الدولار والدولار عبارة عن خمسة فرنكات وقد احصوا ما يخرج من جميع كرة الارض من هذا الصنف في كل سنة فوجدوه يقرب من اربعمائة وخمسة وتسعين مليوناً من الكيلوجرامات من اسيا مائة وخمسة وتسعون مليوناً ومن اوروبا مائة واربعون ومن امريكا مائة وثلاثون مليوناً ومن افريقيا اثني

عشر مليوناً

وأما الدخان المصري فلا اعرف قدر منحصله فقال ابن الشيخ
هذا النوع يزرع عندنا كثيراً الا ان عوده قصير وورقه صغير
ولا يشربه الا الفقراء ونحوهم من اهل القرى وقد ظهر الان عندنا
نوع يشرب في النرجيلة يسمونه التنيك يقولون ان في شربه فوائد
فقال الخوجا موريس انواع الدخان كثيرة واختلفها
باختلاف البلاد التي تجلب منها فالذي يجلب من بلاد الفلنك
مقبول في النشوق لمرارته والذي يزرع ببلادنا لا حصر لانواعه
فمنه ما يكون ورقه عريضاً ورائحته كرائحة جوز الهند ومنه ما
يكون ورقه طويلاً قليل العرض ورائحته كرائحة النوشادر وهو ما
ينبت في الجهات الشمالية من المملكة ومن الوارد من الجهات الاجنبية
ما يكون له رائحة طيبة مثل دخان هوانا والورجيني وغير ذلك
فقال الحكيم قد كثر كلام الحكماء قديماً وحديثاً في شرب
الدخان فمنهم من يقول بضرره ومنهم من يقول بعدم ضرره
والذي اقول به انه لا يخلو من فائدة وانما يجيء الضرر من
الافراط في تعاطيه

وكيفيات استعماله ثلاث الاولى الاستنشاق به ويحصل منه
تهيج للغشا المخاطي ويكثر افراز المواد المخاطية ويكثر العطاس وربما
حصل من قوة العطاس تمزيق لبعض الاغشية ويحدث رعافاً
ويحول قبة العين والاكثر منه ربما يذهب حاسة الشم ومن

فوائده ان من تعود عليه خف نومه وامن من الصداع ووجع العين والاسنان

الثانية شربه في السجاره يكثر اللعاب ويعقب ذلك التخدير وضعف الهضم وربما حصل منه استفراغ ودوخان فان تركه متعاطيه زال ذلك بعد زمن يسير وان رجع اليه رجع كل ذلك وهناك اشخاص لا يمكنهم تعاطيه اصلاً

ومن المشاهد ان من اكثر منه تشقق سقف حلقه وقال بعضهم ان شربه يورث لنا في الغشا اللعابي في الشفة واللسان واتفاخا خفيفا في الحلق ترشح منه مواد مضرة تهيج طاقات الانف فتارة تسقط في الخنجرة وتارة تخرج من الانف مخاطا قذراً وقال بعض الحكماء ان شربه يوهن في العينين ويهيجها اكثر من تهيجها من دخنته في الخارج ولذلك يرى شارب الدخان غيب قيامه من النوم دامع العينين محبرها ويحس فيها بجمرة والمكثرون منه يحسون بالحم في جباههم والمكثرون من البصاق تضعف عندهم قوة الهضم والتغذي وبعضهم يقول انه يحصل من مائه المخلط بالدخان المبتلع التهاب وتهيج للمعدة وقد شاهدت بعض المرضى لا يستقر الطعام في جوفه وكان ممن ابتلي بشربه فيتعاطى سمجرات كثيرة بعد الاكل فمبينه عنه فبرىء

ومن آفاته عند المكثرين منه تأثيره على الخنجرة والرئتين فينشأ من ذلك غلظ الصوت والسعال وتقص ضربات القلب

وخلل انتظامها وضعف الفكر وارتعاش الأيدي واصفرار اللون
 وسواد الأسنان وزرقة الشفتين وفتور الأعصاب
 والثالثة مضغه وذلك بوضعه تحت الأسنان فيخرج من الضغط
 عليه مادة لذاعة تختلط باللعاب وتدمي اللثة وقال بعض الحكماء
 انه ينقص العقل وليس كذلك وإنما يتخلف من مضغه نكهة
 خفيفة تزول بالمضغ إلا انه يضر باللسان وبالأسنان لاتلافه
 ثوبها الظاهر الحافظ لها ويضر بحاسة الذوق وربما آل الأمر الى
 فقدة وبلع عصارته اشد ضرراً وقد رايت رجلاً من الملاحين
 في الم شديد وتشنجات بعد بلع مضغته وكان يقيء ويشاب كثيراً
 فخلصته من ذلك بعد زمن ولو تتبعنا ما قالوه في الدخان نفعا
 وضرراً لاتسع المجال فمن ذلك انهم يقولون انه يسرع الهضم وانه
 امان من داء الاسكوربوت ووجع الحلق وانه منفسد للعقل ولكن
 ليس ذلك في جميع احواله بل متى كان تعاطيه في الهواء الخالص
 من غير افراط فلا ضرر منه سواء كان شرباً او مضغاً او استنشاقاً
 ومن المعلوم ان استعماله في جميع الجهات وانكباب الناس
 عليه علامة على انه مخفف للهوم والوحشة وانيس في العزلة
 ومساعد على تحمل مشاق الفقر والفاقة فلذا ترى اهل الصحاري
 الواسعة وسكان الجبال الشامخة وارباب الاعمال الشاقة والافكار
 العالية مشتركين في تعاطيه فحبشذ لا يطلق القول بمدحه او ذمه
 ولا عبرة بما قاله الكياويون وبرى المشرقيين لا يفارقون الشبوق

حتى ان الدولة العثمانية وجميع اهل الثروة والرفاهية قد جعلوا له
 غلمانا من خواص خدَمهم وسموهم التنجية نسبة الى التين اسم للدخان
 غير عربي

فقال ابن الشيخ قد يقرب من تايدك في الدخان بيتان احفظها
 لبعض العلماء وقد عيب عليه شرب الدخان قوله
 لقد عبرونا بالدخان وشربه

فقلت دعونا اذ له الامر احوجا

لانا رأينا. المر في قاع صدرنا

كهيئا فدخنا عليه ليخرجا

فقال الحكيم قد اصاب القائل وزيت ان بعض من ابتلي

به من الكياويين استحسن استعماله في الشبكات الطويلة ليقى

النيكوتين في المواضع الباردة من العود بخلاف الشبكات القصيرة

فان تلك المادة تكون قريبة من الفم وكذلك استحسن شربه

جافا ونهى عن استعماله مبتلا قال لان النيكوتين في الحالة

الاولى يجلل بالحرارة بخلاف الحالة الثانية لان الرطوبة تمنع استعماله

فيكون مع البخار ولذا نرى من يشربه يتأثر من المبتل اكثر من

الجاف ثم قال ويجنب تعاطيه على الريق وقيل الأكل ويغسل

الفم بعد شربه اما بالماء الخالص او الممزوج بقليل من

ماء الملكة

وينبغي ان يشرب السجارة ان لا يتجاوز نصفها لان جميع

النيكوتين ينزل الى النصف الثاني ومن اراد ان يشربها بتمامها
فلينخذ له قما من كارم او عظم او عجاج ويتجنب شرب سجارة شرب
بعضها وتركت زمناً وذلك لانه يقال ان مادة النيكوتين فيها
حيثذ كثيرة فكذا تكون في المرة الثانية مرة عن المرة الاولى
وقد ذكرنا ان طوال الشبكات والزرجيلات احسن من
قصارها وارداً الشبكات ما اتخذ من الطين لان تلك المادة اسرع
فيه وصولاً الى الغم منها في غيره

فقال موريس للحكيم انا اكثرنا عليك واشغلناك عن مهاتك
وقد افدت واجدت واني كنت قد وعدت اصحابنا بان اخذ
لم من حضرتكم تذاكر يدخلون بها الاستباليات قمام مسرعا
وانجز وكتب لبعض حكام الاستباليات خطابا اطلب فيه في
الوصاية بهم فاخذوه وقاموا فلما استاذنوا للقيام قال لابن الشيخ
اني وان لم اكن عربيا لكني محب للعرب لاسيما المصريين واود
ان ارى والدك فاثني ابن الشيخ عليه خيرا وشكره على ما استفاده
منه ثم ودعوه وخرجوا فلما استقاموا في الطريق قال ابن الشيخ
ليعقوب ليتنا راينا معامل الدخان فقال له ذلك امر سهل الا
ان الوقت قد ازف فان ميعاد الرجوع قبل الزوال فقال له
وهل سبق لك دخولها قال نعم ولكن في غير هذه البلاد والطرق
كلها واحدة وقد رايت الذين يزرعونه يعتنون به اعتناء زائداً
وبعد جصاده يخلصون ورقه من حطبه ويضمون بعضه الى

بعض بعد جفافه ويضغطونه ضغطاً قوياً ويكبسونه كبساً شديداً ويجعلونه بالات لثلا يكون حجمه كبيراً ثم يبيعونه كذلك او يرسلونه الى الفوريقات ولم فيه هناك ثلاثة اعمال الاول فرز وتنظيفه والثاني تنديته بالماء المالح لاجل تليين الورق وعدم تعفنه والثالث تنقية جذوره وإضلاعه الكبيرة منه والتنديتة تكون في مخازن مبلطة بالحجر ومنقسمة الى اقسام فيوضع الدخان فوقها طبقات قليلة السمك ولم في تنديته حساب على حسب ما يريدون ذلك انهم يسخنون له ماءً مالحة ويجعلون تسخينه درجات بحسب اجناسه فيضعون على كل مائة من دخان النشوق واحداً وعشرين من الماء المالح الذي تكون حرارته في الدرجة الثانية عشرة وعلى كل مائة من دخان المضغ عشرين وعلى كل مائة من دخان السجارة ثمانية وعلى كل مائة من دخان الشرب ثمانية وعشرين من الماء الذي حرارته في سادس درجة

وانواعه من حيث الاستعمال اربعة النشوق والمفروم والمضغ والسجارة فاما دخان السجارة فتستعمل فيه النساف تلب المرأة بين اصابعها الاوراق الصغيرة وتكسيها بورقة خالية من التقطع والجذور واما دخان الشرب فيفرم بالآلة بخارية ثم يجفف بوضعه في صفايح مجوفة ثم يمر عليها بخار حار ثم اقل منه حرارة ثم يجعل ربطاً صغيرة من عشرة كيلو الى خمسة اعشاره واما دخان النشوق فعيلته اصعب لانه يحتاج

الى اخبار النوع الموافق ثم يفرغ ناعما ثم يوضع في مخازن كيانا
ارتفاع كل كوم نحو اربعة امتار وعرضه الف كيلوجرام ويترك
هكذا نحو ثلاثة اشهر الى ان يخبتر وتبلغ درجة حرارته من
ستين الى ثمانين درجة ويتصاعد منه ابخرة شديدة الرائحة غير
معلومة يظن انها نشادرية او نيكوتية وهي المادة السمية التي ذكرها
الحكيم واقواه تخيرا ما كان في الزوايا وتحت السطح الاعلى
بنصف متر واقله تخيرا ما كان على بعد متر من القاعدة ويكون
معدوما في القاعدة وللمجود دخل في تخبيره واستوائه فيتقدم ويتاخر
على حسب درجة الجوح حرارة وبرودة فاذا اشتدت الحرارة في
الكيان جعلت اكوا صغيرة لثلاث تحترق وتثبت حرارته بعد خمسة
اشهر او ستة وبعد ذلك يتقلوه من مواضعه بعامل معتادين
على ذلك لانه يقوم له رائحة كريهة ودخان كثير في ذلك الوقت
وبعد تمام تخبيره يسحق في طواحين مخصوصة ثم يجهر ويسحق
ثانيا وثالثا فيصل الى الدرجة المرغوبة في النعومة ويكون قدر
الرطوبة فيه ثمانية عشر في المائة ثم يوضع في مخازن غير الاولى
ويكبس فيبقى هكذا نحو عشرة اشهر لا يصل اليه هوا فتعود له
الرائحة والدخنة والحرارة فان خيف عليه من تاثير الحرارة تقل الى
مخازن اخرى ولا يخفى ما في هذه الاعمال من الصعوبة على العمال فانه
بسبب نعومته يتلىء منه فراغ المحل فيدخل في العين والاذن
والحلق فيحصل منه لم مضايقات شديدة وغالبا تكون ثقلا

ثلاث مرات وتارة يكتفى بهرتين فيتكون عن ذلك نشوق على درجات مختلفة على حسب اختلاف الرغبة فيه ويقال ان تخميره وتكرار نقله ما يضعف مادته السمية فلا يحصل منه ضرر لشعاطيه وبعد هذه الاعمال كلها ينخل وكان اولاً ينخل بالايدي واما الان فبالآلة بخارية وبعد نخله يخزن في المخازن ثم يعرض للبيع

واما دخان المضع فعمليته اسهل من ذلك وهو جنسان عادي وخصوصي فالاول عبارة عن حبال تفتل من اوراقه بالآلة مخصوصة والدخان المستعمل في ذلك اقل جودة من الخصوصي الذي يتقى من جميع عوارضه ويجعل طبقات هذا اجمال ما يعمل في الدخان وان كان الخبر ليس كالعيان فهل له بمصر شان كما له هنا

فقال ابن الشيخ وما شانه هنا فان غالب الناس بهذه البلاد لا يشربون الا السجارة وقل من يشرب في شبك وان وجد فقصير لا يزيد عن شبر وياليت من خشب بل من طين

والدخان الذي يشرب عندنا يجلب من الشام لا من هنا وهو نوعان صوري وجبلي وهو اطيب نكهة واذكى رائحة من الصوري وان كان الصوري اقوى منه نفساً فمنهم من يشرب كلاً على حدته ومنهم من يفرمها معاً وقد حدث الان نوع يقال له الكوراني يقال انه اقوى من الصوري وهناك دخان يقال له (حسن كيف) ولكن هذا لا يشربه الا حرافيش الناس واسافلهم وهناك نوع يشربونه في النرجيلة يسمونه التنباك وهو نوعان عجيبي

وحجازي ويقولون ان العجبي احسن كيفاً من الحجازي والان شربه
بمصر على حسب درجات الناس رفاهية ورغبة فمنهم من يشرب
في برجيلة محلاة بالذهب والفضة ومنهم من يتخذها مرصعة بالجواهر
ومنهم من يجعل انبوتها من القصب الفارسي ومنهم من يجعل لها
تربيع (لِيا) قد امسك بسلك من نحاس وفي طرفه فم من خشب
او عظم او كارم ومنهم من يكسوه بجوخ ومنهم من يكسوه بحريز
زرکش بذهب او فضة وكذلك الشبكات منهم من يتخذها من ياسمين
ومنهم من شرب في عيدان من كرز ومنهم من يشرب في عيدان
من الجرمشق مكسوة بالحريز او غيره ويتخذون مباسم تسمى تراكيب
منها الكارم الصّرف ومنها الكارم المرصع بالجواهر كالماس ونحوه
ومن المترفين من يكسوها بالحريز المنظوم في اللؤلؤ والمرجان كل
على حسب رغبته ودرجة رفاهيته سواء في ذلك الرجال والنساء
ومن اعتناء المشرقين بشرب الدخان يجعل له بعض الاغنياء
خدّمة خاصين به

فقال يعقوب اظن ان تولع المشرقين بالدخان واعتناهم به
هو السبب الاعظم عندهم في الاكثار من العبيد والخدم والجواري
ولقد طفت البحار وجبت القفار فما اجتمعت بقوم الا
وجدتهم يشربونه او يفضغونه او ينشغونه فما قدر لي ان اتعاطى
شيئاً منه خصوصاً لما رأيته من حال رقتي الذين يعاطونه من
الفاقة وسوء الحال وربما كان بعضهم يبيع ثيابه وبعض ما يحتاج

اليه ويصرف ثمن ذلك على هذه الشجرة فانصحك نصيحة اخ مشفق
ان لا تشربها ولا تعربها

المعامرة (١١٤)

البن

فقال ابن الشيخ اما الان فانا على يقين من كراهتها واما في
المستقبل فلا ادري ما يقدر علي واخشى ان طالت بنا الاقامة
هاهنا ان تغلب الموافقة على الطبع وتقلب المعاشرة الوضع ولقد
اخبرني والدي انه لم يعاط الشوق الا للاستعانة على السهر في
طلب العلم ثم لما تمادى به الحال لم يمكنه تركه وكذلك اليهوة فانه

ايضاً اعتاد شربها وانكبّ عليها انكباً زائداً فكان من شدة حبه لها ونحن بمصر يطلبها قبل النوم ثلاث مرات فضلاً عما كان يشربه طرفي النهار ووسطه وفي كل مرة لا اقل من ثلاثة فناجين او اربعة فقال يعقوب فإله هنا ترك هذه العادة واقلل من شربها فقال سببه رداءة البن هنا وضعف نكهته بخلاف بن مصر فانه جيد مجلوب من اليمن ولا يرد اليها من بلاد الفرنج الا القليل ومن يشتري البن الفرنجي لا يقصد به الا الغش حتى ان من يعرف به من القهوجية عندنا يقف حال بضاعته

فقال يعقوب ان شجرة البن ايضاً عمت بها البلوى في جميع الجهات وصارت من المكيفات التي لا يمكن الاستغناء عنها عند كثير من الناس وقد رأيت في كتب المؤرخين ان هذه الشجرة كانت معروفة عند اليونان والعبرانيين وذكروا انها تنسب الى البلاد الحارة كبلاد الحبشة والعرب وانه لم يظهر استعمالها ببلاد المشرق الا سنة ثمانمائة وخمس وسبعين من الميلاد اي سنة مائتين واثنين وستين من الهجرة وان اول ظهورها كان باليمن ثم ظهرت ببلاد الهند ثم باوروبا ثم بأمريكا ولم تظهر باجاليا الا سنة الف وستائة وخمس واربعين ميلادية وبلوندره الا سنة الف وستائة واثنين وخمسين وبمسيليا الا سنة الف وستائة وواحد وسبعين وبياريز الا في سنة الف وسبعائة وسبع وستين

وفي القرن الثامن عشر ايام الملك لويز الرابع عشر اهدي اليه

شجرة بن من مدينة امستردام فاستنبتها فلما طلعت وازهرت ارسل
 منها الى جزيرة مرتينيك ثلاث شتلات لتزرع هناك فأتت اثنتان
 منها في الطريق وسلت واحدة فغرسوها فلما أثرت اخذوا منها
 وزرعوا فلما أثرت اخذ منها اهل جزيرة جوادلوب وجزيرة سندومنتك
 الى ان ملأت ائجار البن اكثر بلادهم وصارت من انفس تجاراتهم
 ولولا ذلك لعزت حبثها وغلت قيمتها

ولقد رأيت في بعض جرائد الحوادث ان المتحصل منه في
 سنة الف وثمانمائة وخمسة وخمسين مائتان وخمسة وستون مليوناً
 كيلوجراماً

وبيانه من بلاد البريز بلا مائة وثلاثون مليوناً ومن بلاد
 جافا خمسة وخمسون مليوناً

ومن جزيرة سيلان اي سرنديب سبعة عشر مليوناً
 ومن جزيرة هايتي ستة عشر مليوناً ومن جواترا خمسة عشر مليوناً
 ومن كوبا اربعة عشر مليوناً ومن سومترا خمسة ملايين ومن
 كوستاريكا مليونان ونصف مليون ومن جنوب مخا مليونان ونصف
 مليون ومن جزائر اللاتي الانكليزية مليونان ونصف مليون ومن
 جزائر اللاتي الفرنساوية والمولاندية مليون ونصف ومن ماني
 مليون واحد ونصف ومن بلاد افريقيا وغيرها ثلاثة ملايين
 فترى البن اليمني وهو بن مخا قليلاً جداً وهو اطيب انواع البن
 والذها واكثرها مادة

وقد احصى ابن المشروب سنة الف وثمانمائة وسبعة وخمسين
فبلغ ٢٤٠١٨٠٥٥٥ كيلوجراما في بلاد الانكليز والمشروب في
تلك السنة بعينها ببلاد فرانس ٢٧٠٩٨٥٦٠٠ فما بالك بغيرها من
بلاد الدنيا فانك لا تكاد تجد مدينة ولا قرية ولا حلة ولا كرا
ولا عزبة في الدنيا الا ولاهها شغف بشرب القهوة الا انها لا يصلح
لزراعتها ولا نمو شجرتها الا الارض البعيدة عن البحر المحفوظة من
هوائه المعرضة لجهة الشرق التي لا تزيد حرارة جوها على ثلاثين
درجة مئضية ولا تنقص عن عشر درجات وكيفية زراعتها ان
تزرع الشتلة في ارض جيدة اولاً فلا تنبت الا بعد خمسة اسابيع
ثم تنقل بعد سنة او اربعة عشر شهراً فاذا نقلت جعل بين كل
شجرتين ثلاثة امتار ويخالف بين اشجار الصف الاول واشجار
الصف الاخر بحيث تكون شجرة الصف الاول مسامحة للمتصف
بين اشجار الصف الاخر ولا تثمر اشجاره الا بعد ثلاث سنين او اربع
ويلزم لها الاستمرار على الخدمة بالسقي والتنقية فانها تحتاج الى
شرب الماء كثيراً وما دامت مخدومة فلا تزال تثمر الى ثلاثين عاماً
او اربعين وزهرها وان كان لا يتقطع في اكثر السنة الا ان المعول
عليه زهر فصلي الربيع والخريف ولا ينضج الحب الا بعد سقوط
الزهر باربعة اشهر فاذا نضج جمع بالايدي وفي بلاد العرب من
يفرش له تحت الشجرة ثيابا او حصراً ثم يهزها فيسقط منها على الفرش
ما طاب فيجمعونه ويقهون وتجفيفه في الشمس وله مدقات من

خشب او حجر فاذا جف دقوه بها فيخرج من جوزه ثم ينشرونه في الشمس ثانياً وهناك من يستعين على فصله من جوزه بالماء فيضعه فيه يوماً وليلة او يومين وليلتين ومنهم من يدشه بالرحى وبعد ذلك كله يجففونه ثم يضعونه في طرود وزنايل يجعلونها متباعدة غير متجاورة لئلا يعفن البن بتجاوره فتقل جودته وتخبث نكهته وكذلك يفعلون في نقله الى الجهات والاقطار البعيدة

واما تحبيصه وسحقه ووضعته في الماء او صب الماء عليه وغليه بالنار عند ارادة شربه فمعلوم عند كل من يعاطاه كل على حسب رغبته فمنهم من يبالغ في تحبيصه ومنهم من لا يبالغ ومنهم من يسحقه في مسحن من فخار باآلة من خشب ومنهم من يدقه بمدقة من حديد ومنهم من يطحنه بيده في طاحونة ويغير طعم القهوة ولذتها تبعاً لطرق التحبيص والعلامات الدالة على جودة استواء تحبيصه هي نقص الرائحة التي تظهر في مبدأ التحبيص ونداءة الحب ولعانه وميله الى لون بين السواد والحبرة وبالتجربة علم ان الحبة بعد السواء يزيد حجمها بقدر الثلث وينقص وزنها بقدر الخمس واذا بلغت استواءها وسحقت في الحال صارت القهوة جيدة وكلما تأخرت نقص ذلك منها واذا مكث البن زمناً في المخازن ضاع كثير من مزاياه وبن مخا تضع اكثر خواصه بعد سنتين واما غيره فينبغي ان يكون مكثه في المخازن سنة فان اقام اقل من ذلك كانت قهوته شديدة المرارة كريهة الرائحة وان بقي اكثر من ذلك كانت

اشهى واجود وما يلزم التنبيه عليه انه ينبغي سرعة تبريد البن بعد
التحصيص بان يفرغ دفعة واحدة على رخامة وما اشبهها وذلك
لاجل ان لا يتجزأ مقدار كبير من الدهن الذي هو السبب في جودته
ولذته وكذلك لا يصب الماء المغلي على المسحوق منه لئلا يصعد
كثير من بخار القهوة وتضيق اكثر مزايها وللناس كلام في شرب
القهوة فمنهم من ذمها ومنهم من مدحها والانصاف التفصيل بحمل
كلام من ذمها على الاكثر منها وكلام من مدحها على التقليل
قال ابن الشيخ واختلف فيها ايضا علماء الشريعة الاسلامية
بالجواز وعدمه والحق انها يعترضها الاحكام بحسب ما يترتب عليها

المسامرة (١١٥)

الانهر

ثم انها تذكر الوقت المقدر لها فكراً راجعين فلما دخلا على
الشيخ والانكليزي قال لها الخواجا لقد تجاوزتما الوقت المقدر لكما

فما ابطاء كما فاخبراه بتقابلها مع الخوارجا موريس وما صنعه معها من
توجهه معها الى الحكيم واخذ منه خطابا لحكام الاستباليات فقال
لها الخوارجا قد اصبتما وفعلتما فعل العقلاء ونحن الان متوجهون
الى بستان النبات ثم امر بالعربة فركبوا جميعا الى ان وصلوا الى
قصر الملك فقال الخوارجا للشيخ ها هنا طريقان احدهما من وسط
البلد من الحارات والاخر على شاطئ النهر ولكل مزية فايها احب
اليك فقال الشيخ اظن ان الذهب على شاطئ النهر اشرح للصدر
واجلي للبصر فاشار الى السائق بتوجيه العربة اليه وكان بالطريق
قنطرة فلما جاورها عدل بالعربة الى الشاطئ وقال الانكليزي
ان البلدة التي سنسكنها هي بشاطئ النهر وبعدها من باريز يوم
في البحر ونصف ساعة بسكة الحديد فخير الخوارجا الشيخ بين النزول
في البحر وركوب سكة الحديد فاختر طريق البحر لما فيها من
الاطلاع على الفوائد الجمة بخلاف سكة الحديد فلا يطلع معها
على شيء فركبوا البحر في مركب تسر الناظر وتشرح الخاطر ثم ان
الشيخ كلما التفت يمينا رأى منازل مشيدة وتحتها دكاكين وخانات
منظمة ملئت باصناف البضاعة وكلما التفت يسارا نحو النهر رأى
اناسا كثيرين ما بين بائع كتب واوراق حوادث وبائع لعب
اطفال ودفاتر سجارة وما يشبه ذلك منهم من وضع بضاعه على
الارض ومنهم من هيا لها دكاكين من خشب واذا نظر الى البحر
لا يرى الا مراكب صادرة وواردة لا يرى الماء من خلالها لكثرتها

فقال كنت وأنا بمصر اذا رأيت المراكب التي علي سواحلها اعجب من كثرتها والان لا اعدھا شيئاً بالنسبة لما اراه هنا فقال الخوارجا ومع ذلك ما تراه ليس شيئاً بالنسبة لما يرد ويصدر بسكة الحديد وذلك لان باريز صارت الان مخزناً عاماً لكل ما يلزم لسائر الجهات

فقال الشيخ وهل بفرانسا نهر غير هذا فقال انهاها كثيرة احدها نهر السين وهو هذا وليس هو معدوداً من الانهر الكبيرة وبها نهر يسمى نهر اللوار يخرج من جبال يقال لها جريدجون مرتفعة عن سطح المالح بقدر الف وخمسمائة واثنين وستين متراً ويسير اولاً من الجنوب الى الشمال بين جبال شامخة كانت قديماً بركانية ويمر على مدن وقرى وقلاع وله فيضان عنيف حتى انه يتسبب عنه في بعض الاحيان خراب البلاد كليل مصر اذا فاض وينصب فيه من جهتيه خلجان كثيرة كلها واردة من الجبال المحدة لواديه وله انعطافات كثيرة ويمر بثانية عشرة مديرية ثم يصب في بحر يقال له البحر الاطلنطي ومن منبعه الى مصبه تسعمائة كيلومتر الصالح للملاحة منها الثلثان وارتفاع منبعه عن سطح المالح ستة وثلاثون الفا واربعمائة متر وليس عميقاً وارض قاعه رملية وجزوه النخط جسوره عالية لوقاية اراضي الزراعة وبها ايضاً نهر يقال له نهر الرين منبعه جبل ساجوتار ومصبه البحر الابيض المتوسط وارتفاع منبعه عن مصبه نحو الف وسبعمائة

واربعة وخمسين متراً واولاً يكون في وادٍ ضيق عميق وتجه بين الشمال الغربي والجنوب الغربي في وسط جبال الالب الشاخنة وفي طول مائة واربعة واربعين الف متر من ابتداء مصبه يكون اللسان المتكلم به على ضفته الشرقية اللسان الالماني وفي الاخرى اللسان الفرنساوي وله انعطافات كثيرة وفي مروره يخترق لسان العظيمة وطولها من الشرق الى الغرب اثنان وسبعون كيلومتراً وعرضها اربعة كيلومترات في اضيق محل منها وفي اوسع محل منها اثني عشر كيلومتراً وارتفاعها فوق سطح المالح اربعمائة متر تقريباً ويفصل ما بين فرنسا واقليم سفول واقليم سويسرا وينصب فيه اربعون نهراً جميعها من الجهة الجنوبية وليس عليه في هذه المسافة مدينة كبيرة سوى مدينة يقال لها لوزان وبعد خروجه من تلك البحيرة عند مدينة جنوه يدخل ارض فرنسا ويأخذ نحو الجنوب ويسير بين الجبال وبعد مسافة كبيرة من سيره يتكون عنه مع نهر اخر يقال له نهر الساوون بحيث جزيرة بها مدينة ليون التي تلي باريز في الشهرة بفرنسا فيكون جانب من تلك المدينة على احد النهرين والجانب الاخر على النهر الاخر وعليها قناطر للمرور وكانت هذه المدينة ايام الرومانيين تحت تسلط الغول وعدد اهلها الان مائة الف وخمسة وستون الف نفس وهي مدينة عظيمة ذات ورش ومعامل خصوصاً للحرير وقد مر عليها من الحوادث الطيبة وضدها ما لم يمر على مدينة غيرها خصوصاً ايام الامم المتبربرة التي

كانت تغلبت على ارض الغول عند تضعف دولة الرومانيين
وعند تقسيم مملكة شارلماني كانت تخضع للملكة البرغوني ولم تدخل
في حكم مملكة فرانسوا الا سنة الف وثلثمائة واثنى عشر ايام الملك
فيليب الملقب بالجميل فلما قامت الفرنسية ارادت الخروج عن
الطاعة فحصرها حتى دخلت تحت طاعتهم وفيها معمل بارود
ومدرسة وورشة للطوبجية وهذا النهر بعد خروجه من المدينة
ينعطف نحو نهر الساوون على زاوية قائمة وبعد ذلك ينعطف
من الشمال الى الجنوب وهو نهر كبير العرض قوي الانحدار لحبسه
بين الجبال التي ترسل له تيارات قوية من السيول فيزيد بها
بغثة وتكبر سرعته وجريانه فيمر بمدن وقرى وحصون كثيرة الى
ان يصل مدينة ارل ثم ينقسم قسمين احدهما يسمى الرون الكبير
يسير الى الجنوب الشرقي والاخر يسمى الرون الصغير يسير الى
الجنوب الغربي ثم ينقسم الكبير قسمين احدهما يسمى الرون العتيق
والاخر يستمر على اسم الرون الكبير ثم ينقسم الرون الصغير قسمين
احدهما يستمر له اسم الرون الصغير والاخر يسمى الرون الميت وجميع
هذه الاقسام تصب في البحر المالح وطول النهر من مبدئه الى
منتهاه ٨٠٠ الف متر منها ما هو صالح لسير السفن وهو خمسمائة
وعشرون الف متر ومنها ما لا يصلح وهو الباقي ولا نعلم باوروبا
نهرًا اقوى منه جريا لكثرة الانهار التي تنصب فيه ويمر من
ارض فرانسوا على تسع عشرة مديرية ونهر الساوون المذكور عبارة

عن احد نهيراته وعليه بلاد ومدن وقلاع وحصون كثيرة كثيرة
 من الانهار وفي ذكرها تطويل على حضرتكم
 واما نهر السين فمنبعه من الكوتدور ومصبه البحر الملح وارتفاع
 منبعه عن مصبه اربعمائة وستة واربعون متراً ويمر من جهة الجنوب
 الشرقي الى الشمال الغربي مستقيماً الى ان يتجاوز مدينة تروى
 فيأخذ من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي وهناك يصلح لسير السفن
 وهو يمر بمدن شهيرة وبلاد كثيرة وارض متسعة الى ان يصل
 باريس ويتجاوزها فيمر بمدينة سانكلو التي فيها منزهات الملوك
 وعلى يساره على بعد ثمانية آلاف متر مدينة ورساي التي كانت
 مقر الملك لويز الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر وهي
 المشهورة بمجاذثة قيام فرانسوا وعلى بعد اربعة الاف متر من جهة
 الغرب مدينة سانسير المشهورة بمدرسة البياده المعدة لتخضير
 ضباط البياده الفرنسية ويمر ايضاً بمدينة ساندنيس المعدة من
 قديم الزمان لدفن ملوك فرانسوا الى الان ومدينة روان التي
 كانت في الزمن القديم مقر حكومة النورمندي وهي من
 المدن الشهيرة وعدد اهلها مائة الف نفس وفيها ورش ومعامل
 وكانت سابقاً من القلاع الحصينة وجميع السفن ترسو عندها ثم
 ينعطف هذا النهر انعطافات كثيرة الى ان ينصب في البحر
 الملح قريباً من مدينة هافر وطوله من مبدئه الى مصبه ستائة
 واربعون الف متراً والقابل لسير السفن منها اربعمائة وثمانون

الف متر وينصب فيه من جانبيه انهار صغيرة فعلم بما ذكر ان
 نهر السين ليس اكبر انهار فرانسوا وان كان اكثر منها نفعا
 لكثرة المدن ذات الصنائع والمعامل والتجارة على شاطئه لاسيما مدينة
 باريس هذا هو سبب شهرته

فقال الشيخ في هذا الاوان يفيض نهر النيل ويروي ارض
 مصر عموما صعيداً وبحيرة وتبتدى زيادته بعد التظنة القبطية ويتم
 ارتفاعه في شهر توت بخلاف باقي الانهر وللليل خواص كثيرة
 منها انه لا يعلم مبداه ومنها ان سيره من الجنوب الى الشمال مع
 ان جميع الانهار تجري من الشرق الى الغرب او بالعكس ومنها
 انه من المخرطوم الى ان ينصب في بحر الروم لا ينصب
 فيه غير نهر ادبرا

وما اختلف به هذا النهر ما ياتي معه من الزبد الذي
 لولاه ما كانت ارض مصر ولا سكنها انسان ولا عاش بها حيوان
 حتى قيل انه اعظم الانهار طولاً وجرياناً واكثرها للارض فائدة ورياً
 وخصباً وطيباً

فقال له الخواجا هناك ما هو اعظم منه طولاً واسرع جرياناً
 لان غاية ما يبلغ طول النيل من مبتدئه الى مصبه تسعمائة
 وسبعون الف متر واكثر اتساعه الف متر ولا تزيد سرعته
 عن اربعة كيلو مترات في الساعة الواحدة وغاية ما يصرف في
 الدقيقة الواحدة تسعة وثلاثون متراً مكعباً وربع متر مع ان

باوروبا نهر فوجيا طوله ثلاثة ملايين وثلاثمائة واربعون الف
 متر ومنافعه ببلاد الروس كثيرة لانه اعظم طريق لنقل تجارتهم
 الداخلة والخارجة من المديرية الى التخت فضلاً عن نقل
 التيل والكتان والحديد والطوب والشاي والمشروبات وكذلك
 نهر الدانوب (الطونة) بالمانيا فان طوله مليونان وسبعائة وخمسون
 الف متر ونهر الدون بالدال المهمة ببلاد روسيا طوله مليون
 وسبعائة وثمانون الف متر ونهر الدنيبر في بلاد الروس ايضا
 طوله مليونان من الامتار ونهر يانج تسي كيانج باسيا طوله
 خمسة ملايين وثلاثمائة وثمانون الف متر ونهر الكنك وطوله
 مليونان واربعائة الف متر وعرضه خمسائة وخمسون متراً وهذا
 النهر اعظم طريق لسير المراكب للتجارة في هذه الجهات وقد
 قدروا عدد الملاحين به فوجدوهم ثلاثمائة الف نفس وقيمة
 ما ينقل منه في السنة الواحدة من البضائع قريب من ثلاثمائة
 مليون من الفرنكات وقد اخذت منه الشركة الانكليزية
 خليجاً كبيراً لاصلاح زرعهم طوله الف واربعائة واثنان وثلاثون
 كيلو متراً

وبافريقيا انهار غير نهر النيل منها السنجال طوله الف ومائة
 وخمسة وعشرون فرسخاً واعظم من ذلك كله انهار امريقا واكبرها
 نهر مسيسيبي فان طوله سبعة ملايين متر وعرضه في اضيق
 طريقه ثلاثمائة متر ويعظم الى ان يبلغ الفاً وخمسمائة بل ٢٥٠٠ متر وعمقه

في بعض المواضع من خمسة عشر متراً الى عشرين ويبلغ في
 بعض الجهات ستين متراً وثمانين ويمر بارض تقرب من مائة
 وثمانين الف فرسخ مربع اي مقدار سعة فرانسوا سبع مرات ويقطع
 في الساعة الواحدة ايام تقصيره اربعة اميال انكليزية وايام زيادته
 بعسر ركوبه لشدة جريه وفي كل مائة متر من طوله يكون
 اتحدار مجراه جزءاً من مائة جزء من المتر واكبر فروع نهر المصوري
 وعرضه من الف متر الى الفين وسرعته في الساعة الواحدة الف
 متر وهناك انهار اخرى منها نهر الاورينوك طوله خمسمائة وخمسة
 وسبعون فرسخاً ونهر البلانا طوله نحو ثمانية فراسخ
 واعظم من جميع ذلك نهر الامزون فانه يجلب الى الملح
 جميع الامطار الواقعة على الوادي المتسع العظيم الذي قدر مساحته
 سبعة ملايين كيلو متر مربع وهو عميق جداً لان المحس الذي
 طوله مائة متر لا يصل الى قاعه وعرضه كبير جداً حتى ان
 اكبر سفن الملح تصعد فيه الى مسافة الف فرسخ وفي جميع هذه
 المسافة لا ترى شواطئه لعظمه وسرعته شديدة يقطع في الساعة
 الواحدة ثمانية الاف متر وما يصرفه في اللحظة الواحدة من الماء
 قدر ما يصرفه ثلاثة الاف نهر مثل نهر السين في تلك اللحظة
 وفي ارض كندا بامريكا نهر سانلوران عرضة عند مصبه عشرون
 الف متر وبعد اربعمائة وخمسين الف متر من المصب يكون
 عرضه اثني عشر الف متر ويخرج منه ثمانية خلجان اكبرها خليج

ويلا ند المار من 'بجيرة ايريه الى بجيرة اوتاريو بعد ان
يجاوز شلالات نياجارا وطول هذا الخليج خمسة واربعون
الف متر وعرضه ايام زيادته مائة متر وايام تقصه تسعة وعشرون
متراً وثلاثا متر وعرض قاعه ثلاثة عشر متراً وثلاثا متر وعليه
سبعة وعشرون هويساً موزع عليها الانحدار الكلي بين البجيرتين
وهو سبعة وعشرون متراً واما من خصوص عظم السرعة والجريان
فليس هناك نهر اعظم من نهر دجلة والاندوس (سيجون)
والدانوب (الطونة)

وفي جميع هذه الانهر تنصب لنهر كثيرة فنهر الدانوب
ينصب فيه مائتا نهر بين صغير وكبير ونهر وولجا ينصب فيه
ثلاثة وثلاثون نهراً وهذه الانهر كلها مع كثرتها وغزارة مائها
واتساعها طولاً وعرضاً ليست شيئاً بالنسبة للبحر الملح فانه
لو فرض جفاف البحر الملح ونضوب الماء عنه وسلطت
عليه جميع انهر الارض فلا ثلاء كما هو الان الا في اربعين
الف سنة

فقال الشيخ قد افدتني في الانهر ما لم يكن يخطر بالبال ولا
كان له في النفس خيال فله درك من حبر خبير وعارف بصير
ولكن مع ذلك فالنيل اعظم الانهار بركة واكثرها فائدة وقد
ورد عندنا في السنة المحمدية والشريعة الاسلامية انه افضل انهار
الدنيا كما قيل في ذلك

وأفضل المياه ماء قد نبع
بين اصابع النبي المتبع

بليه ماء زمزم فالكوثر

فقبل مصر ثم باقي الانهر

ولليل مزايا انفرد بها منها انه يكتفى بسقيه فانه يزرع عليه ثم

لا يسقى الزرع حتى يبلغ منتهاه ولا يعلم ذلك في نهر سواه ويزيد

عند الحاجة وينقص كالعامل المدير الشفوق فياتي الى الارض

في اوان اشتداد الفيض والحرو وپس الهوا وجفاف الارض

فيستقيها ويرطب الهوا وهو موزون على ديار مصر بوزن معلوم

وقدر مرسوم لا يزيد عليه ولا يخرج عنه ولا يطغى على البلاد

بالفساد والانهار تأتي من جهة المشرق الى المغرب وهو ياتي من

جهة الجنوب الى الشمال فيكون فعل الشمس فيه دائما واثرها على

اصلاحه متصلاً وليس في الدنيا نهر يزيد ثم يقف ثم ينقص ثم ينضب على

الترتيب والتدرج غيره وليس في الدنيا نهر يزرع عليه ما يزرع

على النيل ولا يجيء من خراج غلة زرعه ما يجيء من خراج

غلة زرع النيل وهو اخف المياه واحلاها وارواها واعمها نفعا

واكثرها خراجا وبالجملة فبطون الدفاتر مشحونة بمزايا النيل

ومدحه نظماً وثراً قديماً وحديثاً فقال الخواجا نحن لا ننكر فضل

النيل ولا كثرة مزايا ولكن لو تأمل الانسان لوجد ان كل نهر

في الدنيا لا يخلو من خواص ومزايا منها تلطف حرارة الجو

بالنسبة لكمية مجسم الماء الجاري في كل جهة من الدنيا فان كان نهر بعيد العمق جداً اثر ذلك في الجوف فتتص درجة الحرارة في وقت الشتاء تدريجاً ويستحکم البرد الى ان يجهد ماء النهر فان كانت الاقطار متوسطة البرودة في الشتاء بان كانت لا تزيد على ثلاث درجات ونصف مثينية لم يجهد الماء الا اذا بلغت درجة البرودة ثمانى درجات او عشرًا تحت الصفر

واما البلاد الموضوعة في ثمان وخمسين الى ستين درجة من العرض فان بردها يكون شديداً وقت الخريف لتأخر ذوبان الثلج فان كانت الانهار كبيرة العرض والعمق والسرعة تأثر الجوى بها وفي الغالب تتبع الرياح اتجاه الانهر وينبى على ذلك ان اتجاه الابجرة الرديئة تتبع اتجاه الانهر وهذا هو السبب في وجود الحمى عند سكان السواحل والدليل على ذلك المشاهدة فانه في سنة الف وثمانمائة وتسعة عشر ظهرت الحمى في الاندلس وانتشرت حتى سرت الى مدينة سوبل لان نهري سان لوران وجوادي الكبير قد نشرا في داخل المديرية ابجرة السواحل فالانهر وان كانت بمرورها تاخذ عفونة المساكن معها الا انها لفيضاتها وحصول النشع منها وشدة تقصها ورسوب المواد الطينية منها ينشأ عنها مضار كما يحصل من النيل والكبح والمسيبي والامزون فانها بعد نزولها تترك منافع وبركاً فيتولد عنها امراض بسبب الابجرة الرديئة المتصاعدة منها

وقد دلت التجربة على أن طول الإقامة فوق الأنهر التي
 بالبلاد الحارة مضرراً بيناً ودلت التجربة أيضاً على أنه إذا
 مات واحد من خمسة وثلاثين من سياحي البحر الملح يموت
 واحد من ثلاثة من سياحي نهر السنجال بخلاف أهل البلاد
 المعتدلة والباردة

والحكيم التي أودعت في المياه كثيرة لم تقف إلا على بعضها
 وعلى الإنسان أن يبحث عن خواصها وخواص غيرها على
 الامكان فان الرب الخالق لم يخلق شيئاً عبثاً

المسامرة (١١٦)

الاحجار الكريمة

وها نحن قد وصلنا فلندع الكلام في هذا الباب الى وقت
 غير هذا وكانت العربية قد وقفت بهم على باب عظيم مرتفع

فنزولوا واخذ الخواجا بيد الشيخ حتى وصلا حجرة المأمور فلما رآها قام لها واجلسها وامر لها بقهوة ثم اخبره الخواجا عن سبب مجيهم وان القصد الزيارة فرحب بهم وقام معهم واراهم عنابر المعادن واحداً واحداً ثم وقف بهم على طاولة ممرّنة من قوارير وفيها من جميع الاحجار التي يتخلى بها وقال للشيخ ان هذه الاحجار هي مثال الاحجار النفيسة التي يتخلى بها وفي ترتيبنا هنا ان اولها هو حجر الفيروزج وهو نوعان نوع ساوي اللون مركب من اوكسيد الحديد والنفاس والنوع الثاني عظم قد استخرج مع فوسفات الحديد وهو يوجد عروقاً في مادة طفلية في الارض بنواحي نيسابور من بلاد العم والجمهورية والصاغة يؤلفونه مع الماس واللؤلؤ والذهب وحجر العقيق هو هذا الحجر الاحمر اللطيف وهو مركب من ألومين وبعض مواد اخرى ويتنوع لونه فمنه ما يكون احمر يوجد في بلاد البهيم والمجر في الصخور البركانية وله معامل في بلاد المجر والبهيم والتيرول

والزمرذ المشهور ببلاد المشرق وهو مركب من سيليس وألومين وبعض مواد وانواعه كثيرة منها الاخضر الصافي وهو زمرد مصر والبيرو ومنها الاصفر والازرق واعلاها الاخضر وهو المرغوب بمصر وغيرها

واحسن زمردة معلومة الان هي الموجودة في خزانة الامتعة ببلاد الموسكو والزمردة الموجودة في تاج البابا ويوجد الزمرد عادة

مغروساً في الصخر

واما الياقوت فهو هذا الحجر الاصفر وهو حجر زجاجي صلب يوجد في اجواف الصخور وانواعه كثيرة منها الاصفر والساوي ومنها الاحمر القاني البهرماني واعلى انواعه ما يجلب من بلاد الهند وما يرد من السكس ومكسيكو ثم اشار الى حجر ذي اللون متعددة بتعدد طبقاته فقال واما هذا فهو الحجر الياقي والصناع تحال على تعاقب طبقات الوانه فتجعلها في التحضير قائمة او منحنية او غير ذلك ويوجد ذلك بفرانسا والمانيا واحسنه من بلاد العرب

وحجر البشم هذا يستعمل في خواتم وقلائد وبعض حلى واقداح للشرب ونحو ذلك ومحل وجوده الطبقات القديمة التكوين من طبقات الارض

ثم قال واعلى هذه الحجارة حجر الماس وهو حجر زجاجي شفاف مجرد عن اللون له لمعان الماسي وهو سهل الكسر صلب يؤثر في جميع الاحجار ولا تؤثر فيه ولا يجلي الا بمسحوقه وثقله النوعي قدر ثقل الماء ثلاث مرات ونصف مرة ويتركب من كربون اعني فحمًا نقيًا خالصًا واول من ظن فيه قابلية الاحتراق العالم تون ومن بعده سلط عليه بعض الكماويين تيارًا كهربائيًا شديدًا فانحرق وصار فحما كالذي يوقد به ويوجد هذا النوع في بلاد الهند وبريزيليا والسييريا ويوجد بين صحراى الرسوب القديمة

التكوين المتقولة بالمياه ومن مدة ثلاثة قرون صار الحجد في استخراج
من محاجر ويوجد ايضا في نواحي ديكان وجلوكوند وبانجال
وجزيرة بورنيو واستكشافه في بريزيليا كان في القرن السابع
عشر في مديرية ميناسجييري والمستخرج منه غشبا كل سنة في
جميع الجهات يقرب من ستة كيلوغرامات الا انه اذا صفي وتقي لا
يلغ الا نحو مائة وثمانين غراما

وكيفية استخراج البريزيليا ان تفتت الصخرة التي يظن وجوده
فيها ثم تغسل في حوضان ما عمق الماء فيها متر ويجلس الغسال على
حافتها ويده قطعة خشب مجوفة تسع اثنين او ثلاثة من الكيلوغرامات
من الرمل فلا يزال يحركها في الحوض حتى يعثر شيئا منه ومن اعتياد
العبيد على غسله لا يفوت الواحد منهم شيئا منه ولو صغيرا جدا ومن
عادتهم ان كل من وجد شيئا منه ينادي باعلى صوته قائلاً
قدس الله روح المسيح . ثم يسلم ما وجد للملاحظ فان كانت
قطعة كبيرة كافاه عليها وربما اعتقه في نظير ذلك

وقال بعض المؤرخين ان حك الالماس واستعماله قديم
لكن كان على غير قانون من حيث الانتظام والشكل وقال
بعضهم لم يكن ذلك الا من سنة الف واربعائة وستة وسبعين
من الميلاد فان المخترع له رجل من اهل بروج مع ان هذا
الحجر وجد في بركة الدوك دنجو سنة الف وثلثائة وثمانية وستين
محكوكا فلذا حكم بدم طرق حكه

والآلة حكة عبارة عن قرص من الفولاذ اقمي الوضع يتحرك
 بسرعة شديدة وفوق القرص تراب الماس الحاصل من حك
 حجرين منه طبيعيين غير قابلين للتصلب ولهم في ذلك
 طرق والمعلوم الآن ان الماس المستعمل بين الناس على
 هيتين

الاول الشكل المعروف بالروزة ومعناها الوردية
 والثاني المعروف بالبرلاتا فاول وجهه الظاهر هرمي الشكل
 ذو اسطحة مثلثة والوجه الثاني مستو يخفي في مادة التركيب سواء
 كانت من الفضة او الذهب واما النوع الثاني وهو البرلاتا فكلما
 وجهه مسطح الوسط وفي دائر ذلك السطح اسطحة مثلثة او معينة
 والمجموع عبارة عن هرمين ناقصين والعادة ان يبقى مكشوفاً في
 تركيبه مع الفضة او الذهب ويرى من الاعلى كما يرى من الاسفل
 واختلاف قيمته باختلاف مائه وصفائه وكبره وشكله والحجارة
 التي لا تصلح للاستعمال يساوي قيراطها ثلاثين او ستة وثلاثين
 فرنكا وقدر القيراط مائتان وخمسة ونصف من الميليغرام وقيمة
 القيراط المستعمل في الحلّي تساوي ثمانية واربعين فرنكا اي ان
 قيمة الغرام منه تساوي مائتين وثلاثة وثلاثين فرنكا وذلك اذا
 كان وزن الحجر قيراطاً فان زاد وزنه عن ذلك فتقدر القيمة
 بضرب مربع الوزن في ثمانية واربعين واما المصوغ فقيمه
 تابعة لهياته وكبر حجمه كما ذكرنا واكبر حجر منه ما وجد بنجراة

ذخائر فرانساً وكانوا قد عثروا به علي بعد خمسة واربعين
 فرينغاً من جنوبي جلوكند ووزنه غشياً قبل حكه كان اربعمائة قيراط
 وعشرة فراريط واقاموا في حكه ستين وبعد الحك صار مائة
 وسبعة وثلاثين قيراطاً وبلغت قيمته ذلك الحجر ثلاثمائة واثنى
 عشر الفاً وخمسمائة فرنك وصرف عليه في الحك مائة وخمسة وعشرون
 الفاً فاشتراه الدوك دورليان بثلاثة الاف الف وثلاثمائة وخمسة
 وسبعين الف فرنك وهو الان يساوي ثمانية الاف الف
 فرنك

ومن التجارة المشهورة حجر يعرف بالنظام عند ملك جلوكوند
 غشيمه اوزنه ثلاثمائة واربعون قيراطاً وقدروا قيمته خمسة
 ملايين فرنك وفي ذخائر الروسية حجر وزنه مائة وثلاثة وتسعون
 قيراطاً وكان معمولاً عيناً لصنم بمعد براهمة فاخذته احد عسكر
 الفرانساوية وباعه بخمسين الف فرنك ثم صار يتقل من يد الى
 اخرى حتى وقع في يد القراليجة كاترين فاخذته بالف الف ومائتين
 وخمسين الف فرنك

وفي ذخائر انسا حجر وزنه مائة وتسعة وثلاثون قيراطاً
 ونصف قيراط ويقال ان عند ملك البرتغال حجراً قدر بيضة
 الدجاجة وزنه الف وستائة وثمانون قيراطاً ولم يره احد
 من اخبر عنه

ثم دخل بهم عنبر الطير وراهم ما فيه ومنه الى عنبر البشرات

والافاعي ثم الى عنبر الحيوانات الوحشية ثم محل المواد
الكماوية ومنها الى محل الالات وارايم بعض خواصها فكان كل
ما انتقل بهم من مكان الى مكان يرى على الشيخ عدم رغبته في
الانصراف من المكان الاول حتى يستوفي البيان عما فيه الا انه
لضرورة المرافقة كان مجبوراً على الموافقة وكان في جملة ما رآه
في عنبر الافاعي ثعابين (حيات) ممتدة في السقف ففزع منها فزعاً
شديداً ولكنه تجلد حين رآهم لم يكثر ثولها وما رآه في عنبر
الحيوانات الوحشية انواع السباع والضباع والثور والظبا والقردة
والفيلة والزرافة والأيل والحمر والبقر الوحشية وكذلك انواع
الطيور والحيوانات البحرية كالسرفيل وفرس البحر والتماسيح فأول
حولها اطفالاً ترمي لها خبزاً فتجتمع عليه ورأوا حول بيوت القردة
خلقا كثيرين يضحكون على العايبها ثم طاف بهم في البستان واطلعهم
على خواص ما به من نبات وشجر واخبرهم باسم نبات كل بلد
ودرجة حرارتها وما يستخرج منها من الزيوت والادهان العطرية
وغيرها وارايم نباتا مغطى بسقف من زجاج وبين لهم الطرق التي
تزيد في الحرارة وبالجبهة فلم يدع شيئاً بالبستان الا اطلعهم عليه
وذكر لهم ما يعلمه من خواصه ثم رجع بهم الى مكانه وطلب لهم
قهوة فشربوا ثم قال المأمور اريد ان اشرف بمحضرة الشيخ في يوم
غير هذا لاربه ما يجب ان يراه مما لم يره في هذا اليوم فقال
الشيخ لا بد من ذلك لاحظى برويتكم واستفيد من معلوماتكم

فقال الأمر للشيخ إلا أخبرك بأصل هذا المكان قبل أن
يعد لما رآه به من أنواع النبات والحيوان قال نعم فقال أصله كان
فضاء من فضاءات باريز فلما جاء لوز الثالث عشر أصدر أمره
بإنشاء جنينة في خطة من خطط باريز تكون ادارتها ونظارتها
بعده لمن يقوم مقامه من عقبه فأنشأ هذه الجنينة ثم ما زالت تقدم
كل سنة عن السنة التي قبلها إلى أن جاءت سنة الف وستمئة
واثنين وثمانين فجعلها بوفون مؤلف كتاب حياة الحيوان والتاريخ
الطبيعي في هيئة جديدة وقسم طرقها وأحدث فيها مدرسة لتدريس
العلم

تم في سنة الف وسبعمائة واثنين وتسعين عمل لها مجلس الملة
لوائح وقوانين وأمر بنقل جميع الحيوانات التي كانت بويرساي إليها
فازداد بذلك رونقها ومن ذلك العهد لا يمر عليها عام إلا ويجلب
إليها من المستغربات وأنواع الطير والحشرات ما لا يحصى ^{تسمى}

المعامرة (١١٧)

الموآء والمآء

ثم استأذنوا في الانصراف وقاموا فودعهم الى الباب ووقف
 هناك الى ان ركبوا وكانت الشمس قد أذنت بالغروب والسماء
 مطبقة بالسحاب وبعد ان ساروا مسافة قليلة خرجت عليهم ريح
 باردة من جهة الشرق فقال الانكليزي هذه علامة المطر فالاولى
 ان ندخل قهوة نستكن بها حتى يسكن فادخلوا القهوة الا والمطر
 قد نزل كافواه القرب

فقال الشيخ ان اهل مصر الان يشكون من الحر ونحن نشكو
 من البرد فقال الخواجا ذلك ناشىء من اختلاف الاوضاع الجغرافية
 للبلاد ارتفاعا وانخفاضا ففي بعض الجهات المنخفضة قد يشتد

البرد حتى تجهد منه الانهار وتكسى الارض بالثلج وتكثر الامطار
 وربما تستمر اشهرًا وفي تلك المدة يضطراهل تلك الجهات الى الاستمرار
 على ايقاد النار فيكون في كل مكان مقدارا اكثر ويلبسون ثياب
 الثياب كالقرا وانضربات وكما نزل الانسان الى الشمال ازداد
 عليه البرد والثلج وكما سعد قل برده وادرك الحرارة

وشرح تلك المسئلة بحتاج الى مقدمة اقصها عليك اذا اوينا

الى مبيتنا فلما هدا المطر وركبوا الى محل اقامتهم قال الشيخ
 لخواجه انجز لي ما وعدتني فقال اعلم ان الهواء ولو كان في غاية
 من الصفا لا بد ان يجهل معه ابخرة مائة متصاعدة من الانهار
 والبحار والريج توزعها في الجهات فورقة الجو المتد في السماء الى
 ستين الف متر ناشئة من هذا البخار المتصاعد وذلك الجو محيط
 بجميع كرة الارض والمخلوق على اختلاف انواعهم تعيش فيه ومن
 فوائد البخار تلطيف حرارة الجو فيكون الهواء صالحا للاستنشاق
 وكل حين يصاعد من البحار مقدار من البخار لاجل تلك
 الفوائد الجليلة ولولا ذلك لهلك ما على وجه الارض من حيوان
 ونبات وقد غلط من جعل البخار والضباب والسحاب شيئا واحدا
 بل هما متغايران فان البخار عبارة عن غاز يرتفع من الانهار
 والبحار الى الجو بكمية ثقل وتكثر فعلى كل مسودع ماء من نهر
 او بركة وكذا على الثلج ونحوه يتكون البخار فاذا تشبع الجو منه
 تحول بواسطة الهواء الي رطوبة محسوسة ودرجة التشبع تختلف

فله وكثرة باختلاف درجة الحرارة التي في الجو ففي درجة عشرين
 تحت الصفر لا يكون في المتر المكعب من الهواء زيادة عن غرام
 واحد أي ثلث درهم وفي درجة ذوبان الثلج يكون فيه خمسة
 غرامات ومن درجة عشرة إلى ثلاثين تكون غرامات البخار التي
 يتصها الهواء موافقة لأرقام أقسام الترمومتر فان زادت درجة
 الحرارة عن ثلاثين زاد قبول الهواء للبخار فاذا بلغت مائة قبل من
 البخار بقدر حجمه وساوت حينئذ قوة الهواء قوة البخار وبعد ذلك
 تزيد قوة البخار على قوة ضغط الماء فيحصل الغليان في الماء ثم ان
 كمية البخار التي في الجو ولو انها قليلة وتابعة لدرجة الحرارة لكنها
 مع ذلك قد تكثر كمية البخار المتصاعد من احد مائعين متساويين
 في الحرارة عن تصاعدها من الاخر بسبب هبوب الريح على احدها
 دون الاخر او كثرت عليه اكثر من الاخر فكما مر عليه ربح تشبع
 منه وترك مكانه الى غيره وهكذا بخلاف ما اذا كان واقفا او قليلا
 وحينئذ فتصاعد الابخرة وتوزعها في الجهات تابع ايضا لكثرة
 هبوب الرياح ثم ان الهواء يكون فوق سطح البحر متشعبا من البخار
 او قريبا من التشبع وكما تصعد من جهة الاستواء الى جهة الاقطاب
 يأخذ في النقص وكذلك يكون تشبعه في السواحل اقل منه
 فوق البحر وفي داخل الولايات اقل منه في السواحل وذلك
 بحسب توزيع الانهر والمخجان والبرك والجبال والغابات واختلاف
 الرياح واتجاهاتها فمقدار البخار في جو كل بقعة يخالف مقداره

في الاخرى فوق ارض بلاد الانكليز يكون الجو متشعبا بالنجار
او قريبا من ذلك وفوق صحاري آسيا يكون جافا ليس له الا
خمس عشرة جزءا او عشرون جزءا من مائة ما يمكن ان تشربه وعلى
العموم فمقدار النجار في جو الارض القارة ثلاثة اخماس مقدار
التشبع ومع كونه على هذه القلة فوجوده في الجو من اهم المهمات
وبيان ذلك ان الارض تميل الى ضياع ما تشربه من الحرارة
مدة النهار برده ثانيا الى الجو في الليل فاذا ردت التقطته الابخرة
المائية فتزيد حرارة الجو ولاحاطته بكرة الارض احاطة الظرف
بظروفه كان لها كغطاء حافظ لها من البرد ولولا هذا النجار
هلك ما على وجه الارض كما مر وكما جف الجو اشتدت حرارة
الارض ففي النهار توثر اشعة الشمس في الارض فتلبسها حرارة
وفي الليل يبعث من الارض نحو الجو ما كمن فيها من تلك
الحرارة فكما اشتدت درجة الحرارة في النهار في بقعة كان ليها
شديد البرد لان كمية النجار في تلك البقاع تكون قليلة جدا فلا
تمنع الاشعة المتصاعدة من الارض من النفوذ فيها الى جهة السماء
وما سبق يعلم ان النجار المائي ملطف لحرارة الاشعة الشمسية
الساقطة على الارض ويمنعها عن انعكاسها من الارض الى الجو
من ان تصيب في السماء ومن فوائد ذلك حفظ درجة الحرارة
الكافية للحياة

فقال الشيخ لماذا لم يمنع النجار اشعة الشمس الساقطة الى

الأرض ويمنعها اذا كانت منعكسة منها فهلا منعها جميعا او لم يمنع واحداً منها

فقال الخواجا هذا لا يرد الا لو كانا على صفة واحدة اما اذا كانا على صفتين مختلفتين كما هنا فلا وذلك ان الاشعة المنبعثة من الشمس الى الارض حارة مضيئة بخلاف المنعكسة من الارض الى الجو فانها مظلمة خالية من الضوء فلذا كان تشرب البخار للاشعة المنعكسة اكثر من تشربه للاشعة المنبعثة الا ترى انا لو عرضنا لوحا من زجاج الى الشمس لنفذت اشعتها منه سريرا ولا يسخن الا بعد مدة وما ذاك الا لئنه حرارتها دون ضوءها فكذا بخار الماء في الجو فانه يمنع اشعة الشمس المنعكسة من الارض لظلمتها ولا يمنع اشعتها المنبعثة منها لوجود الضوء فيها

ومن الحكمة الالهية والالطاف الربانية وجود البخار في الحق لانه يجعل الدرجة المتوسطة للحرارة في كل بقعة اكثر من حرارة اشعة الشمس وحدها اي بدون بخار الجولا صعوبة في تخليص الهواء من الابخرة المائية المتزجة به فان ذلك يحصل بهيريه كما لو أخذت قلة ماء مثلاً وجعلتها في مكان حار وتركها برهة من الزمن فانك ترى سطحها قد كسى بابخرة كالندى فكذلك يكون الجوا اذا برد الهواء بعد غيبوبة الشمس فان الابخرة المائية تتجمع وتصبح ندى رقيقا ومن تأمل في الخارج من فمه من النفس في وقت البرد رأى بخاراً ظاهراً للعيان وكذا اذا نظر

الى الانجرة المتصاعدة من نسوت الآلات البخارية فانه يرى البخار يرتفع ثم ينزل على الارض في هيئة مطر خفيف هذا ما تيسر ايراده من الكلام على البخار

واما السحاب والضباب فكل منها عبارة عن تجمع كرات صغيرة حاصلة في الجو ولم تنفق لراء الحكماء من الطبيعيين في تلك الكرات على شيء فمنهم من يقول انها هوائية وفي جوفها ماء ومنهم من يقول انها نفسها ماء ثم ان بعض الناس يقول الضباب منافع للصحة ومؤذٍ للاجسام وهذا حق لان الضباب علامة على كثرة الرطوبة في الجو وانها متكونة في هوا ركد قريب من سطح الارض تتجمع فيه الانجرة المتصاعدة من القرى والمدن والمستنقعات واكثر ما يكون الضباب في الليل بسبب برودة الجو وقد يكون فوق المراعي الواسعة بقرب غروب الشمس ومتى صادف تكونه في الجو سقوط ريج باردة من الطبقات العليا من الجو حبسته اياماً واسابيع ومن وقف على مرتفع من الارض رأى الجبال بارزة نافذة من خلاله فيرى السماء صافية لخلو الجهة العليا منه

واما السحاب فهو ضباب كثير العلو فوق سطح الارض يهبط عن الضباب بارتفاعه عنه في الجو وكثيراً ما يكون من انجرة ثلجية ولا حصر للصور والاشكال التي يكون عليها وتقطع السحابة الواحدة الى قطع عديدة تسير في جهات مختلفة وينضم لها غيرها

ثم تهتز ثانياً وكثيراً ما يتفصل السحاب ما ينزل على الأرض
مطراً قليلاً او كثيراً فذلك الماء هو البخار الذي يحمله الجو
فقال الشيخ وما الذي يفصل ذلك البخار من السحاب حتى
يسقط على الأرض فقال له قد عرفنا ما سبق انه لا بد لفصل
الماء من الهواء من تبريد الهواء فالبرودة هي التي تفصله عنه والحرارة
تبقيه فيه وبانكماش الهواء وانضمام بعضه الى بعض تزداد حرارته
وبانبساطه وتمدده يبرد وقد جربوا ذلك بان وضعوا قطعة صوفان
في انبوبة مسدودة من احد طرفيها وادخل فيها من الطرف
الآخر مكبس فكلما زيد في كبسه انضم الهواء وتناقص وازدادت
حرارته فما انتهى الكبس الى الاخر الا وقد انتهت الحرارة فاحترقت
الصوفانة فدل ذلك على ما قلنا من ان انضمام الهواء وتقص حجه
يزيد حرارته وبضدها تهيز الاشياء ففي الطبقات العليا من الجو
تكون درجة الحرارة اقل منها في الطبقات القريبة من الأرض
لانساع العليا وقلة البخار فيها فلا يكون بينها توازن فترتفع
طبقات الهواء القريبة من الأرض الى الاعلى فتنبسط وتترك ما
فيها من الابخرة فتسقط ثلجاً او برداً او مطراً على حسب شدة
البرودة وضعفها فلو هبت ريح فصدتها جبل لم تقف عن سيرها
بل ترتفع في الجو وحيث يقل الضغط عليها وتنبسط وتبرد
وتنفصل عن اجزائها فتصير الابخرة مطراً ونحوه ومن المشاهد انها
عند مصادمتها لنحو غابة يحصل سقوط المطر وعند مصادمتها

لجبل بسقط ثلج ونحوه بحسب زيادة الارتفاع وقلته وتصادم تيارات
الهوا بعضها ببعض فوق سطح البحر المالح يحصل منه مثل ما يحصل
بمصادمة الالهوية للعوانع المارة فسقوط المطر حينئذٍ تابع لحركة
الهوا وكل سحابة شاهدناها انما هي ناج لعمود من الابخرة صاعد
من الارض الى السماء ثم ان المطر يكون اول نزوله تقطاً صغيرة
بحيث لو اجتمع منه ثلاثون نقطة لا تزيد عن مليون وبسبب
تحرك الهوا تلامس تلك النقط فيلتحم كل جملة منها وتصبح نقطة
كبيرة وكلما قربت من الارض كبرت حتى تكون النقطة الواحدة
قدر سائمتير فاكثر لان النقطة كلما كانت صغيرة لعب بها الريح
شمالاً ويمينا فاذا نزلت انضمت الى غيرها وكبرت وزادت ثقلاً
بحسب قوة الهوا ولا تنزل في خط رأسي بل تكون في نزولها
مائلة قليلاً او كثيراً وقد يشاهد عند سكون الريح سحب مرتفع
ارتفاعاً عظيماً وذلك ناشئ عن تبادل حاصل بين السحابة وما
تحتها من الابخرة فيقع من الطبقات العليا تقط ما الى اسفل منها
فاذا وصلت الى طبقة حارة تبخرت وارتفعت ثانياً وهكذا فيكون
بين السحاب والابخرة نهاب وايباب فاذا تغيرت درجة الحرارة في
جو السحابة يأخذ شكلها في التغير ومن يأمل في السما بعد الظهر
يرى السحاب يتجمع ويفرق او يأخذ في الزوال ويكون عن
ذلك صورة بهجة حسنة وارتفاع السحاب وانخفاضه يختلف باختلاف
البلاد تبعاً لطقس الجو واتجاه الرياح في جميع فصول السنة

فتارة تكون الرياح قريبة من المساكن وتارة تعلو رؤس الجبال وتارة ترتفع في الجو وأكثر ما يبلغ ارتفاعها احد عشر الف متر وخمسة واربعين متراً كما اعتبر بالوسائط الفلكية وذلك يفوق على ارتفاع اعلى جبل في الارض بثلاثة آلاف متر وبعض السحاب يرتفع في الجو أكثر من ذلك بكثير وارتفاع السحاب في أوروبا يختلف بين ألفي متر وثلاثة آلاف فلا يقطع من جبالها الا جبال البيرني وجبال الالب وهذا الارتفاع يكون كثيراً في فصل الصيف قليلاً في فصل الشتاء ويختلف ايضاً سمك طبقات السحاب فتارة يعظم عظامها وتارة يقل عمقه وعلى العموم فتختلف حالته الوسطى في جهات البيرني من ثلثائة متر الى خمائة بحسب البقاع وكثيراً ما تكون طبقات السحاب متراكمة بعضها فوق بعض بابعاد تقل وتكثر على حسب الاحوال وكية الامطار الساقطة سنوياً على الارض تختلف قلة وكثرة بحسب المالك او جهات المملكة الواحدة وبالتجربة قد وجدت مناسبة لدرجة عرض الجهة وارتفاعها عن سطح البحر الملح وانها كثيرة في جهة القطبين قليلة عند دائرة الاستواء وسبب ذلك اختلاف درجة الحرارة وظهر من التجارب العديدة ان كمية المطر بمجزائر الانتي تبلغ مائتين واربعة وستين متراً مكعباً وبجهة بونباي تبلغ مائتين وثمانية وفي كلكتا تبلغ مائتين وخمسة وفي كندا من بلاد الانكليز تبلغ مائة وستة وخمسين وفي نابولي من ايطاليا تبلغ خمسة

وتسعين وفي ونديك واحدا وثمانين وفي لوندرة ثلاثة وخمسين وفي
باريز مثلها وفي مرسيليا سبعة واربعين وان ما ينزل بالجبال اكثر
ما ينزل بغيرها بسبب ان الجبال لارتفاعها وشدة بردها تجذب
السحاب اتيها فيساعد البرد تكوين الامطار والناس في البلاد
الجبلية يهتدون في معرفة احوال الوقت بالنظر الى شواشي الجبال
الشاخة لانها فيل تغير الوقت تحيط بها دخنة عظيمة رطبة
حاصلة من تراكم السحاب حولها فيعلمون بذلك حالة الجو وكمية
المطر في البقعة الواحدة تابعة للارتفاع فقد قدر اهل رصدخانه
باريز ما نزل على سطوح الدور وما نزل بساحتها فوجدوا
ما نزل بالساحة اكثر مما نزل بالسطح وذلك ان حبات
المطر كلما طالت مسافة نزولها انضم بعضها الى بعض فيكبر
حجمها كلما قربت من الارض وقد تحدث دوامات هوائية تجمع
حب المطر بعضه الى بعض وكذا في مدينة باريز وجد ارتفاع
ماء المطر فوق السطوح خمسمائة مليمتر وعلى سطح الارض خمسمائة
وستين وفي برلين يزيد النازل في الساحات عن النازل على
الاسطحة بنحو التسع وكما ارتفعت ارض الولاية عن سطح البحر
الملح كانت بعيدة عن الابخرة البحرية ولهذا كان ما ارتفع من الجبال
في غاية الجفاف ولا يحصل من السحاب الملائم لسفحها والابخرة
الفاعلة في طبقاتها السفلى فعل على الثلج الدائم المتكون بها وقد
اخبروا مقدار المطر النازل بالولايات المستوية الارضية باوروبا

والولايات التي بها جبال فوجدوا النازل بالولاية المستوية باعتبار سنة واحدة خمسمائة وخمسة وسبعين مليمتراً والنازل بغيرها ألفاً وثلاثمائة مليمتراً واختبروا ما نزل في وادي نهر الران فوجدوه من خمسمائة وستين إلى خمسمائة وثمانين متراً مع أن ما ينزل في جبال الفوج يختلف من ألف مليمتراً ومائة جزء إلى ألف مليمتراً ومائتين وما يفعل في درجة الرطوبة بالقلّة والكثرة القرب أو البعد من الغابات الكبيرة والمياه العظيمة ومهاب الرياح وجنس الأرض التي تمر عليها ولذلك كان ما يقع من الأمطار على سواحل البحار أكثر مما يقع في داخل الأرض وبالتجربة وجد أن ما يقع في المديرية الواقعة بين نهر الرين ونهر الساوون في السنة الواحدة خمسة وأربعون اصبعاً مع أن ما ينزل بباريز لا يزيد عن اثنين وعشرين والرياح الجنوبية والغربية تأتي بأجرة البحر الأطلنطي والمتوسط إلى أوروبا وكثرة الغابات واتساعها وعلو الجبال الشامخة يشاهد بجهات نورويج وسواحل أفريقيا الغربية ضباب مستمر وأمطار كثيرة وعلو جهة مدينة مدريد بالأندلس على سطح البحر الملح كانت في جفاف تام ثم إن الأمطار تنقسم إلى منتظمة وغير منتظمة تبعاً لكيفية سقوطها في الولايات المختلفة فغير المنتظمة تكون غالباً في الأقاليم المعتدلة الحرارة بسبب تقلبات الفصول فيها مع مناسبة هيئة الأرض فيقع منها في الأوقات الحارة أكثر مما يقع في الأوقات الباردة وأما المنتظمة

فيبتدىء سقوطها في المنطقة الحارة متى سامت الشمس الرأس
 بتقدمها الى المنقلب الصيفي وتنتهي الامطار متى رجعت الشمس الى
 المسامنة الاولى وتكون متوسطة في شهر يوليو الا فرنجي وتقوى في
 شهري اغسطس وستبر وقل في شهر اكتوبر وعلى العموم تظهر
 الامطار وتقوى في فصل الخريف ففي مصر تبتدىء من شهر اكتوبر
 وتستمر الى شهر ديسمبر وفي الاقطار التي في عرض ثلاثين درجة
 الى عرض خمس واربعين كبلاد اليونان والانديس والبروانس
 من فرانسايكون اكثر نزولها في فصل الخريف واما في فصلي
 الربيع والصيف فتضعف حرارة تلك الجهات بسقوط الندى
 الغزير ويقل مطرها وفي الجهات التي من عرض خمس واربعين
 الى خمسين كبلاد فرانسايالمجر تنزل الامطار الغزيرة في فصل
 الربيع وتكون مدتها قليلة وفي البلاد التي من عرض خمسين الى
 خمس وخمسين كبلاد الفلنك والمانيا ينزل المطر ويكثر الضباب
 في فصل الخريف والتي من عرض خمس وخمسين الى ثمان
 وستين كبلاد الدانمرك وسويد ونورويج اكثر مطرها في فصل الربيع
 مدة قليلة ايضا والتي من عرض ثمان وستين الى عرض سبعين
 كبلاد لابوني وسبسيور وكشكا اكثر نزول مطرها في فصل
 الصيف وما ينزل باوروبا ليلآ اكثر مما ينزل بها نهارآ والاقاليم
 الموارية على العكس من ذلك وغير المنظمة تقع في غير فصل
 الشتا وهي قليلة عند دائرة الاستواء كثيرة في الاقاليم المعتدلة

وتكون مدة المطر في هذه الجهات أكثر من غيرها وتكثر الرطوبة في الجو وتكون ملطنة لحرارته بخلاف الاقطار التي يكون زمن نزوله بها قليلاً ودفعة واحدة كالبلاد الحارة وقد استدلوا على ان للبقعة تأثيراً في قلة المطر وكثرته بما شاهدوه في جهة السنجال حين وجدوا كمية المطر النازل بها في كل السنة اقل مما ينزل غيرها من البلاد البعيدة عن الاستواء ففي جزيرة كيين تكون مدة المطر ثمانية اشهر او تسعة وارتفاع ما يسقط منه في السنة مائة وثمانية اصابع مع ان ارتفاع الساقط في جزيرة بوروبون تسعة وثلاثون اصبعاً وفي جزائر اللانتي ثمانية وسبعون ويقع اكثره في الزمن القليل وليس في الجهات اكثر مطراً من سواحل مالابار واركان وجبال حماليا لان اكثر اسبابه موجودة بها لشدة الحرارة وارتفاع الجبال فيصعد من بحر الهند وحده من الابخرة اكثر مما يصعد من جميع الابحر وتسير به الرياح الى سواحل افريقية وسواحل اسيا فاذا مرت بجبل ارتفعت به حتى تصل الى الطبقة الباردة وعند ذلك يتحلل وينزل حتى يملاً الودية وتفيض منه الانهار وقد قدروا ما نزل بجهة هناك مرتفعة عن الملح بقدر الف وثلثائة وستين متراً فوجد بعد عدة تجارب علمت في اربع عشرة سنة ان متوسط ارتفاع المطر سبعة امتار وثلثان في السنة الواحدة وفي بلد اخر من هذه الجهة كان متوسطه في السنة الواحدة خمسة عشر متراً الا خمس متر وذلك مقدار ما ينزل بالاسكندرية في

مدة مائة سنة وفي تلك البلاد ما يلي حملايا كان ارتفاع ما سقط
في شهر يوليو سنة الف وثمانمائة وسبعة وخمسين ثلاثة امتار وثلاثة
ارباع المتر وفي بعض تلك الجهات لا ينقص متوسطه في سبعة
اشهر من السنة عن اثني عشر متراً ونصف متر وقد شوهد في هذه
النواحي سيل عظيم استمر اربع ساعات فقط فغطى الارض بطبقة
من الماء قدرها ثلاثة ارباع المتر واذا نسبت ذلك الى ما يقع على
ارض فرانسا وجدته مقدار ما يقع فيها في سنة كاملة وارتفاع ما
يقع في سواحل الهند متر واربعة اخماس المتر وما يقع على الجبال
الداخلة فيها يكون قدره ثنائي مرات ثم انهم بالتجربة وجدوا اللبتر
الواحد من ماء المطر يشتمل على ثلاثة وعشرين سائتي متر مكعبة
من الغاز الذي في كل مائة حجم منه اثنان وثلاثون من
الاكسوجين وثمانية وستون من الازوت بعد تنزيل اثنين واربعة
اعشار من غاز حمض الكربون

وهذه المقادير تختلف باختلاف الارتفاع ففي الارض المساوية
لسطح البحر يكون قدر الازوت والاكسوجين خمسة وثلاثين وفي
الارض المرتفعة عنه بنحو الفين وستائة واربعين متراً يكون قدر
هذين الغازين اربعة عشر فقط وفي الارض المرتفعة عنه بنحو ثلاثة
الف متر يكون قدرها احد عشر فقط وكذا حمض الكربون
يختلف قدره في ماء المطر بحسب الارتفاع ايضاً وقد يكون في
المطر ايضاً ملح الطعام وذلك فيما يقرب من البرك وسواحل البحر

المالح ومنى سقطت مياه المطر على ارض اثرت فيها الحرارة وتسحب معها
 في سيرها بواقي حيوانات وحشرات وحشائش فتكون غير صالحة
 لمخزن بخلاف المطر المأخوذ من فوق سطح المالح فانه يصلح للمخزن
 لخلوه من ذلك ولذلك لما حلل بعض الكيماويين ماء المطر في
 جهات مختلفة وجد فيه مقادير مختلفة من الاتربة ففي بلاد الانكليز
 وجد فيه من تراب الفحم وقد يوجد فيه مركبات نشاديرية
 كالكربونات والنترات وذلك اكثر مما يكون منها في ماء الانهار
 وهذه المواد وان كانت سريعة التطاير والصعود الا انها تنزل ثابيا
 مع ماء المطر

فقال الشيخ سبحانه لا علم لنا الا ما علمتنا فان هذا من
 الحكم الربانية والاسرار الالهية التي لا يقف على حقيقتها عقل ولا
 يحيط بكنها تفل فالانسان وان بحث ودقق واستكشف وحقق
 فمثله كمثل طائر قرني البحر تفره فهو وان روي بها ما اخذ منه
 مثقال ذرة ويكفي في ذلك دليلاً قول الله تعالى وما اوتيتم من
 العلم الا قليلاً ومن استنارت بصيرته وخلصت سيرته يرى جميع
 ذلك ما اندرج تحت مفهوم قوله تعالى ان في خلق السموات
 والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما
 ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد
 موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر
 بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون

قال الخواجا وازيدك انك اذا تأملت في المطر حال نزوله
وجريانه في مجاريه وجدت ذلك شبيهاً بتقطير الماء في
الانبيق فان اشعة الشمس تكون كأنها الفرن له والجر الملح كأنه
الانبيق والجر المرتفع كأنه تاجه والجهات الباردة من الجوى وشواشي
الجبال الشمالية المغطاة بالثلوج والبحور المنجمدة هي المبرد له والانهر
والنخجان والبرك ونحوها هي الاوعية التي ترد الى المالح جميع ما
اخذته منه وهذا مستمر الى ما شاء الله فكلما اندقت مياه الاوعية
في الانبيق تصاعدت ثانياً ورجعت الى الاوعية ثم منها الى الانبيق
وهكذا فالماء المحلو الزلال الذي يشربه المصريون من نيلهم
والباريزيون من نهرهم بل وسائر انهار العالم اصله من البحر الملح
وانما حلا بتكرير الصعود والهبوط كما ذكرنا لانه يصعد اولاً بخاراً
ثم يتعد سحاباً ثم يتقلب بخاراً ثم ماءً ثم ينزل ويمر في مجاريه
ثم يعود الى البحر كما كان وهكذا ولذلك شبه بعضهم البحر برجل
ينخبل لان جميع ما يخرج منه لا بد ان يعود اليه حتى البخار الذي
يخرج من الفم فانه يرجع اليه في صورة قطرة ماءً

ومن عجيب لطف الله ان البحر الاستوائية بفعل حرارة
الشمس الشديدة على مياهها تسخن وتكون لها من ذلك درجة كافية
تحفظها حتى تصل معها الى البلاد الباردة لتلطيف شدة بردها
وقبل ان تكون مياه الامطار في الانهر والنخجان تقع على سطح
الارض فتكون في المجاري الصغيرة التي في خلالها وتدخل في

الارض المهشة وبين الاحجار وفي جذور النبات وسيقانه وفي هذه
السياحة تذيب ما فيها من المواد المعدنية المختلفة في جوف الارض
ثم تاخذها معها وتوزعها الى انواع الحيوان والنبات وقد تتحد بغيرها
فتكون مواد يسميها الكيماويون الادرات او انها تكون في المنافع
فتحلل البواقي النامية او تساعد في تعفين المواد النباتية وتخبيرها
وتحصل عنها مواد فحمية وليس من دابها الدوام على حالة من
الحالات وبعد ما تكون في جسم الحيوان والنبات بالصورة السائلة
تخرج منه في صورة بخار وترجع الى الجو ومنه ترجع الى سائل
او ثلج او برد او جليد ثم تتقل عن ذلك وتكون بخارا ثم تتقل
الى ان تكون سائلا وهكذا فهي السائل الذي يجري في جذور
النبات وعروقه والندى الذي يرى على ورق الشجر والدم الذي
يجري في جسد الحيوان والرطوبة التي نحس بها والبخار المحرك
للواپورات والضباب المرتفع من اراضي المراعي وغيرها فهي المنبع
الذي ياخذ منه كل حي قوامه فتكون جامدة وسائلة وبخارا فلا
تغير من صورة من هذه الصور الا تاخذ ما بعدها فاذا تركت
البحر كانت على الارض لنفع الخلق وان تركت الارض ترجع الى
البحر فتعلو الى الطبقات العليا من الجو وتنزل الى الطبقات
السفلى من الارض ونصاحب الريح وتنبع ميل الارض وتكون
في جوفها فتكتسب حرارتها وتخرج منها حامية حاملة من نخاثرها
فلا يعرفها الصخر حتى تصقله وفي سيرها تقل تقاوي النباتات

ويض الحشرات من ارض الى ارض وتقلب الرمل والتراب
 والزلاط وتقلع الحجر والشجر وتخرق الارض وتهدم الجبل وجميع
 هذه الاعمال لاسباب دبرتها الارادة والقدرة لبقاء نظام هذا الكون
 والكلام في شرح ما وصل اليه علم الانسان من ذلك طويل وان
 شاء الله نجعل بقية الكلام في ذلك بكرة فوق نهر السين ثم اوى
 كل الى فراشه وكانت ليلة ماطرة فناموا الى الصباح فاخذوا
 ملابسهم واشياءهم وتوجهوا الى النهر فركبوا السفينة وكان يعقوب
 قد اتخذ لهم في مقدمها خزانة فسجحة بامر الخواجا له فدخلوها وبعد
 برهة اخذت اطراف السفينة وشرعت تسبح فوق الماء واخذت
 كفات الطارة تضرب في الماء فمحدث فيه رغبة ويزبد والسفينة
 تسرع في سيرها فصار الشيخ وولده ينظران الى البر والى الجبال والاشجار
 التي على طرفي النهر ويسرحان الطرف في النهر وما حوالبه
 وخرير الماء يسمع بين الحشائش واحجار البر وتذكر الشيخ ما
 ذكره الخواجا بالامس وما ابداه من الاسرار والحكم واللطائف
 التي ترتاح لها النفوس وتطمئن لها القلوب فالتفت لابنه وقال
 له يا بني العلم رأس مال الانسان وتجارة لا يعثرها كساد ولا
 خسران وبه حياة النفوس وهو اجل ما تحلت به الطروس وبه
 استنارت البصائر وهو الذي تنافست فيه الاوائل والاواخر ولقد
 احسن من قال

العلم يغرس كل فضل فاجتهد

ان لا يفوتك فضل ذاك المغرس.

واعلم بان العلم ليس يناله

من هم في مطعم او مجلس.

واحرص لتبلغ فيه حظاً وافراً

واهجرت له طيب المنام وغلس

لتعز حتى لو حضرت بمجلس

اكرمت فيه وصرت صدر المجلس.

ان الخلي من العلوم مقامه

عند النعال لث صوت الاخرس

فالعلماء مصابيح الازمنة كل عالم مصباح زمانه وذلك انه

لا يرى شيئاً الا بحث عن اصله وسببه وما يؤول اليه امره وما

يترتب عليه من خير وشر ونفع وضر هكذا دابه وديدنه ما دام

حياً فان مات بقي ذكره واما الجاهل فتراه لا يلتفت الى شيء الا

عند احتياجه اليه فيشرب الماء ولا يعلم من امره الا عنونه او

ملوحنه ويسقي به الزرع ولا يعلم سبب نموه منه وياكل الثمر

ولا يدري من اين ائمه الحلاوة وانا مر بنهر عجب من اتساعه

وتلاطم امواجه وتغير لونه وفيضانه ولا يبحث عن سبب ذلك

فكم من خلق تولد وتلد وثمرت على شاطئه وهم على فطرتهم الاصلية

من الجهل بخلاف اهل العلم فان احدهم متى وقع بصره على شيء

لا يهدأ له سر الا ان وقف على سره وكشف حقيقة امره فبين

ذلك النهر الذي نحن فيه فان اصله كما قال حضرة الخواجبا
 قطرات تصاعدت الى السماء ثم نزلت متفرقة فاجتمعت حتى
 صارت نهراً يجري على وجه الارض يتلوع ما قابله
 من نبات وشجر واذا مرّ بارض تلون بلونها فتارة يكون اصفر
 او الى الصفرة اقرب وتارة يكون اخضر او الى الخضرة اقرب وكلما
 قرب من مصبه وهو البحر الملح تشعبت مجاريه وربما رجعت الى
 خلف ثم استقامت وكما تختلف الوانه بحسب الارض التي يمر بها
 كذلك تختلف اسماؤه على حسب ما على شواطئه من الجزائر
 والعيوان واذا جرى رويت منه الاشجار وشربت منه الزروع
 فضلاً عن الاستعانة به في الاسفار وتقرّيه ما بعد من الاقطار
 فسبحان من دبر الكون بحكمته وسخر ما شاء كما شاء بقدرته لا اله
 الا هو الفرد الصمد المنزه عن الشريك والمعين والولد
 ثم التفت وقال للخواجبا ارجو من جنابكم الاطياب في هذا
 الباب

فقال ان ثلاثة ارباع الدنيا مغمورة بالماء ولكن منه المغذي
 يرتوى به ومنه غير المغذي فالاول لا رائحة له وانما فيه جزء من
 الهواء ذائب فيه وان طبخ به الخضراوات نصبت وصححت وان حلل
 به الصابون تحلل سريعاً وان غلي لا يتكدر وان قطر لا يرسب
 في اسفل انائه الا شيء قليل من مواد جيرية تلزم لتكوين
 الحيوان ونحوه فان كان فيه جيس فلا تطبخ به الخضراوات لان

الحيس حيثذ يلف عليها كالغلاف بعد تصاعد الماء فيمنع نضجها
 ويمنع ايضا ترغية الصابون واما الماء الذي لا يروي فليس فيه
 من الهول الا شي يسير وبه مواد نامية متحللة فيه وذلك كما البحر
 المالح وما غالب الابار وماء البرك الراكدة واصفى المياه واتقاهما ماء
 المطر الا انه لا يصلح للغذاء لخلوه عن القدر الكافي من الاملاح
 والهواء الذي يجعله سهل الهضم فبناء على ذلك تقدر ان نحكم بان
 جميع المياه الموجودة غير نقية فاذا كان الماء متكرراً بالطبي والاعربة
 ونحوها ترك مدة حتى يروق بنفسه او بشيء يضاف عليه فان ظهر
 له رائحة كريهة حاصلة عن تحليل بعض المواد النامية وضع فيه
 قليل من فحم العظام المكسوة في افران مخصوصة داخل اوان مقلوبة
 فتشرب تلك الروائح وتلتقط ما فيه من المواد التي ينشأ عنها
 ذلك وتخلص الماء وتجعله نافعا للاستعمال ويلزم تغيير الفحم متى
 ضاعت خاصته ومن المياه ما يشتمل على معادن متنوعة وغالباً
 لا يشتمل الماء الواحد على اكثر من ثمانية او سبعة منها ولكن
 الحكم لاكثرها فيه ظهوراً فيسمى الماء باسمه كالمياه الكبريتية
 تعرف لكثرة الكبريت فيها برائحة تشبه رائحة البيض المنر
 واذا غمس فيه شيء من الفضة اسود والمياه الحديدية طعمها كطعم المداد
 ومنها ما يكون حاراً ومنها ما يكون بارداً وتختلف حرارة الحار
 منها بسبب بعد الطبقة الارضية النابع منها عن سطح الارض
 وعدم بعدها

قال ابن الشيخ فالماء الذي تستعمله الاطباء اي نوع هو
 فقال الخواجا ذلك ليس منها وان كان لا يخرج عنها لان لم فيه
 قبل استعماله اعمالا وذلك بان يضعوه في معوج من زجاج ثم
 يوقدوا عليه نارا فيصعد منه بخار فيجمعونه في زجاجة موضوعة
 في اناء فيه ماء بارد فمن ترك بعضه على بعض وفعل البرودة
 عليه ينحل الى الماء المطلوب ويسمى بالماء المقطرو هذا اذا كان
 اللازم منه قليلاً فان كان كثيراً قطروه بالانبيق وهو عبارة عن
 اناء من نحاس له غطاء مثقوب ركب على ثقبه ماسورة قد سلطت
 على كرة من زجاج موضوعة في ماء بارد وفي تلك الكرة ماسورة
 حلزونية تدور على نفسها داخل ذلك الماء البارد فحين يصل اليها
 البخار يتقلب ماء فيصب في اناء اخر ويقرب الالة ماسورة اخرى
 لتغيير الماء اذا ضعفت برودته فالماء المقطر خال من الرائحة
 والاملاح والهواء ولذلك يكون ثقيلاً على المعدة ولو اتقى فيه سمك
 مات وبالجبهة فلا حصر لما اودع في هذا الجوهر اللطيف من
 الاسرار

قال الشيخ وحسبنا في ذلك قول الله تعالى وجعلنا من
 الماء كل شيء حي حيث لم يقيد الماء بعذب ولا غيره ولا الشيء
 بانسان ولا غيره

قال الخواجا ومن وصل الى شواشي الجبال الشامخة الموزعة
 فوق كرة الارض يطلع على الحكمة العظيمة التي اودعها الباري

سبحانه في هذا المحور العظيم ففي شواشي تلك الجبال تكون
منابع الانهر والخلجان التجارية في جميع الارض وهي عبارة عن
بحائر صغيرة بين جبال فيجتمع في تلك البحائر ما ينزل من السماء
وما يذوب من الثلج الدائم المكسوة به رؤس الجبال الشامخة
فترى للجبال حكمة تجمع المياه التي استعارتها السماء من البحر بواسطة
الشمس وحكمة ردها الى البحر ثانيًا بواسطة الانهر والخلجان
ونحوها فوضع الجبال على الارض تابع لقاعدة ثابتة وقانون لا
يخذل به نظام العالم فترى سير الانهر دائماً تابعا لسير الجبال
فسلاسل الجبال الاصلية من الدنيا القديمة خط سيرها من الغرب
الى الشرق وفروع الجبال الخارجة عنها من الشمال الى الجنوب
فنهر الفرات وخليج لعجم والنهر الاصفر والنهر الازرق وسائر انهار
الصين اتجاه سيرها من الشرق الى الغرب وانهر اوروا وافريقيا
واسيا والبرك والابحر المتوسطة كبحر الروم والبحر الاحمر تسير من
المشرق الى المغرب او من المغرب الى المشرق ولم يخرج عن ذلك
الا نيل مصر وبعض خلجان بلاد المغاربة وماء المطر الذي
ينزل على سطح الارض منه ما تشربه الارض ومنه ما تتلعه فيجري
في جوفها الى ان يصادف طبقة لا يقدر على النفوذ منها فيتبع سطحها
ويتجمع ويتكون منه ما متسع فاما ان ينصرف الى البحر او الى
الانهر او يبقى في هيئة برك تفعل عليها احوال موضعية تردها الى
سطح الارض وهناك انهار وخلجان تكون اولاً على سطح الارض

تم نفوس في باطنها بعد مسافة عظيمة من سيرها ومنها ما يخفي ولا يعلم امره ومنها ما يخفي مسافة ثم يظهر كنهر جوديانا ببلاد الاندلس يخفي في ارض مستوية مكسوة بالعشب والمرعى ثم يظهر ثانياً بعيداً عنها ونهر الموز في فرانساً يخفي بالقرب من بلدة باروى ونهر اللروم منها ايضاً في ولاية النورماندي يخفي في وسط ارض مستوية وينصرف في جوف الارض في فتحة قدرها عشرة امتار وامثال ذلك كثيرة ومن الحائر ما يجف في بعض الازمنة ويغور ماؤه في جوف الارض ويزرع موضعه ثم في الوقت المعين ينبع الماء فيبلاها ثانياً كما كان كبحيرة كيركينثز من ارض الكاريبول وقدرها فرسخ عرضاً وفرسخان طولاً فتكون في فصل الشتاء غامرة بالماء وفيها من السمك والسفن ما لا يحصى فاذا جاء الصيف تفتحت لها عيون من اسفل الجبال المحيط بها فتبتلعها بعد اربعة اسابيع وتزرع ارضها فاذا تم الحصاد تفتحت تلك العيون بعينها وجرى الماء حتى تمتلئ وتعود كما كانت وكان بالقرب من قرية سباه في ولاية الانحوعين ماء قطرها من خمسة امتار الى ثمانية كانت تغور تارة فتظهر معها انواع شتى من السمك وسطح الارض مركب طبقات بعضها فوق بعض فيها مجاري للماء متنوعة على ابعاد مختلفة وقد قابل المجرس بقرب ناحية ديب في قرية سنية لا مجاري مياه ثمر من ماء يجري منفصلاً بعضها عن بعض بطبقات الارض ووجدوا بها انصانا عليها ورقها وهذا

دليل على انها لم تثبت زمنا في باطن الارض وان للماء الذي على وجه الارض اتصالاً بها في باطنها وقد يحصل في بعض العيون زيادة ونقص ولكن لا تظهر الزيادة الا بعد نزول سيل في جهات بعيدة فيعلم ان تلك الزيادة من ذلك السيل ويختلف سير الماء في جوف الارض سرعة وبطئاً وكلما بعد عن سطح الارض استندت حرارته فلذا تجد ما العيون يتفاوت في الحرارة ويختلف ليضا في كثرة المواد الذائبة فيه وقتها والان قد استعمل الاطباء كثيرا منه في معالجة علل مختلفة

وقد بلغني عن بعض السياحين انه رأى عيوناً في اسلنده تنفجر من باطن الارض فتدفع دقات بين الدقة والاخرى نحو نصف ساعة وكل دقة عمود من الماء غلظه نحو ثمانية عشر قدماً فيرتفع في الجو نحو مائة وخمسين قدماً ثم ينحني وينزل على الارض فينحني في جوفها فتنتفخ لها عيون فتبتلعها وقبل تدفقها يسمع لها دوي وقرقرة وقد ينتشر فوق تلك العيون من الامخنة سحابة حاصلة من بخار الماء وفي زيلنده الجديدة لا حصر للعيون التي تدفق الماء والبخار وبعضها عظيم جداً تملأ الدقة منه حوضاً محيطه نحو ثمانين متراً فمن كل ذلك يعلم ان الماء كما يجري على وجه الارض يجري في باطنها وان له اعمالاً في باطنها كما له في ظاهرها فانا كان على وجه الارض دخل في اخليتها ومسامها فان تسلطت عليه البرودة جمد واثر في الصخور فيفصلها عن الجبال

ويبقىها في الوديان وفي الارض اللينة يذيب المواد القابلة للذوبان
ويأخذها معه في سيره وببلاسته للصخور الهشة والاحجار اللينة
يدخل بين جواهرها فيحلبها ويزيل تماسكها فتفتت وتنعدم وتتقل
اجزائها اذ سير مواضعها والحصى والاحجار المسحوبة مع الماء تنبري
ببلاستها لقاع مجرى الماء واحتكاكها مع ما يوجد به من الحجارة
وغيرها ودائماً تأخذ في صغر الحجم وقلة الوزن حتى تدق وتعلق
بالماء فالصوان وجميع انواع الاحجار مما كان تماسكها وشدة صلابتها
لا تقاوم قوة الماء ويقلب الماء في سيره المستقيم للواد العائمة فيه
وببلاسته للبرور يسويها وينظفها ويدخوله في اخلية الاجسام
ومسامها يفتتها وكذلك اذا اتقل الماء من السبولة الى الجهودة
ومن كل هذه الامور تغير صورة الارض ولا ريب في ان الماء
ياخذ معه كل ما اذابه من الاحجار لما هو مقرر من ان زنة الشيء
في الماء اخف من زنته في الهواء وقد اثبت ارشيد الحكيم ان الجسم
اذا وضع في الماء خف بقدر زنة الماء الذي حل الجسم محله
وحيث كان الثقل النوعي لكثير من الاحجار لا يزيد عن
ضعف الثقل النوعي للماء علنا ان كل ما يأخذه الماء معه
ينقص من ثقله قدر نصفه

وقد اختبروا الانهار بالنسبة لما فيها من المواد الطينية
فوجدوا في كل مائة وستين جزءاً من وزن ماء نهر (البو) جزءاً
من الطين وفي كل مائة جزء من ماء النهر الاصفر جزءاً من

الطين وإما نهر الكج الذي يصب في الملح وقت فيضانه ففي كل ثانية من الماء الفان وثمانمائة وخمسون طولوناته فيصب من الطين في كل عشرة أيام ما قدر ضلعه الف متر وإما في غير وقت فيضانه فيقذف هذا القدر في ثلاثة أسابيع وقد قدروا حجم ووزن ما يلقى هنا النهر في كل سنة فوجدوه قدر الهرم المصري الكبير باثنتين وأربعين مرة وما يلقى في أربعة أشهر فيضانه قدر أربعين هرماً وهذه المقادير التي يلقىها هذا النهر في البحر ولا يشاهدها الإنسان تحتاج في نقلها إلى مائة سفينة كل سفينة تحمل مليوناً وأربعمائة ألف طولوناته وذلك بالنسبة لما يقذف به هذا النهر في وقت الفيضان فما بالك لو أضيف إلى ذلك ما يقذفه في السنة وكذا ما يقذفه كل نهر وخليج من الأنهر والنخيلان الموزعة على سطح الأرض فان ذلك يوقع الفكر في الحيرة ويحتمز أن الماء من آيات الله القوية الموكولة إليها تغيير أحوال الأرض وأوضاع الخلق

وحيث كانت مياه جميع الأنهار مجتمعة من جهات مختلفة بعضها على سطح الأرض وبعضها خفي بحري تمت الأرض فيلزم أن تشمل المياه على مواد كذلك ذائبة فيها كالجبس والجبس وأنواع الأملاح كالمنيزيا والسلجم وتراكيب حديدية وغيرها وبانصباب تلك المياه في البحر تغير ملوحته وتضر بحياة ما فيه من الحيوانات إن لم يكن هناك من حكم الله تعالى ما يمنع ذلك ويبقى له حالته

الطبيعية وتلك الحكم اودعت فيما ينبت في قاعه وشواطئه من
النباتات فانها تاخذ الاملاح المعدنية وتقصرها على نفسها فيخلص
منها الماء ويكون على حالته الاولى موافقاً لطبيعة ما فيه من الحيوانات
وحوانات المحار والشعوب لا تغذى الا من المواد الجيرية
فبعد ان تاخذها في جوفها وتسديها جرعتهما تقذفها في البحر محاراً
وشعوباً فانظر الى قط المطر الصغيرة الواقعة فوق قم الجبال في
سيرها كيف تحمل المواد الجيرية وغيرها لتكون طعمة للحيوانات
الاطبوطية الصغيرة ثم تقذفها تلك الحيوانات من اجوافها فتجعلها
مسكناً لها ثم تتراكم شيئاً فشيئاً فتصير حجراً ثم شعباً الى ان تصير
جزيرة وتكسى بالنبات ويستحوذ عليها الانسان فيكون منه مسكنه
وقوته

ثم ان اندفاع مياه الامطار يخلف قوة وضعفا باختلاف عظم
الانحدار وقلته وفي اندفاعها قد تقاتل الصخور الكبيرة وكثيراً ما
تسحب معها الحجارة قدر الحجر منها متر مكعب فاكثر فمن الحجارة
ما يتراكم بعضه على بعض ومنها ما ينحدر مع الماء حتى يستقر في
اودية بعيدة ومنها ما يجره السيل حتى يلقيه في البحر فيفتته حتى
يصير ملاً فيدفعه الموج الى الشاطئ او الى الجزائر فيكون في
وسطها او في سواحلها وكنيات الرمل التي نشاهدها في السواحل
انما هي حاصلة من الصخور التي جلبها السيل من الجبال البعيدة
وفي الدنيا الجديدة انهر عظيمة العرض تجري في ارض غير

مستوية وتحد من المحلات الشائعة بسرعة شديدة واهل تلك البلاد لا يخشون الملاحه فيها وفي كثير من الجهات يفعل تيار الماء على الارض فياخذ معه الطين منها وفي سيره يملف الشواطىء والبرور وياخذ فيه الطين بالتدرج حتى يصير نهراً من طين وفي سنة ١٨٥٢ شوهد تيار من الطين في جهة جبال الالب فكان اسود اللون قليل الماء وانصب في نهر الرون فاوجب فيضانه

وكثيرا ما شاهد السباحون من ذلك تيارات في بلاد البيرو وجاوى حتى صارت طبقة جديدة على وجه الارض وقد تجهد انهار البلاد الباردة فينجس فيها كثير من الاحجار وغيرها ويتغل معها حيث سارت

وفي كثير من الانهر توجد شلالات مختلفة ينشأ عنها قل المواد الترابية وغيرها وتغير شكل الاراضي فمن ذلك انهم رأوا قطعة الثلج طولها سبعة امتار فكسروها فوجدوا في جوفها حجرا ضلعه نحو متر

ومن ذلك نهر النياجارا بامرقة الخارج من بحيرة ابريه فانه بعد اثني عشر فرسخاً منها ينسب من علو في منخفض عظيم الانخفاض وينحدرو يسيل حتى يختلط ببحيرة اوتاريو وهناك يتقسم بجزيرة الى هدارين عظيمين يسمع لدونها صوت كصوت الرعد فياخذان ما قابلها من حجر ومدرف بعضه يرسب في مجراها

وبعضه يلقيه الماء على الشاطئ فيتراكم كالبناء فانظر كيف تسلطن
الماء على ما انخفض وما ارتفع وفرق ما كان مجتمعا وجمع ما كان
متفرقا فسبحان من خص ما شاء بما شاء وعم با حسانه من احسن ومن
اساء ثم لا يخفى ان جريان الماء بهذه الكيفية يوجب غور مجراه وتاخر
المصب عن موضعه

وقد شوهد سنة الف وثمانمائة وعشرين ان مصب نهر نياجارا
المذكور تأخر عن موضعه الذي كان فيه منذ خمسين سنة نحو
اربعين مترا فلو فرض ان التأخر في الماضي كان على هذا النسق
كانت مدة حفر للعشرة الاف متر التي حفرها نحو عشرة الاف
عام وان كان لا يقال ذلك الا بعد علم ما كان عليه الوادي في
مبداء امره نعم ان استمر التقهقر على هذا النسق امكن معرفة الزمن
الذي كان يصب فيه ببحيرة ايريه وان استمر الحال على ذلك فعما
قريب تجف البحيرة المذكورة لان غاية عمقها لا يزيد عن ارتفاع
الشلال ومن هذا القبيل نهر زنبير بافرقة لان به شلالات مرتفعة
جدا يسمع لمانها دوي من بعيد ويرى على النهر بخار ورغاوي
ترتفع وتنخفض وعرضه الف وستمائة متر فاذا وصل الى محل
الشلالات تقطع وخرج من بين الصخر وهبط الى مكان عميق
حوله جبال فيكون للماء حيث ذر دوامات وتلاطم امواجه فيسمع
لها صوت مزعج ويصعد منها عهد من الماء بيضاء القواعد سوداء
الرووس فاذا وصلت تلك العهد الى اعلي الصخور المحيطة به

انحدرت في مضيق هناك مع السرعة الشديدة والمزاحمة فمن تلاطم
المياه ترى فوق الصخور سخابة من الزبد والرغوة وبسبب تراكم
الصخور في ذلك المجرى الضيق جدًا ترى المزاحمة والملاطمة تكثر
وتزداد فيرتفع الماء عن قاعه ويفيض على الشواطئ وتارة ينجس
في تلك الفوهة ويفعل في قاعها مع الشدة فيحفرها ويقلل صخورها
وبتأدي ذلك يتسع المجرى

وفي أرض السنيجال شلال نهر فيلو فان مائه يأخذ معه
حجارة حمراء من حجارة شواطئه ومن كثرة قلبها فيه وشدته
واستمراره يؤثر فيها ويصنعها على صور مختلفة فقد رأوا على شواطئه
في وقت التحريق أحجارًا متعوبة وأحجارًا تشبه الصور والتماثيل
وأحجارًا عليها رسوم تشبه المعابد وصور حيوانات وأشجار حتى اغتر
بذلك العبيد القاطنون هناك وغلبت عليهم الأوهام الفاسدة
فعبدها ويوجد ببلاد سويجرة وجبال اليريني مصاب عجيبة الطنفا
شلال نهر الران القريب من شافوز والطف من ذلك الاثنا
عشر مصبا النازلة من جبل باستدارة تعرف باستدارة جواراني
وهي عبارة عن حائط في شكل قوس ارتفاع دائره نحو الف
ومائتي قدم وفي اعلاه الثلج دائما وفي خلاله اثنا عشر فتحة
كالطاقات تسيل منها المياه باللامسة للحائط فلا يسمع لها الا صوت
لطيف مع انها نازلة من مسافة اربعمائة واثنين وعشرين مترًا فاذا
ب عليها النسيم لعب بها فيكون لها عند ذلك رؤية تسر الناظر

وتشرح المخاطر ومن اعمال الماء ايضاً ما عمله في بعض السنين
وهو انه اذا فاض من الثلوج او الامطار والسيول يعلو البرور
والشواطى ويهجم على اراضي الوديان ويكسوها بطبقة منه ولا يرحل
عنها الا وقد ترك فيها طبقة من الزبد او ما كان اتى به من
الطين ونحوه وهوالى ذلك ترتفع الارض او قاع البحيرات وبحول
المالح تحدث ارض جديدة تزيد بالتدريج بما يلقبه البحر من جوفه
فيها فتسكنها الناس وتكون مديرية في ولاية او ولاية كاملة جديدة
يستحوذ عليها الناس وتكسى روتق العمارة بالمزارع والمباني والمنشآت
الغنية وما يحدث من المواد الراسبة من المياه ثلاثة انواع من
الاراضي الاول في قاع البرك والثاني في الابحر المتوسطة والثالث
في افواه الابحر عند مصبها في المالح وقد الطين الراسب من نهر
الرون عند مصبه كبير جداً حتى ان مدينة برنوس بعد ان كانت
على شاطئ بحيرة جنوه قبل الان بثمانية عشر قرناً صار بينها وبينه
نحو الفى متر وكل حين تاخذ في الزيادة بما يلقبه النهر في البحيرة
وفي الامريتا الشمالية في ارض كندا يرسب من البحيرة العليا التي
هي اكبر بحائر الدنيا وهي قدر سعة اوربا تمامها كمية عظيمة كل
سنة من المواد فطمت ارضها واتسعت واستمرت آخذة في الزيادة
والاراضي التي تتكوّن في مصاب الانهر تختلف بحسب الانهر فنهر
الرون كوّن من رسوبه ارضاً متسعة عند مصبه في البحر الرومي ويمكن
قياس تلك الاراضي ومعرفة مساحتها من الاثار الموجودة الي يومنا

هذا وذكرها المؤرخون فمن ذلك برج تنيومين الذي كان بناؤه سنة ١٧٣٧ من الميلاد فانه كان فوق البحر فصار بينه وبين البحر الآن الف وستائة متر وكذلك نهر البرونهر الارجح اللذان يصبان في البحر الادرياتيكي فقد حصل عن مصابها اراضي متسعة حتى ان بعض المين التي كانت تقف عندها السفن زمن اغسطس رُدمت بالطين وصارت مدينة بعيدة عن البحر عدة فراسخ وكذلك مدينة سينا وكانت قبل الميلاد على شاطئه فصار الآن بينه وبينها نحو اربعة فراسخ وخليج ايزوتروا فانه تحوّل عن مجراه الاصلي وسلك طريقاً في غربي مجراه الاصلي بنحو فرسخ وامثال ذلك كثيرة وهناك انهار لا تحوّل عن مجراها ولكنها برسوب الطين في نفس المجرى تأخذ في العلو والارتفاع وترتفع شواطئها فيكون النهر دائماً منجساً فيها كليل مصر ونهر المسيسيبي ففي وقت الفيضان يكون سطح مياه النهر اعلى من سطح الارض بحيث لو انكسر جوفه لغرفت الارض وبسبب كثرة ما به من الطمي يرسب على سطح الاراضي طبقة منه فتعلو بها كل سنة وذلك هو السبب في ضياع كثير من الاثار القديمة والمباني فلو كان انصباب الانهر واقعا في البحر المحيط عوضاً عن انصبابها في الانهر المتوسطة لدخل البحر الملح في الانهار بالمد والجزر الى بعد عظيم من النهر فلا يتمكن النهر من احداث اراضي بقرب مصبه لان البحر ياخذ حيثذ جميع ما تأتي به الانهر من المواد ومن ثمادي هذا الفعل ياكل مصب

النهر شيئاً فشيئاً ويدخل المالح في الاراضي ويكون عنه خليج كبير
ومينا عظيمة وقد يكون النهر قوي السرعة والحجم ويدافع عن
مواده الراسبة في مصبه الا انها تكون على التدرج ارضاً وتدخل
في البحر كما سوهد ذلك في مصب نهر الكنج فانه تولد منه في
البحر المالح لسان من الارض طوله نحو ثمانين فرسخاً في عرض
اثنين وسبعين وفي خلاله خلجان مألحة كبيرة وصغيرة وصار ارضاً
تأوي اليها الوحوش وكما ان الانهر تكسب الارض خصوبة وعماراً
واهلها تروء كذلك قد يحصل منها القحط وغلاء الاسعار وخراب
البلاد وهلاك العباد وذلك اذا زاد فيضانها عن حده المعتاد
وسبب الفيضان اما كثرة السيول واما الزلازل التي تنقلها عن
مواضعها واما زوبان الثلج المحابس لمستودع عظيم من المياه وكثيراً
ما شوهد ان السيول تكسو الارض الخصبه بالاحجار والزلط
والحصى وجزوع الشجر ونحوه فتصبح فحلة بعد خصوبتها ومثل ذلك
يحصل من زوبان الثلوج وتيارها واهل كل بقعة تعلم اسباب
فيضان نهرها ولهم طرق ووسائل لوقاية بلادهم من مضاره وتحصيل
منافعهم من فيضانه

ومن عجيب فعل الماء ان منه ما يقرب كل ما القى فيه سواء

كان حجراً او نباتاً او حيواناً او غير ذلك

فقال الشيخ وابن يوجد ذلك وهل تخرج تلك الاشيا عن

حقيقتها الاصلية عند صيرورتها حجراً فقال له الخواجا اما وجود

هذا الماء فكثير واما انقلاب الحيوانات وغيرها فقد كثير فيه كلام المتقدمين والمتأخرين فمنهم من زعم انها تمسخ وتنقلب حقيقتها ومنهم من قال ان تغيرها ليس الا في ظاهرها فقط وهي باقية على حقيقتها وهذا هو الموافق للعقل لان في تلك المياه مواد جيرية مكيفة بحيث لو لمست شيئا لصقت به والبسته ثوبا غير ثوبه وعلى طول الايام تستحجر تلك المواد ومن هذا القبيل ما وجد بعين نابعة جهة كليرمون وساتالبر وساتنكتير من فرانسامتي التي فيها شيء كسي بمادة جيرية على قدر صورته ثم يستحجر وفي اسيا الصغرى بمدينة هير وبوليس عين بسفح الجبل من هذا القبيل تكون عنها شلالات بسفح الجبل وكذلك بعض مياه الامطار التي تبتلعها الارض متى قابلت فجوة في الارض او مغارات دخلت فيها وحدثت عنها اشكال عجيبة وسبب ذلك ان الماء يكون محملاً بحمض الكربون فيصادف في طريقه مواد جيرية فتحللها وتاخذها معها فتصب في مغارة او فجوة صادت الهول الجوي فينصاعد حمض الكربون وترسب المواد الجيرية في هياكل كثيرة وفي بعض المغارات الطبيعية يشاهد في سقفها اشكال على هيئة الابر نازلة الى اسفل وهي حادثة من ماء معدني نفذ في خلال احجارها فيميل الى السقوط نحو ارضها لكن يبقى معلقا زمنا قبل السقوط وفي زمن تعلقه يفعل عليه الهول الموجود في المغارة فيتجزئ ويتخلص حمض الكربون وتبقى المادة

البحيرية وكلما نزلت تقطع حصل لها مثل ما حصل لما قبلها
 فيزداد بذلك الحجم والارتفاع وبعد زمن تكون تلك القطع في
 هيئة ساق ريشة طائر قاعدتها وهي ما غلظ منها يستف المغارة
 ورأسها نحو أرضها وبانضمام هذه الصور الى بعضها يكون لها
 هياآت وأشكال لطيفة وبعد مدة ينسد الثقب ويسيل الماء
 عليها من ظاهرها بعد ان كان يسيل من باطنها وتصير
 مخروطية بعد ان كانت اسطوانية وما نزل منها الى الارض يشكّل
 بأشكال تعلو فوقها وتكون مقابلة للاولى منها ما يكون طويلاً
 ومنها ما يكون قصيراً غليظاً او رقيقاً وبعضها يتصل بالاولى
 او يقرب منها حتى ان من لا خبرة عنده بذلك اذا دخل تلك
 المغارات ورأى تلك العمد على هذه الهياآت ظن ان ذلك من اعمال
 القدماء الذين محبت اثارهم وغابت عنا اخبارهم وامثال ذلك
 كثيرة منها ما هو في مغارات جبال اليربني قرب بينسون من
 فرانس ومنها ما هو بجزائر اليونان بمغارة اثباروس ومغارة حان
 ببلاد الفلنك ومغارة ارسي في بلاد سنول ومغارة كردال ببلاد
 الانكليز وبالمديرية التي بها مغارة حان نهر صغير يجري الى ان
 يصل جبلاً شاهقاً هناك فيسير تحته الفا ومائتي متر ثم يظهر صافياً
 لاكدورة فيه بعد ان كان محملاً بالطين والمواد الارضية
 فالمواد التي كانت فيه شربتها الصخور التي مر عليها فكانه في
 سيره يشي فوق تلك المغارة وهي مركبة من اثنين وعشرين عنبراً

عبارة عن مغارات وأولها تحت الأرض بنحو خمسمائة قدم وطولها
مائتان وعرضها ثلاثمائة وخمسون يقولون إن سبب تلك العنابر
زلازل حصلت من قديم الزمن وفي قاع بعض البرك المعدنية
حجارة عجيبة أصلها رمل يرتفع عند طغيان الماء فتلتف عليه المواد
المعدنية فيثقل ويقع في القاع ويأخذ في الكبر بما يرسب فوقه منها
وبعد مدة يصير صخوراً ضخمة عبارة عن تجمع حجارة كروية
كما رآها ذلك في بركة ويشي وكرلسباد وفي تيفولي قرب رومة



المسامرة (١١٨)

فصحة خارج باريس

وبيناهم في الحديث وقفت بهم السفينة فنزلوا واحضر يعقوب
لهم عربة فركبوا وسارت بهم وسط غابة واسعة أرضها غير متظبة

الى ان وصلوا مدينة عالية البنا واسعة الارجاء تشبه باريز في
طرفها وحوانيتها واسواقها فسأل الشيخ عنها قبيل له انها تسمى
باللغة الافرنجية فتبين بلوأي العين الزرقاء ولها شهرة عند الامة
الفرنساوية وذكر في تاريخهم لما فيها من الاثار الغربية ثم وصف
الخوaja لسائق العربية المحل الذي يقصدونه فسار حتى وقف
ببابه وكان صاحب المنزل غائبا فخرجت لم زوجها وقابلتهم بالبشر
وحيتهم وادخلتهم الى محل الجلوس فاجلستهم وامرت لم بالقهوة
ثم ارسلت الى زوجها فحضر فسلم عليهم ورحب بهم وزاد في اكرامهم
وقال للخوaja لقد طوقتني متنا لا اقوم بشكرها حيث شرفت منزلي
بحضرة الشيخ وولده فاجابه الخوaja بكلمات تستجلب المحبة وتجري
في العادة بين الاحبة وكان ذلك كله باللغة الفرنسية فلم
يفهم الشيخ منه شيئا فلما رأى صاحب المنزل عدم فهمه لكلامه
حول الكلام الى اللغة العربية الا انها بلسان اهل المغرب لانه
اقام بالجزائر عشر سنين فلما سمعه الشيخ قال للانكليزي لقد
فلدتني فلائد الامتان اذ عرفتي بمن يعرف هذا اللسان فقال له
الخوaja هذا بعض ما يجب علينا وسنرى منك في بلدك ما تراه منا
هنا فتبسم الشيخ وقال لانت اعلم مني باحوال بلدي
ثم التفت الى ابنه فرأى سيدة البيت تتكلم معه ايضا
باللغة العربية فقال لزوجها اظن ان الست كانت معك حين
كنت بالجزائر فقال لا ولكنها ولدت بمصر ولم اتزوجها الا بعد

خروجي من العسكرية ورجوعي الى بلدي مرسيليا وهي اعلم باللغة
 العربية مني فقال لها هل كانت اقامتك بالقاهرة نفسها او بقربة
 من قراها فقالت كانت ولادتي باسكندرية وكانت بها اقامتي الا
 ان والدي كان في فصل الشتاء يتوجه الى مصر وياخذنا معه
 فتقيم بها مدة الشتاء بسبب منجر كان له وكثيراً ما سافرت معه الى
 دمياط والمنصورة وطندنا والمولد الاحدي وسافرت معه مرة الى
 الوجه القبلي ورأيت الاثار القديمة التي باسنا وادفو والكرنك
 فقال لها الشيخ لانت بارض مصر اعلم مني فاني لم اسافر الى الجهات
 القبلية بل يظهر ان علمك بملك البلاد اكثر من علم اهلها بها
 فقال زوجها وكذلك كان لما علي حتى التعليم فاني ما تعلمت
 الخط العربي ولا المطالعة في الكتب العربية الا منها لاني حين
 خرجت من العسكرية ببلاد الجزائر كنت لا اعرف الا الكلام
 المتعارف دون القراءة فقال الشيخ وحيث تدبر تعرف الست القراءة
 والكتابة فقالت نعم كان والدي حال صغري يرغب في تعليمي
 اللغة العربية فاحضر لي معلماً فكان يأتيني كل يوم فعلمني
 القراءة والمطالعة وقرأت عليه القران والاجرومية وشرح الشيخ
 خالد في علم النحو وعندني بعض من كتب العربية بخط اليد
 ساطلعت عليها وكان مطي عليه الرحمة بارعاً في فن الخط
 فتعلمت منه الثلث والرقعة والنسخ ولكن الان ضاعت مني القاعدة
 ومع ذلك اكتب خطاً مناسباً واغلب ما اكتبه هنا الخط

الفرنساوي فقال الشيخ هذا من اعجب المصادفات وانسر لذلك
واكثر من شكر الخواجا على تعريفه بهم فقال صاحب البيت ان
فرحنا بك اشد من فرحك بنا فاني مولع بحب مصر واهلها وكثيراً
ما تحدثني زوجتي باخبارها فتزداد رغبتني في التوجه اليها ولا بد
ان شاء الله ان ناسفرا اليها ونجتمع هناك فان الست مشتاقة الى
زيارة قبر اخ لها مدفون هناك بل كلما جاء الشتاء واشتد البرد
وتجردت الاشجار من زيتها وكسيت غصونها بالثلج تحن الى مصر
وطيب هوائها وتذكر كثرة خيرها وقناعة اهلها وما زالوا يتحادثون
في هذا المعرض حتى حضرت المائدة فاكلوا ثم دخلوا البستان
وطافوا في نواحيه فكانت الست تتكلم مع ابن الشيخ فتارة تصف
له ما يستغربه من الشجر والنبات وتارة تحادثه في مصر واحوالها
الى ان رجعوا فقال صاحب المنزل للشيخ لا بأس ان تستريح هنا
من وعناء السفر واخذ بيده وادخله غرفة مهيأة وقال له كن
عندنا كما تكون في بيتك وها هو انطوان الخادم تحت امرك وطوع
يدك ونادى انطوان وامره بطاعة الشيخ في كل ما يريد وكان
يعرف اللسان العربي تعلمه بالجزائر فشكر الشيخ هذا الصنيع ودخل
الغرفة ونزع ثيابه وطلب ماء فتوضأ وقام فصلى ثم نام فلما اصبح
دخل عليه ولده وقبل يده كعادته فقال له والده ماذا رأيت
في هذا المكان وكيف صحتك فقال احمد الله على كمال الصحة
ووالدي كيف كان نومه الليلة فقال من احسن ما يكون وشتان

ما بين هوآ هذه الدار وهوآ مدينة باريز وان شاء الله تقيم هنا مدة
 فقال لابيہ وماذا تصنع في الدرس الذي وظفته على نفسك فقال
 ان ها الا يومان في الجمعة وقد اخبرني حضرة الخواجا ان بين ما
 هنا والمدرسة باريز بعض دقائق في السكة الحديدية فتوجه
 للدرس ونعود مع الخواجا فرح ابنه بذلك لانه كان يجب الاقامة
 باريز لكثرة ما بها من المستغريات

ثم حضر الخواجا الانكليزي وبعد ان سألہ عن صحبہ
 قال يلزم ان تقسم الايام التي تقيها هنا على الاشياء التي
 تحب ان تراها فهل تجعل وقت التفرج قبل الظهر ام بعده فقال
 الشيخ الامر لك فانك بذلك ادرى ولكن اظن ان جعلها بعد
 الظهر اولى لنجعل ما قبل الظهر للمراجعة والتصحيح واقفهم صاحب
 البيت على ذلك ايضا وقال ان اكثر التفرج يكون في الغابة
 فتارة نمشي على الاقدام وتارة في العربة بحسب قرب الاماكن
 وبعدها وتارة نستعمل الاثنتين معا وقد اخذت من الان في
 ترتيب الفرَج وكيفيتها حتى تطلعوا على جميع ما يلزم
 فكانوا كل يوم يخرجون على هذا النسق وكانت تخرج صاحبة
 المنزل مع ابن الشيخ ويخرج زوجها والخواجا مع والده واقاموا نحو
 شهرين على هذه الحال حتى نسوا ألم الغربة وفراق الاهل والاحبة
 لان ابن الشيخ كان عند صاحبة المنزل بمنزلة اولادها خصوصا
 وقد كانت تعلمه اللسان الفرنسي وتشرح له جميع ما يقع عليه

نظرة مع الفصاحة والمعرفة ولكن ما انساه حب باريز واهلها
 زيادة الابنة لم تسمى مريم كانت تدخل وتخرج معه وكانت ذات
 حسن وجمال وقد واعندال تنجل البدر بطلعتها تعلق قلبها به
 وتعلق بها فكانت تهواه ويهواها ويرى خيالها اذا غابت عن عينيه
 حتى كان اذا جاء يوم التوجه الى باريز للدرس جعل جعل ثلاث
 موجبة للتخلف بعد ان كان لا يومتر شيئا على التوجه الى باريس
 فكان يترك والده مع يعقوب عند الست وينهب الى الدرس
 فيكون تارة مع الست وتارة مع البنت ويقضي الاوقات في انواع
 المسرات وازداد افتنانه بالبنت وتمكنت بينها الالفه وكان كما
 قال القائل

تولع بالعشق حتى عشق فلما استقر به لم يطق
 رأى لجة ظنها موجة فلما تمكن منها غرق

وفي ذات يوم توجه والده الى باريز للدرس واخذ معه يعقوب
 وترك ابنه في البيت فامرت الست خادمها انطوان ان يخرج به
 وباولادها الى التنزه فاركبهم جميعا عربة وسار بهم واخذ برهان الدين
 ومريم باطراف الاحاديث والمفاكهة ثم نزلوا ومشوا وهي تحادثه وتساله
 عما اعجبه في فرانس وبجيبها وهو غريق في بحار جمالها الى ان وصلوا
 هضبة كسيت بالاشجار ونبع ماؤها من بين الاحجار فصعدوا عليها فكانت
 مريم تروي برهان الدين نهر السين والبلاد التي عليه والطرق الموصلة
 لباريز فكان نظره في خلال وصفها لا يفارق وجهها وكذلك هي

لا تنظر عن النظر اليه كما قال الشاعر

نظر العيون الى العيون هو الذي

جعل الهلاك الى الفؤاد سبيلا

ثم وصلوا الى مخدع سقفه غصون الاشجار وفرشه انواع العشب
والازهار فاطمأنوا فيه برهة ثم نزلوا من فوق الآكمة وداروا في ارجاء
الغابة الى ان وصلوا فضاءً بين ثلاث اكمات فصعدوا احداها
فراى برهان الدين حول الغابة ارضاً منزرعة ليس فيها شيء مما في
الغابة فسأل الخادم عنها فقال هذه الارض كانت قبل الان مغطاة
بالاشجار المرتفعة وفي كتب التاريخ ان اشجارها كانت متواصلة
وكما تعطف الى الشمال تزداد التحاماً والتفافاً وارتفاعاً والارض
الخالية من الاشجار كانت بركاً ومناقع كما قاله استرابون فكان
البرد يزداد بسببها حتى يبلغ درجة يعسر معها نبت شجر الزيتون
والعين والعنب ولم تكثر بها الزراعة الا بعد استيلاء الدولة
الرومانية عليها فزرع بعضها وبقي بعضها غابات ياوي اليها
الفارون من ظلم الرومانيين فلما انت دولة القوم المتبريرة وهم
الالمانيون وذلك سنة ٢٥١ للميلاد واستولوا على ارض الجول قسم
روم ساوهم تلك الغابة بينهم وابقوها على ما هي عليه وجعلوها محلاً
للصيد ومنعوا غيرهم من الصيد منها وجعلوا قصاصات شديدة على
من يخالف ذلك فكان كل من قتل حيواناً يقتل فيه فكثرت
بها السباع والوحوش والضباع حتى كانت تقترب الناس وتفسد

عليهم زرعهم ويهلك ضرعهم من غير ان يكون في قدرتهم منها
فكان نصف الارض للوحوش ونصفها الاخر تشارك فيه الاهالي
لانها كانت تسطو عليهم فتهلك الاطفال والزرع وتقطع السبيل
ومن شغف الملوك والامراء بها كانوا يتهادون بها فيما بينهم فمن
كان في قسمه وحش ليس في قسم الاخر هاداه به فيرسله في غابه
ويجلى سبيله ليتج فيها ويكثر واستمر الامر على هذه الحال الى
القرن الرابع عشر من الميلاد ثم اخذت الغابة في النقص وارض
الزراعة في الزيادة وبعد ان كانت هذه الغابة وغابة وانسين
وبولونيا متصلة ببناء باريز صار بينها وبينها ما ترى هذا حاصل
ما قيل في هذا المكان وما كان عليه من اول الامر الى ما هو
عليه الان

قال ابن الشيخ هكذا الدهر كله عبر ولكن لمن تأمل واعتبر
الدهر لا يبقى على حالة فطوراً يضر وطوراً يسر



المسامرة (١١٩)

القطن

ثم رجعوا وكان برهان الدين متغيراً مشغولاً بالخاطر بالغرام ولما
وصلوا وجد والده مع الخواجا موريس تيمشيان في طرف البستان
قريب شجرة ارتفاعها نحو خمسة امتار وهي كثيرة الاغصان والورق
وعليها ما يشبه القطن الهندي وكان بيد والده شيء من ثمرها فناوله
لابنه وساله عنه فقال هذا يشبه ثمر القطن فقال الخواجا موريس
هذه هي شجرة القطن التي تنبت في الهند والصين
فقال الشيخ ان القطن يزرع بمصر ولكن لا يكبر لهذا الحد
فان غاية ارتفاعه متر ونصف او متران ومع ذلك ثمره اكبر من
ثمر هذا

فقال الخواججا موريس انواع القطن ثلاثة احدها يكون
 شجراً كهذه ولوزة قليل ولكنه اجود الانواع والثاني النوع الهندي
 وهو الذي يزرع بارض مصر والثالث نوع اقصر من الهندي
 واغصانه تمتد على الارض ويعطي محصولاً كثيراً ثم تأمل في
 الحوض الذي فيه شجرة القطن فوجد النوعين الاخرين وبقرتها
 التيل والكتان فقال هذه النباتات المباركة ورتت لنا من الشرق
 فالتيل ورد لنا من جهات العجم ومن زمن قدم يزرع باوروبا
 واول من زرع الكتان المصريون كما قال مرسيانوس وفي زمن
 موسى بن عمران كانت اقمشة الكتان معروفة وفي زمن الرومانيين
 كان المدوح اقمشة الكتان المصرية وفي جميع الجهات قبل اشتهار
 زراعة القطن كان لباس الناس الكتان او الصوف ولكن الان
 صار القطن هو المستعمل غالباً لكثرة زرعه في الجهات فبعد
 ان كان لا يوجد باوروبا اصلاً كثر الان حتى صار يزرع في
 الجهات الجنوبية من ايطاليا وفي بلاد الاندلس وجزيرة صقلية
 وجزائر اليونان فقال الشيخ ان اول من ادخل في مصر القطن
 الذي هو بها الان المرحوم محمد علي باشا وقبل ذلك كان يزرع نوع
 منه يعرف بالقطن البلدي كانت الاهالي تزرعه حول اراضيها
 وفي قطع ارض قليلة فتأخذ الاغنياء منه لكبس المساند والوسائد
 والطوالات وكان بعض الاهالي يغزلونه ويصنعون منه اقمشة غليظة
 للملابس وما يتعجب منه ان الاهالي لم تزرع القطن الهندي الا

برغم انها بعد ان عين المرحوم محمد علي باشا لذلك مفضلين
 وحكاما وعين مقادير تزرع كل سنة في كل جهة وتوعد كل
 من تاخر في شيء من ذلك بالعقاب الشديد فكانوا يعدون ذلك
 از ذاك ظلما فلما علموا فوائده رغبوا فيه بانفسهم ولولاه ما امكنهم
 التحصل على ما يسددون به ما يطلب منهم للميري وغيره

فقال الخواجا هكذا كان حالنا مع اهل الجزائر وحصل مثل
 ذلك ايضا في جهات كثيرة وفي الازمان القديمة كانت هذه التباة
 النافعة معلومة في بلاد الهند وكانت تنبت وحدها بارض مصر
 والشام وبلاد العجم وهي التي تكلم عليها استرابون الجغرافي وبلين
 المؤرخ وسمياها صوفا حيث قالوا انه يوجد في هذه البلاد الصوف
 على الاشجار بكثرة وكان قسيسوا مصر في زمن الفراعنة والبطلموسيين
 يجعلون منه الملابس الرسمية وثيابه معروفة في الهند وقد تكلم
 عليه المؤرخون كثيرا وكانت العرب تجر به الا ان اليونان
 والرومانيين الى اخر القرن الاول من الميلاد كانوا لا يعنون
 به في الملابس بل كانوا يلبسون حسب درجاتهم فبعضهم يلبس
 الكتان وبعضهم الصوف وبعضهم الحرير وبقية اوروبا ثلاثة
 عشر قرنا ميلاديا لا تعرف القطن ولا اقمشته وإنما كانوا يستعملونه
 فتائل للقناديل

وفي سنة ١٢٥٢ ميلادية ظهر ببلاد القريم والمسكوف وكان يجلب
 اليهم من بلاد التركستان وكان له في تلك الازمان ورش ببلاد

الارمن والعجم ولم يعرفه الصينيون الى اخر القرن الثالث عشر مع
 انهم بجوار الهند ومن ذلك الوقت اشتغلوا بزراعته اشتغالا كلياً
 حتى تركوا من اجله جميع المزروعات وتسبب عن ذلك قحط لم
 يسمع بمثله فصدرت اوامر سلطانية بتحديد قدر ما يزرع منه ومنع
 الزيادة عليه وعقاب من تعدى بالموت قتل الاختفالى به
 شيئاً فشيئاً حتى صار يزرع ما يلزم لاهالي تلك المملكة منه
 وفي وقتنا هذا يشترونه من خارج مملكتهم وقد حصروا ما يحصل
 لهم من زرعه كل سنة فوجدوه خمسمائة الف بالة وذلك عبارة
 عن خمسة وسبعين مليوناً كيلوجراماً وهذا قليل جداً بالنسبة
 لما يكفي لوازمهم فحصروا ما يرد اليهم مخلوجاً من جهة الاينازوني
 فوجدوه خمسة واربعين مليوناً كيلوجراماً غير ما يرد منها ومن
 الهند مشغولاً وذلك نحو عشرة ملايين كيلوجراماً فجميع محصول
 زراعتهم وما يرد لهم من الخارج مشغولاً وغير مشغول نحو مائة
 وثلاثين مليوناً ولا شك ان هذا القدر قليل بالنسبة لهم لان
 عدد اهالي بلادهم يبلغ نحو اربعمائة مليون ويؤخذ من سير
 السياحين ان تسعة اعشار الاهالي من نساء ورجال يلبسون
 القطن وكلهم يجعلون منه بنطلونات واسعة فاذا اعتبرنا ذلك
 مع ما يستهلكه كل شخص من جهات الدنيا غيرهم يمكن
 ان نحكم بان قدر القطن المصنوع في ورش الصين والورد
 من الخارج يقرب من سبعمائة وخمسين مليوناً كيلوجراماً اي

قدر ما يستهلكه اهل اوروبا بتمامها والابتازوني من
الامريكا

والى الان لا يعلم قدر ما تستهلكه اهل الهند بالضبط بل
اختلف فيه المؤلفون وقدر لكل شخص من المائة والخمسين
مليوناً من الاهالي عشر ليورات انكليزية وباء على ذلك جعل
اللازم لهم من القطن الفاً وخمسة مائة مليون ليورة في
خصوص الكسوة ونحوها خلاف الاشياء التي تصنع منه
ثم ان وجود القطن في الازمان القديمة بجهات امريكا
لا شك فيه والدليل على ذلك ان اكان الموتى الذين اخرجوا
من قبورهم كانت من القطن

ولما استكشف كريستوف كولومب الامريكا وجد اهلها لاسين
من اقمشة القطن ولما استكشف الشهير فيرناند كورتيز ارض
المكسيك وجده مزروعاً بها وارسل الى الملك شركان هدية
من اقمشتهم منه وكانت مناديل وثياباً ملونة باجمل الالوان
متقنة الصنعة والصبغة وقد قيل انه كان يصنع بهذه البقعة
ورق الكتابة من القطن في سالف الازمان وكذلك كان القطن
معروفاً عند اهالي بربيزيليا كما اشار الى ذلك ماجيلان الملاح عند
استكشافه البغاز المسي باسمه ووجد السياحون شجرة القطن ناجة
بنفسها بشواطئ نهر المسيسيبي

فقال الشيخ وقد وقع لي بعض رسائل في هذا المعنى فرايت

فيها ان هذه اشجرة كانت معروفة ببلاد الاندلس ايام كانت
 في يد المسلمين وانها كانت تزرع في جهات كثيرة منها وكان
 نسجه معامل في مدن عديدة منها كغرناطة وكوردو وغيرها
 وكانت اُتسب اُتسب اُتسب اُتسب اُتسب اُتسب اُتسب اُتسب اُتسب اُتسب اُتسب
 وكانت اُتسب اُتسب اُتسب اُتسب اُتسب اُتسب اُتسب اُتسب اُتسب اُتسب
 وحيث كانت الاندلس من اوروبا فلا بد ان الاوروباوين
 انما اخذوا منافع هذه الشجرة عن الاندلسيين وقد سمعنا من
 ساحول بافريقية الداخلية وبلاد الحبشة ان القطن ينبت في
 ارضهم بنفسه

فقال الخواجا ان ذلك حق فان السياحين كتبوه
 وذكروا انه يوجد بالسواحل القريبة من افريقية مثل ارض السينيغال
 وعتام وغيرها

واما وجوده في اوروبا فكان في اواخر القرن العاشر
 وكانوا قد اخذوه عن العرب ولكن كان غير مستعمل بسبب
 اوهام دنيئة كانت تدخلها الصاري على الناس لكرهتهم في دين
 من نشر زراعته

واول ظهور معامل نسجه كان في اواخر القرن الرابع
 عشر من الميلاذ ببلاد ايجاليا واول من نقل منه الى بلاد الانكليز
 تجار البندقانيين

وفي سنة الف واربعمائة وثلاثين ابتدا ظهور اقمشته ببلاد
 الانكليز ورغبت فيه الناس وكثرت معاملته من حبشذ الى سنة

الف وستائة واثنين وخمسين كان لا يلبسه غير الخدم والرعا
 والى سنة الف وسبعائة وثلاثة وسبعين كانوا يجعلون منسوجاتهم
 قيامها من الكتان واللحمة من القطن ومع ذلك لم يكثر
 كثرة عظيمة الا من وقت ورود محصول امريكا الى
 بلاد الانكليز

وما يستغرب من امر القطن ان اول من زرعه بكثرة بامريكا
 لتجارة قوم مهاجرون من اوروبا استوطنوا راس فيار من ارض
 الفلوريد ولما رأت الاهالي نجاحه اخذوا يزرعونه واكثروا منه
 شيئا فشيئا الى ان صار اساس الزراعة بامريكا الجنوبية والشمالية
 واولا كانوا يزرعونه خطوطا متباعدة ثم راوا ان التقارب يفيد
 محصولا اكثر فصاروا يقربون الخطوط من بعضها ويمدونه فزاد
 المحصول وحسن الزرع ومكثوا زمنا يفضلون في تقاويه البذر
 المجرد عن الوبر ثم اتضح لهم من تجارب عديدة ان البذر المكسو
 بالوبر اكثر محصولا واجود لانه اكثر شعرا واصغر بذرا فمن
 ذلك العهد صاروا لا يستعملون الا البذر المكسو بالوبر ثم تحصلوا
 على نوع منه طويل الشعر ذي صلاحية ونعومة فوجدوه اجود
 انواعه لان شعره يتصل بعضه ببعض في النسيج بسهولة ويتيسر
 تدقيق غزله الى الغاية المطلوبة وقد تحصلوا من نصف كيلوجرام
 من قطن السيلان على فتلة رقيقة جدا بلغ طولها قريبا من ثمانين
 فرسخا وقطن مصر من هذا الجنس الطويل الشعر والذي جلب

لهم بذره رجل فرنساوي اسمه جوميل سنة ١٨٢٠ بامر المرحوم
 محمد علي باشا فأتى به من دنقلا ببلاد النوبة ثم جلب بذراً من
 الجويرجي من أمريكا من قطن يسمى بقطن سيا اسلند اي قطن
 الجزائر (وقد حرفتم الكلمة وقلتم سيلان) وهو احسن الموجود
 المرغوب فيه كثيراً بالفوريقات ولذلك تزيد قيمته علي غيره بنحو
 الربع بل اكثر

فقال الشيخ انواع القطن بمصر كثيرة مختلفة لونا وحجبا فهنا
 الاسمر والابيض والاصفر والاهالي لا تفرق بينها بل كل ينزر
 بارضه ما تيسر له من غير تحرر ولكن الان ابتداءً ان يميزوا بين
 الانواع وتشبهوا لزراع السيلان وكثير منهم لا يزرع الا ما لبذره
 وبر لما راوا من فائدته وتركوا البذر الاسود لانه قليل المحصول
 وسمعت من بعض الناس ان القنطار من ذي البذر الاسود اذا
 حلج يخرج منه تسع كيلات بذراً ومن ذي الوبرخس ووزن
 البذر الثلثان والشعر الثلث

فقال الخواجا ان اللون الاقطن النابتة بسواحل الكارولين
 الجنوبية والجويرجي تميل الى الصفرة بخلاف النابت داخل ارض
 تلك الجهات فانه ابيض ناصع واقل من الاول جودة لقله صلاحته
 فلا يتحصل منه على الغزل الدقيق ولون اقطان الهند يقرب من
 لون الزبدة الطرية واما اقطان الجهات المشرقية كقطن بنغال
 ومدراس وازمير ووردس وسالونيك فضعيفة اللون باهتة وقد

حللوا ببلاد الانكليز تراب عود القطن وبعد حرقه وجدوا في
 المائة جزء اربعة وستين جزءاً من المواد القابلة للذوبان في الماء
 وهي ٤٤ و ١٨ كربونات البوتاسه وعشرون اجزاء موريات البوتاسه
 وتسعة اجزاء سلفات البوتاسه ووجدوا الباقي وهو ستة وثلاثون
 جزءاً لا تذوب في الماء وهي تسعة من فوسفات الجير واحد
 عشر كربونات الجير وثمانية عشر فوسفات المغنيزيا وثلاثة اجزاء
 بروتو اكسيد الحديد والباقي من الشب وبناء على هذا التحليل
 يظهر سبب جودة خواصه في سواحل الجزائر المختاطة بالبحر الملح
 وفي بعض الجزائر يسمونه بالطين المخرج من قاع البرك المالحه
 كالطين الذي يخرج من قاع بركة المنزلة مثلاً وفي جهة الكارولين
 يستعملون في السباخ الجيراو الطين الذي يرسب في قعر البرك
 والمخجان بعد نضوب مائها

فقال الشيخ الاهالي عندنا كانوا لا يعرفون امر تسيخه والان
 عرفوه واستعملوا لذلك اتربة التلال القديمة وما يخرج من تحت
 البهائم وحميقة وجدوا تسيخه فائدة عظيمة

ثم قال الخواجا وشجرة القطن تعيش في الهند اربع سنين او
 خمسا وفي اليازوني سنة واحدة وابتداء جنيه اول شهر سبتمبر
 ويستمر الى اخر السنة فاذا جاء الثلج مات لوزة وكلما قلت صعوبة
 الشتاء وقصر زمنه كان محصول القطن كثيراً واذا فتح اللوز رايت
 كأن الارض بستورة بثوب ابيض والعبيد هم الذين يجمعونه من

روءوس اشجاره فيشتغلون من الصباح الى المساء ويرخص لهم في ترك الشغل ساعة وقت الزوال للاستراحة والاكل وذلك في غير وقت الصيف فيه يرخص بساعتين ويرخص لهم ايضا بالذهاب الى منازلهم لياكلوا فيها ويعطى لكل عبد مقدار من الذرة او من الارز ومقدار من العسل والسك ولحم الخنزير ويؤمن لهم في اخذ بعض فواكه من الاشجار ومدة بذره تستمر من اول شهر مايو الى نصفه وبعد تمام زرعها يشتغل العبيد ايضا بتقنيته من الحشائش الغربية والشغل عندهم بالمقطوعة ويعطى لكل عبد قطعة ارض يزرعها ما شاء ويتفع بما يخرج منها اما يبيعه لسيده او انه يرعى فيه ماشيته وفراخه وما اشبه ذلك ومن ثا يتحصل العبد على بعض دراهم يشتري منها ملابسها وما يلزم له فجميع اشغال القطن على العبيد فلذا يقتنون العبيد بكثرة فقد يجتمع عند بعضهم نحو الفى عبد فتراهم عند توجههم الى الشغل يكونون فرقا الفرقة عشرون عبداً او عشرة وعلى كل فرقة رئيس منهم او من غيرهم فان كان منهم كان شديد القسوة ويخافونه والمفروض على الرجل منهم في كل يوم ان يجمع مائتي ليورا وعلى كل صبي من ثلاثين ليورا الى اربعين وكل ما جمع يوضع بالمخزن عند غروب الشمس

وكان الناس في مبداء الامر يفصلون الشعر من البذر بايديهم فكان الشخص الواحد يفصل في اليوم ليورا واحدة من الشعر ووزن البذر ثلثا وزن الاصل

ولما رأوا صعوبة ذلك اخترعوا دواليب الجلاحة وبها تمكن
الرجل ان يمشي في اليوم الواحد ثلاثين كيلوجرام ثم اخترعت الآلات
تدور بالحيوان او بالماء فصار يحصل بواسطة ثلاثة أشخاص اربعمائة
وخمسون كيلوجرام في اليوم الواحد ثم في سنة ١٧٦٢ اخترعت
الآلات احسن من تلك واستعملت الى الان في جميع أمريكا
الجنوبية

وبعد انفصال الحب من الشعريثون الشعر ما خالطه من الاجسام
الغريبة بتفه في دواليب اسطوانية تدور بسرعة ثم يكبسونه بمكابس
في اكياس تجعل بالآلات وينقلونه في مراكب بنهر المسيسيبي الى
اورليان الجديدة وهناك كل من له شيء يضع عليه اسمه وثمرته
وهكذا فمن يرى المدينة من بعد يراها كأنها مدينة من القطن
مقسومة حارات ممتدة مسافة عظيمة

وقد علم من دفاتر الاحصاء ان قدر العبوات المتحصلة من
زراعة جهات الجنوب كل سنة خمسة ملايين بالة
فقال الشيخ هل يمكن معرفة مقدار القطن المتحصل من كل
بفاعة الارض

فقال الخواجا يوهن من دفاتر الاحصاء سنة ١٨٥٨ ميلادية
انه تحصل ١١٤٠٠٠٠٠ بالة ووزن الباله يختلف من مائة
وثمانية وستين كيلوجرام الى مائة وسبعين اي وزن محصول سنة
١٨٥٨ كان ١٩٣٦ مليوناً و ٦٧٥ الف كيلوجرام وبيان

١٤٩٥

محمول	كيلوجرام
الايمازوني	٥٨٨٠٠٠٠٠٠
البريزل	٢٣٧٠٠٠٠٠٠
جهات من اميركا الجنوبية	٩٠٠٠٠٠٠
الهند الشرقي	٤٢١٠٠٠٠٠٠
بلاد الصين وبلاد سيام	٧٥٠٠٠٠٠٠٠
بلاد مصر	٢٩٤٥٠٠٠٠٠
بلاد الجزائر	١٨٠٠٠٠٠
سياراليونا من افريقيا	٤٥٠٠٠
بلاد التركستان والقرني	٥٠٠٠٠٠٠٠
جهات من افريقيا	٢٠٠٠٠٠٠٠٠
اوروبا الجنوبية	٦٠٠٠٠٠٠٠٠
كيلوجرام	<u>١٩٣٦٦٧٥٠٠٠</u>

واول ظهور قطن امريكا ببلاد الانكليز كان في سنة ١٥٦٩
 واكثر من استغل به اهل مدينة منشستر في المركز العمومي لصناعة
 القطن وتجارته في جميع بلاد الانكليز وبعد ان كان عدد اهلها
 في القرن السابع عشرين الف نفس اتسعت حتى بلغ اهلها الان
 زيادة عن اربعمائة الف نفس واتداه صناعة القطن بها سنة ١٧٨٩
 ايام ثورة الفرنسيين الاولى ومن ذاك العهد اخذ يظهر في المدن
 المجاورة وفي مدة قليلة كثرت ورشه وصارت تلك البلاد مدناً

عظيمة بعد ان كانت قرى صغيرة لا يلتفت اليها وبلغ اهلها من
الثروة اعلى درجة وفي مبداء الامر كانت انواله متفرقة في جهات
كثيرة وكان كل صاحب نول يشتري لنفسه ويحجر بمصنوعه فكان
يحصل لم تعطيل وضياح اوقات فتيقتت اهالي منشستر الى ذلك
وتحلت حتى احكرته وصار فيها الان نحو مائتي ورشة تدور كلها
بالبخار وعدد الشغالة يبلغ الفا وخمسة نفس في الورشة الواحدة
ويوجد غير ذلك مائتا ورشة للغزل فقط وهذا غير ورش كثيرة
بالضواحي ولو حصرنا الورش الموجودة في المدينة وضواحيها مع
جميع الورش المختصة بالغزل والحباكة في جميع بلاد الانكليز
لوجدنا الثلاثة الاخماس لهذه المدينة ويحصل من اثمان ما يصنع
فيها ويوزع على جميع الجهات والاقاليم نحو الف مليون من
الفرنكات كل سنة ومقدار ما يدخل في ورشها من القطن الشعر
كل سنة مائتا الف طن اي اربعة ملايين واربعمئة الف طن
مصري وجميع ذلك وارد من مدينة ليوربول لانها الميناء العمومية
لهذا الصنف وكانت الورش في بادئ الامر تدور بالحيوان ثم
كثرت الاختراعات لتسهيل صنعته ولم توجد الواپورات الا سنة
١٨٢٠ وسنة ١٨٢٣ فتاب الواپور مناب الآلات القديمة جميعها
وقبل كثرة زراعته بامريكا كان يرد لمعامل اوروبا من الهند التابع
للانكليز ومن الاندلس ومن نابولي من ايطاليا ومن المرتينيك
وغواديلوب التابعين لفرنسا وقبل قليل كان يجلب من جزيرة صقلية

وبعد اشتهاره بأمريكا تركت أكثر هذه البلاد زرعه لكثرة تكاليفه
ورخص الوارد من أمريكا لقلة المصروف عندهم لان عبيدهم تشتغل
تقريباً بلا أجره والجهات التي تزرعه الان الهند الانكليزي ومصر
والدول الأجنبية من أمريكا وجهات من بلاد المشرق

فقال الشيخ علي حسب ما نسمع ببلادنا ان أكثر الأقمشة
الواردة اليها ولسائر جهات الدنيا هو من ورش الانكليز وجزء
قليل من ورش الدول الأوروبية وذلك يقتضي ان يكون
عدد الورش بملك المملكة والشغالة بها شيئاً كثيراً جداً

فقال الخواجا قد استحوذ الانكليز على جميع انواع التجارة لا
سواء تجارة القطن ففي سنة ١٨٥٠ حرز كشف بامر البرلامنتوا تضح
منه ان الورش بالمملكة كانت الفاً وتسعمائة والشغالة ٢٢٢١ الف
شخص وان ما يرد لهذه الورش من قطن الشعر ٢٧٧ مليون
كيلوجرام ويخرج منها اقمشة وغزل ٢٤٧ مليون كيلوجرام يباع
منه على البلاد الأجنبية ١٧٤ مليون كيلوجرام ويستهلك في
داخل البلد على الاهالي ٧٢ مليوناً باعتبار ان كل شخص يستهلك
كيلوغرامين ونصفاً وفي تلك الازمنة كان جميع ما يخرج من بلاد
أوروبا لا يعدل عشر ما يخرج من بلاد الانكليز فكان ما يخرج
من بلاد فرانساسته ملايين كيلوومن بلاد السويس سبعة ملايين
ومن باقي أوروبا مليونين فقط ومع ذلك فلم تقف الانكليز عنده
بل اجتهدت كل الاجتهاد حتى صار عدد الورش سنة ١٨٥٦

الفين ومائتين وعشرة وكانت القوة المستعملة في ادارتها ٩٧ الفا و١٢٢ حصانا منها بالبخار ٨١ الفا وبالماء ٩١٢٢ وهذه القوة تعادل مليوناً ونصفاً من الرجال وقد بلغ عدد الشغالة بالورش في تلك المدة ٢٨٠ الف نفس نساء ورجالاً صغاراً وكباراً والمشتغلون بتجارته بانواعها ببلاد الانكليز يقربون من مليونين اي جزء من اربعة عشر جزءاً من الامة الانكليزية وما من يوم الا وتظهر ورش جديدة ويزيد ما يصنع بها ومن ثم ترى الاجتهاد متزايداً في جلب القطن الشعر الى الورش ففي سنة ١٨٥٧ بلغ الورد لها اربعمائة مليون كيلوغرام صنع منه ٢٦١ مليوناً قمشة وخرج منه غزل ٨٥ مليوناً والباقي وهو ١٨٤ مليوناً صنع شيتا وغيره وخرج للتجارة واستهلك في البلد ٩٢ مليوناً وتحصل من ذلك ١٤٢٨ مليون فرنك وقدّر بعض العارفين قيمة جميع ما صنع من القطن ببلاد الانكليز سنة ١٨٥٦ بنحو ٦٥ مليون جنيه يخرج منها قيمة القطن الخام المشتري اربعة وعشرون مليوناً فيبقى للرج والمصاريف نحو اربعين مليوناً وقد قارن بعض المهندسين بين عمل الآلات والادوي فوجد انه لو بقي الامر في صناعة القطن على عمل الرجال للزم لذلك واحد وتسعون مليوناً من الرجال وذلك قدر اهالي فراسا والبروسيا والنمسا واحصى بعض المؤرخين جميع ما يصنع من القطن بجهات اوروبا فوجد ما يصنع منه ببلاد الانكليز مليون ونصف مليون بالة وفي فرنسا ٢٣٦ الف بالة

وفي بلاد الفلنك وبلجيك ٥٩ الف باله وفي باقي بلاد اوروبا
١٤٧ الف باله وفي المانيا ٢٤٩ الف وفي الروسية ١٢٠ الف باله
فجميع بلاد اوروبا لم تصنع الا ثلاثة اخماس ما تصنع بلاد الانكلير
وفي سنة ٥٧ كان مصنع بلاد الانكلير ضعف مصنع
جميع بلاد اوروبا تقريبا لانه كان الوارد في هذه السنة الى جميع
بلاد اوروبا من جميع الجهات قريبا من ثلاثة ملايين بالات
قطن الشعروفي السنة المذكورة كان محصول الازواروني وحدها
ثلاثة ملايين من البالات نصفه يسافر الى الانكلير والربع يبقى
في البلد يصنع في فوريقاتها والربع يوزع على سائر جهات الدنيا وقد
امعن بعض المؤرخين النظر فيما يرد للانكلير من بلاد الازواروني
فوجده آخذاً في القصر عدم وفي الزيادة في باقي الجهات مثلاً
وجد متوسط الداخل الى بلاد الانكلير في مسافة ستين من ابتداء
سنة سبعة وعشرين ٥٩٦ جزءاً من الف من محصول الازواروني
والموزع على الدنيا جميعها اربعمائة واربعه اجزاء من الف وفي السنين
الخمس التالية الى سنة ٢٨ كان وارد الانكلير ٥٦٥ والموزع على الدنيا
٤٢٥ وفي السنين الخمس كان وارد الانكلير ٥٢٨ والموزع على
الدنيا ٤٦٢ ومن سنة ٤٥ الى سنة ١٨٥٠ كان وارد الانكلير
٥٠٦ والموزع على الدنيا ٤٩٤ ثم من سنة ٤٨ الى
سنة ٥٠ كان داخل الانكلير ٤٨٧ والموزع على الدنيا
٥١٢ فيعلم من ذلك ان صناعة القطن اخذت في التقدم في

جميع جهات الدنيا وقد نسبوا الوارد من القطن لفرنسا الى الوارد منه الى الانكليز فوجدوا النسبة بينها كنسبة مائة الى ٤٧٩ ونسبوا ما تصنعه الايتازوني في ورشها الى ما يصنع في ورش فرنسا فوجدوه كنسبة ١٧٢ الى ١٠٠ ونسبة المستهلك في ورش الانكليز الى المصنوع في ورش الايتازوني من محصول تلك البلاد كنسبة ٢٧٢ الى ١٠٠ ونسبة المصنوع في الايتازوني الى المصنوع في اوروبا كنسبة ١٠٠ الى ٤٥٢ ومن سنة ٥٠ الى ٥٧ ورد ثلثا محصول الايتازوني الى الانكليز والثلث لجميع جهات اوروبا منه الى فرنسا ثلثه وثلثاه لباقي اوروبا ومن تامل حركة الورش وقوتها ببلاد الانكليز حكم بان في قدرتها ان تكفي جميع اهل الدنيا وليس في طوق دولة من الدول مشاركتها في تجارة هذا الصنف وصناعته لانها باستعداد ورشها وكثرة مراكبها وقوة الاتها يمكن لها ان تنقص السعر حتى لا تتجاسر دولة على مجاراتها مع ان مدة الشغل عندهم عشر ساعات ونصف بخلافها في الدول الاخر فانها اثنا عشرة ساعة بل ثلاثة عشر وفي سنة ١٨٥١ كان قدر المصنوع من القطن باوروبا والايتازوني ٤٨٥ مليون كيلو وقيمة ذلك بلغت ثلاثة الاف مليون فرنك فزاد قدر المشغول سنة ٥٧ حتى بلغ سبعة وخمسين مليونا وبلغت قيمته اربعة الاف مليون من الفرنكات من ذلك قيمة القطن الخام ثمانمائة مليون من الفرنك وقدر

ربا المال المنصرف ثلثائة مليون فيبقي للارباح والاجر المتنوعة
٢٩٥٠ مليوناً من الفرنك

ومقدار الشغالة بورش اوروبا والامازوني ١٢٥٠٠٠٠
نفس وباعتبار اجرة الشخص في السنة الواحدة خمسمائة فرنك
يكون المدفوع للشغالة كل سنة ٦٢٥ مليوناً من الفرنك
ومن حين انتشار هذه النبائة والتفات الناس اليها قل
زرع الكتان والتيل وصار اغلب الملابس والفرش منها بواسطة
الالات المخترعة للغزل والنسج حتى وصل سعرها الى قبية واهية
ولذلك تمكن الفقير من شرا ما يقبه البرد بادنى القبية وانتفع بذلك
عموم الناس لانا نعلم في التاريخ انه في سنة ١٨١٦ كانت قبية
الكيلو ١٢ فرنكاً وفي سنة ١٨٢٤ نزلت الى سنة فرنكات ثم في
سنة ١٨٥١ نزلت الى ثلاثة فرحم الله من عرف الناس بشجرة
القطن ومن علمهم زرعها وصناعتها وعلى الاوروباويين ان
يشكروا فضل العرب انا الليل واطراف النهار فانهم هم
الذين نقلوهم من خشونتهم الى السعادة التي هم فيها الان

المعامرة (١٣٠)

الثمار

ومن حق النظر في الأشجار والنباتات المغروسة في هذا
البيستان وجد أكثرها إنما وصل إلى هنا من بلاد العرب أو من
بلاد المشرق بواسطة السياحين مثلاً شجرة البرقوق هذه
أصلها من الشام من أرض دمشق وقد تكلم عليها بلين المؤرخ
فذكر أن أول دخولها في إيباليا كان زمن قاطون وإنما باوروبا
أنواع منها الأصفر والأخضر وما بعضه أصفر وبعضه أحمر وتارة
تكون كروية وتارة مستطيلة وتوكل طرية وناشفة ويسمونها
القراصية وهي تجارة عظيمة لجهات كثيرة من أرض فرانساً وكذلك
شجرة الكريز المعتدلة القد المساء الجلد وأردة من جهة سيرازونه

من الشام الى رومه ايام القيصر لوكولوس قبل المسح بثمان وستين
سنة وانتشرت في ظرف خمس وعشرين سنة بجميع جهات
اوروبا وانتقلت من ايطاليا حتى وصلت جزيرة الانكليز الباردة
والان يوجد منها انواع كثيرة وعند اثمارها تجد عناقيدها
مدلاة نحو الارض نابتة من جذور الاوراق تجذب اعين الناظرين
بلطيف لونها ومنها نوع عظيم الساق يبلغ في الطول عشرة
امتار عناقيده سود ويستخرج منه شراب الكرز وشجرة اللوز
الموجودة في جميع جهات اوروبا اصلها من بلاد افريقيا ومنها
الحلو والمر ويستخرج منها دهن اللوز وهي مغذية ومبردة
وتدخل في الطب ويوجد دهن اللوز بجميع الاجزاخانات
واما شجرة الخوخ فاصلها من بلاد الفرس ويوجد منها
ثلاثة انواع نوعان على ثمرها وبرة خفيفة والثالث لا وبر على
ثمر واخذنا من الارمن شجر المشمش

واما شجر التفاح والكمثرى والسفرجل والمشملا فهي تنبت
بطبيعتها في بلادنا وليست محلبة من الجهات ومن التفاح نوع
حريف الطعم يستعمل في بعض جهات فرانساً بدل العنب ويستخرج
منه شراب يسد مسد النبيذ ومن الكمثرى انواع كثيرة منها نوع
يستخرج منه الشراب والسفرجل اصله من جزيرة بربريد وهذه الشجرة
الصغيرة المسماة بالقشطة وارده من امريكا الجنوبية والين من البلاد
المشرقية وكان اجداء وروده في الجهات الجنوبية من فرانساً قبل

المسيح بستائة سنة والذي غرسه هم الفينيقيون حين توطنوا مرسيليا
ثم تنوع انواعا كثيرة ويؤكل اخضر وناشفاً والتجار يرسلونه الى
جميع جهات الدنيا واصل شجرة البرتقال هذه من الصين والهند
وهو انواع كثيرة ومنها اليوسف افندي ويزرع في الاندلس من
زمن مديد وغالب هذه الخضراوات وهذه الرياحين الزكية تطلبها
السياحون الى اوروبا الا انهم تفتنوا هنا في زرعها حتى كثرت
انواعها

المعامرة (١٢١)

العنب

واعظم الشجر عندنا نفعا والده طعما شجرة العنب هذه ومنبتها
الحقيقي بلاد الجرجستان نبت فيها بالطبيعة في صخور الجبال

الشائعة مثل جبال القوقاز وجبال ارارات وجبال توروس وهو
الآن يزرع في غالب اقطار الدنيا ولكن منه ما يزرع للتفكه رطباً
ومنه ما يجفف واغلب جهات اوروبا وامريكا وبعض الجزائر
يستخرجون منه النبيذ والمشروبات الروحية وليست خواص النبيذ
واحدة بل متفاوتة طعماً ورائحة وتأثيراً على حسب الارض والهواء
وكيفية زرعه وعصره وقدر الارض المشغولة بزرعه في فرانسامليونان
هيكثاراً وهو عبارة عن خمسة ملايين فدان مصري وبحسب الرغبة
في النبيذ الفرنسي رغبت الاهالي في زيادة زرع العنب واتسعت
مناجره حتى سار الى جميع بقاع الارض وقدر ما يحصل من عصير
المزروع منه بفرانسا يبلغ ستة واربعين مليوناً هيكثولتر (مائة لترات)
من النبيذ الاحمر والابيض ومليون وربع من العرقي وكل ذلك
قيمه تبلغ اربعمائة وستة وسبعين مليوناً من الفرنك وبهذا السبب
تعد مملكة فرانس اول مملكة بالنسبة لزرعه ويوجد منه ببلاد
الاندلس والبرتغال واطاليا انواع مقبولة عالية الاثمان ولكن نبيذها
العادي لا يفوق النبيذ العادي الفرنسي وفي بلاد النمسا والمانيا
والموسكو والفيلك وامريكا يزرع العنب ويستخرج منه النبيذ غير
ان الزائد عن لزوم الاهالي قليل جداً وفي هذه الايام الاخيرة صار
تجربة زرعه في جهات الجزائر فنجح نجاحاً تاماً فانتسعت زراعته
وحصل لزراعته ارباح عظيمة خصوصاً لما ظهر لم في نبيذه من
الخواص الجيدة فلذا ترى اهل اوروبا وغيرهم يرغبون فيه

وعمليات استخراجها اربع الاولى تقطع العنب قطعاً صغيرة
 ثم يعصر بين اسطوانتين من حديد تدور كل منها على الاخرى
 والعمليّة الثانية تصفية المائع الخارج وذلك بعد تركه ثمانية ايام
 حتى يتخمر ثم يصفى في براميل ولا يبلأ البرميل بل يوضع فيه الى
 نحو اربعة اخماسه ويترك حتى يصفو ويرسب تفلّه وهذه العمليّة
 تكون في شهري مايو وابريل وربما استعانوا على كمال صفائه بتقليل
 من الدم او بياض البيض هذا هو النبيذ الجاري بيعه بين الناس
 سواء كان ابيض او احمر والنبيذ الابيض يتحصل من الاحمر ولا
 تختلف طرق عمله الا بفصل المائع عن التفل في اول الامر وقت
 الدوس ولا يترك ليتخمر معه بل يجري تخميره وحده فيكون ابيض
 لان المادة الملونة ليست حينئذ في العصارة وكذلك النبيذ المعروف
 بالشبانية وانبذة اخرى يحصل عند فتح قارورتها فرقعة فطرق
 استخراجها كما وصفنا مع اختلاف قليل وانما عند ملء القارورات
 يضعون في كل قارورة قطعة من السكر النباتي ثم يحكمون سدادها
 فيتخمر بالسكر بعد عدة اشهر ويزيد النبيذ جودة ويحدث منه
 في القارورة جزء كبير من غاز الكربون فهذا هو سبب الفرقعة
 التي تسمع واعلى انواعه واغلاها ما عصر بعد التذيب والجفاف
 لانه بذلك يقل ماؤه وتكثر مادته السكرية

المسامرة (١٢٢)
 شراب التفاح والكهربي

وطريقة استخراج شراب التفاح ثقوب من طريق استخراج
 نبيذ العنب وأكثر استعماله في البلاد التي لا ينبت بارضها العنب
 ويغلو فيها سعر النبيذ وكان العرب مدة اقامتهم بالاندلس يستخرجونه
 فتعلمه منهم سكان المديرية المجاورة لهم من فرانساً مثل اهالي تولوز
 وغيرهم وقال بعضهم انه كان معروفا من زمن قديم وفي بعض
 الكتب ان الملكة رادغوند ملكة فرانساً كانت تشربه دائماً وكانت
 في القرن السادس من الميلاد والمحقق انه لم يظهر بمجرات النورماندي
 في فرانساً الا في القرن الرابع عشر وكان مشروبهم قبل ذلك اليربا

فلما قام مقامها شرابه غالب اهل فرنسا ومنها وصل الى الالمانيين
والانكليز والروس وامريكا حتى بلغ مقدار المستخرج منه في السنة
الواحدة ثمانية ملايين هيكتواتر وقيمة ذلك ستون مليوناً من الفرنك
وانواع التفاح المستعمل في ذلك ثلاثة المحلو السكري والحامض
والغض وهو الذي يستخرج منه احسن الاشربة ويبقى زمناً بخلاف
المستخرج من النوعين الاخرين فانه لذيذ الطعم ولكنه قليل البقا
وليس في عمل هذا الشراب صعوبة فانه بعد جمع التفاح
يترك نحو ستة اسابيع حتى يتم نضجه وتكثر مادته السكرية ثم يهرس
في مريس كبيرة ثم يوضع في الهواء كمانا اربعا وعشرين ساعة
فيكسبه الهواء اللون الكهربائي ثم يعصر ويوضع في براميل قائمة
ينجر فيها ويخلص من المواد الباقية فيه فبعضها يرسب في القاع
لتقله وبعضها يعوم على السطح لثقلته فاذا خالص من ثقله صبوه من
حنفيات في براميل ليتم تخميره فيها ثم يستعمل
ومن الشراب ما يستخرج من الكثرى واستخراجه كالذي
قبله الا انه يبقى له لون البياض الحاصل من عصر المواد بعد
هرسها من دون تعريضها للهواء وهذا الشراب كلما عتق كان اشد
اسكاراً من جميع الانبذة

واما المشروبات الالكولية مثل العري والكونياك والكروش
والجن فتستخرج من النبيذ والسكر والبنجر (اي الشمندور) ونحو
ذلك ويستخرج منها انواع اخر من المشروبات ولا حاجة لنا الى

شيء من ذلك لأنها تمنعنا عن الاطلاع على باقى ما هو في هذا
البلستان من انواع النباتات الغريبة وايضا فمعرفة عمل المشروبات
الروحية لا تخصصكم في شيء

فقال الشيخ لا يلزم من العلم بالشيء استعماله ولا يخفى عليكم
قولهم العلم بالشيء ولا الجهل به فحيث تكلمتم على كيفية استخراج النبيذ
فلا بأس بشرح عمل الالكول ونحوه

المعامرة (١٣٣)
الكول

فقال الخواجا الالكول مائع يوجد في تركيب السكر ويخلص
منه بالتخمير مثلاً لو اذنا قطعة سكر في قدح واضفنا اليها بعض

شيء من خميرة البوزة ثم تركاه في مكان درجة حرارته ٢٠ او ٢٥
او في الشمس مدة قليلة رأيا المائع قد اضطرب وتساعد منه غاز
يكون قليلاً في اول الامر ثم يزداد شيئاً فشيئاً ثم يتقطع بعد عدة
ايام فاذا صفي وركز حتى يهدأ وذقناه فاننا نجد الطعم طعم الشراب
والرائحة رائحة البيذ ولا نجد للسكراترا فلو قطرناه بالانبيق لتحصلنا
منه على مائع طيار ولا لون له يقبل الالتصاق فهذا هو الالكول
وهو يستخرج من كل ما فيه مادة سكرية كعصارة العنب والتفاح
والكمثرى والكريز ونحو ذلك وهذه لا تحتاج لوضع خميرة فيها لان
في ضمن تركيبها مادة ازوتية متى مسها الهواء اتقلبت الى خميرة
وتحلت المادة السكرية التي في العصارة الى الالكول وانا تقطر
البيذ او البوزة او نحوها من الانبذة يتحصل مائع يختلف فيه كمية
الالكول بكثرة الماء وقلته فان قطرناه مرة ثانية قلت كمية الماء
وزادت كمية الالكول وهكذا

وللمشروبات الروحية اساء مختلفة في الـارة بحسب مقدار
الالكول الموجود فيها فما كان الكوله النصف او اقل قيل له
عرفي وما كان الكوله اكثر قيل له روح فالـ في عبارة عن ماء
ممزوج بالالكول والالكول الخالص هو المبرّد عن الماء بالكلية
ولا يتحصل عليه الا بعد تقاطير عديدة وهو عديم اللون اكثر
مبوعة من الماء بلتهب منه الفم رائحه لطيفه ولهبه ناهت ضعيف
الضوء

وانواع العرقى وخواصه تختلف باختلاف المادة المستخرج من
عصارتها واحسنه المستخرج من عسل القصب او العنب او الكريز
واقبل منه جودة المستخرج من التفاح او الكمثرى او الحبوب وقبلة
العرقى تختلف باختلاف درجة الالكول وتتميز هذه الدرجات في
التجارة باستعمال آلة بسيطة عبارة عن قضيب من الزجاج عليه
علامات وارقام اولها الصفر واخرها مائة وفي اسفله كرة من الزجاج
فيها زيتق فاذا اريد معرفة مقدار ما في المائع الروحي من الالكول
فتغمس الالة في المائع وتترك فتقف عند درجة من الدرجات
التي في القضيب فان وقفت عند رقم من هذه الارقام علم ان المائة
جزء من المائع تشتمل على اجزاء من الالكول بقدر ذلك العدد
وهذا في الحجم لا في الوزن وان الباقي ماء عادي وتلك الالة تسمى
مقياس الالكول وتعد الفرنج تسمى الكولومتر ولاجل تقسيمه غمسوه
اولاً في الالكول المحالص من الماء ورفهوا عليه عدد مائة ثم غمسوه
في مائعات درجاتها اقل بخمسة ثم بعشرة ثم بخمسة عشر وهكذا
فعرفوا درجة ٢٥ و ٤٠ و ٥٥ و ٧٥ و ١٠٠ وهكذا

ويقال ان اختراع المشروبات الروحية كان من الملك لويز
الرابع عشر عند هرمه لاجل امتعاشه وعود قوته وجميعها عبارة
عن عرقى سكري مختلط بمواد عطرية متلا الماء الذي تسميه الفرنج
ابزيت هو عبارة عن الكوئل وماء وسكر يقع فيه من غصون هذه
النباتة الصغيرة التي اسمها على ما يقال من مصو وتخرج في اجماليا

وتزرع الآن في جهة من فرنسا وما يسهونه كاسيس هو عرقى
وسكر وفاكهة وبصنع ايضاً شراب يدخله نوى المشمش او الخوخ
او البرقوق والشراب المعروف بشراب الكورانا يوخذ من عرقى
قديم ويوضع فيه قشر برتقان مع اضافة مقدار من السكر اليه
وشراب الابسنت حاصل من جعل زهر الشيبة او ورقها في
الالكول ثمانية ايام ويضاف الى ذلك لاجل التقطير حب
الانيسون او غيره وهو من السهيات يقتل عند الاكثار منه



المعامرة (١٣٤)

البوزة او (البيرا)

واما البوزة (البيرا) فقد اتفق المؤرخون على ان المخترع لها
في الزمن القديم المصريون وقيل ان اول استعمالها كان بمدينة

يلون المعروفة عندكم بالطينة وهي من زمن مديد شراب أهل
الجهات الشمالية من فرنسا والانكليز وجميع المالك الشمالية يستعملونها
كثيراً ومقدار ما يستهلك بلوندره من هذا الصنف كل عام
مائتان وخمسون مليوناً من الليتر وباريز مقدار ذلك اربع عشر
مرة وهي من بين الخمور تشتمل على خاصتين التغذية والتنبيه وقد
امتحنها بعض مشاهير الكماوين فوجد في كل مائة جزء منها ثمانية
واربعين جزءاً من مادة جامدة مركبة من مواد ليست ازوتية
كالنشا ومن مواد اخرى ازوتية كالتي في الحب المستعمل فيها
فلذلك يحصل لمن يشرب من جيدها غذاء بقدر ما يحصل له من
اكل ثمانية واربعين جراماً من الخبز ابي ستة عشر درهماً

وطريقة عملها ان يوضع حب الشعير في حياض مبنية ويوضع
عليه من الماء قدر حجه اربع مرات ويترك الى ان يتسخ فينقل من
الماء ويوضع في اماكن فيها هواء درجة حرارتها من خمسة عشر الى
سنة عشر حتى تنبت واحسن النصول لصنعها فصلاً الخريف
والربيع فما صنع منها فيها فهو المقبول عند الناس اكثر مما صنع
في غيرها فاذا نبت اخذ وجفف سريعاً كي لا يذهب نشاؤه
ويكون تجفيفه اما بوضعه في الهواء او في محل يبر عليه هواء حار لطيف
ثم اذا تم التجفيف بفرك وينخل ثم يخلو بفصل به الحب من النبات ثم
يدش دشا خفيفاً وبعد ذلك يوضع في حياض من الخشب بعضها
فوق بعض في كل حوض خرق يصب في الاخر ثم يصب عليه

في الماء فبواسطة تلك الخروق يسهل مرور الماء في المادة وينفصل عنها ولكن في ابداء العملية تكون الخروق مسدودة ويصب على المادة ماء حرارته ستون درجة مئوية وتقلب وتذلك وتترك حتى تهدأ ثم بعد ذلك يصب عليها ماء حرارته تبلغ تسعين درجة ويصنع بها كما سبق حتى يسخن الجميع وتكون درجة حرارته سبعين او خمسا وسبعين ثم يقلب وبذلك وتغلى الحياض وتترك ثلاث ساعات تقريبا فيها يكتسب الماء جميع ما يلزم ان يكتسبه من المادة السكرية التي في الشعير فيؤخذ حيثذ ويغلى مع عروق النبات المعروفة بمشيشة الدينار واوراقها لتكتسب المرارة والخاصة التي تبقى بها زمنا بدون تغير شيء من صفاتها ثم بعد تلك العملية ينقل المائع الى حياض اخرى ليبرد فيها ولا يبقى في محله لثلا يلف ثم نوضع عليه الخبيرة ويترك زمنا يختلف من اربع وعشرين ساعة الى ثمان واربعين وهذه هي الخبيرة الاولى وفي تلك الاعاءات يظهر على الماء رغوة كثيرة ثم يؤخذ المائع ويوضع في براميل يستمر فيها التخبير ويظهر على الماء رغوة ايضا فاذا اخذت وعصرت يضعونها في كيس وتكون هي الخبيرة للبوزة التي تستعملها الفطاطرية والخبازون ويستعملونها في البوزة للتخبير وفي المشروبات المحتاجة للتخبير ولا تكون البوزة تقية رائحة ذات لون لطيف كما يشاهد فيها الا بعملية اخرى وهي ان يضاف من غراء السمك على

المائع فبذلك يحصل بعد مدة رسوب جميع المواد وتصفو المادة
المائعة الصفاء الذي ترى به عند التجار

المسامرة (١٢٥)

الأشجار والزهور

وعند هذا حضرت الست وابنها فقالت للخوارجا أيجوز لك
حرمان الشيخ من الاطلاع على ما في هذا البستان من الأشجار

والأزهار التي قل ان يجمع مثلها في بستان وحرماننا من الانس به وباليتك شغلت وقته بالاطلاع على النباتات العطرية والرياحين الزكية فانها في جميع حياض البستان من خلفك وامامك وعن يمينك وشمالك وكان بيدها صحبة فاهدتها الى الشيخ قبلها وبعد ان تأمل فيها قال حقيق انه لم يكن لنظام هذا البستان نظير فاني لم ار فيه شيئين متجاورين من نوع واحد وارى وضع النبات على اصول الهندسة حتى انها حوت من اختلاف الوان الازهار المجموعة صحباً مختلفة الشكل والحجم وموزعها وسط الحياض بين الاشجار وبجافات الطرق كان لها صور ومناظر مختلفة باختلاف المواضع التي يقف فيها الناظر وما من صورة الا تسر الناظر وينشرح لها الخاطر ثم قال لست واني لاشكر فضلك ومعروف حضرة الخوجا لانه حصل لي من مجلسه فوائد ما كنت اعلمها قبل وقال لها الخوجا حيث اشرفت هنا طلعتك فينبغي لنا ان نتكلم في النبات العطري فقالت ان اكثر الورد والنبات الغريب والرياحين في الجهة المقابلة لنا من البستان وهناك كسك صغير قريب من مجرى الماء يسمع منه تغريد الطير فاظن ان لوراه الشيخ تسهي الاقامة فيه لانه فوق ربوة صغيرة ويرى من شبابيكه الطريق السلطاني والزراعيين بالاراضي المجاورة له فاجابوها لدعوتها واخذ الخوجا بيدها واخذ الشيخ بيد ابنه وساروا حتى وصلوا مكاناً مستدير الشكل في وسط

حوض ماء فيه نوفرة عظيمة مركبة من صور حيوانات وطيور
والماء يخرج من افواهها في اتجاهات مختلفة واشكال عجيبه فكان
تارة ينزل في دوائر الحوض وتارة يخرج عموديا او منحيا
قليلاً بحيث لا يتجاوز سقوطه رؤوس الصور الفاتفة له فيكون
لصوت الماء عند سقوطه على المعدن الحامل لتلك الصور في
الحوض رنات لطيفة وينشأ عن امتزاجها بالاصوات الحاصلة
من اهتزاز الاشجار ومن تغريد الطيور نغمات مطربة فهدوا من
جانبا فراهوا طريقا فسلكوه الى علوية مخوفة بالشجر وعليها قبة
من انضمام اغصان الاشجار وراءها اعصاب الشجر متظمة انتظاما
تاماً وبجاني الطريق صفتين من ابيجار الورد وانواع الرياحين
كالفل والياسمين وكل ماله رائحة طيبة مرتبة ترتيباً حسناً بحيث
لا يحجب نوع ما وراءه بل كل نوع خلف ما هو دونه وراءه
اغصان الفل والياسمين ملتفة على اغصان الاشجار تمتدة معها
في دوائر القبة كأنها مصنوعة بيد مصور ومن نفوذ الاشعة
الشمسية في خلالها رسمت صورتها على ارض الطريق ثم جات
صاحبة البيت فسلمت على الشيخ وابنه وقالت للشيخ باللغة
الفرنساوية على ما ترجمه له الخواجا ما معناه ارجوك الا تواخذني
في عدم مصاحبتك لك فان اكر عذري جهلي باللغة العربية قبل
الشيخ عذرها واطنب في الثناء على زوجها ثم قال وضع هذا
البستان على هذه الصورة الفاتفة في حسن الرونق والبهجة يتنضي

شدة الاعتناء به وزيادة الالتفات اليه وصرف اموال جسيمة فترجموا لها ما قاله فقالت ان زوجي لا يكتفي بخدمة الخدّمة بل هو في الخدمة فيه بنفسه وكلما يسمع بنباتة ليست فيه يادر الى جلبها اليه بدون التفات الى كثرة ما يصرفه عليها واكثر اوقاته مصروفة في ذلك خصوصاً معرفة خواصها وكثيراً ما سافر الى بلاد بعيدة وقطع جبالاً وادوية وبجراً للاطلاع على ما فيها من النبات والاشجار وامتحانها لمعرفة خواصها وليعرف طرق ترتيبها وحفظها وهو الذي رتب هذا البستان وزرع ما فيه من انواع النباتات وليس هنا نباتة الا وعليها نمة ولها قيد بدفتر النبات عنده وفي دروسه التي يلقيها للتلامذة في كل اسبوع يبين لهم ما يعلق بالنبات وان كان لبعضه خواص بينها لم كالنباتات الطبية والعطرية وغير ذلك وخلف هذا المكان محل التجربة والامتحان واماكن معدة للتدريس وخزانة كتب

فقال الشيخ قد اودع الله في النبات من العجائب والاسرار ما يبهر اولي الابصار ولا يعد ان المعلوم منها الان اقل من المجهول ثم ان كثيراً من النبات بعد زمن يزول ويتبت غيره من غير جنسه فلوم يقبض الخالق لهذه النباتات من يشتغل بالكشف عن اسرارها ويبين فوائدها وينشرها لحرمت الخلق من تلك الفوائد ولبقيت اسرارها مجهولة مع انها هي المعينة لنا على اعمالنا برّاً ومحرراً اذ منها اقواتنا وبها يعالج ما اخل من ابداننا وفيها ما نتعش بشمه ارحنا

فجزى الله عنا المشتغلين خيراً إذ لولاهم ما عرف النافع من الضار ولا
البارد من الحار. فقال الخواجا من تأمل رأى أنه ما من شيء إلا وتعتبره
احوال غير متناهية في السماء تحدث سحابات وتظهر نجوم مختلفة
وفي الارض تظهر نباتات وحيوانات كذلك ولا شيء مما يراه اولاً
يراه الا وفيه شيء من سر الحياة ففي البعض تكون ظاهرة تدل
عليها حركة الاعضاء وتقل الجسم ونحوه وفي البعض تكون كامنة
خفية فلا ندرها فالحياة في الحيوان امر وقف عنده علم الانسان
وكذلك في النباتات وكما ان بعض الحيوانات يظهر في بعض
الفصول ثم يزول ولا يظهر الا في ميعاده وبعضها يظهر في الظلمة
ولا يهوى النور وبعضها على عكس ذلك فكذلك النباتات بعضها
يخرج زهر في وقت معين دون غيره وكثير منها في هذا الوقت
نفسه اما ان تجرد من ورقه او يبس عوده ولا يعود لحالته الاولى
الا في السنة القابلة مع الانتظام

ومن هنا رأى بلين الروماني ان يرتب الاشهر والفصول على
حسب تزهير النبات ولكن لم يتم هذا المشروع الا في زماننا هذا
بواسطة بعض العلماء وبملاحظته اتضح له ايضاً ان لكل اربعة
انواع من الازهار ساعة معينة تنفتح فيها ولا تعداها وبعض
المتوحشين القاطنين بالبراري الشاسعة لا يعلمون الوقت الا من
الزهور فيوزعون اعمالهم على حسب ذلك وبعض النبات لا تنفتح
زهرة الا بمجاذب من الحوادث مثلاً القوقان اذ احس بتزول

المطر انضمت اكام الزهر عليه انضماماً جيداً ليحفظ نفسه منه وبعض
النبات لا يهوى الشمس مثل النباتة المعروفة بالبقلة اليهودية
وتسميها الفرنج لترن وتثبت بارض السيريا فانها اذا احست
بالشمس انضمت اكامها ضمماً جيداً حفظاً للزهر من الشمس ولا
ينفع الا اذا اظلم الجو وتغطت السماء بالسحاب وما يزداد تعجب
الاسان منه ان هذه النباتات بانواعها وهذه الاشجار مع غلظها
وارتفاعها اصلها خلايا صغيرة نامية وفي داخلها حويصلات صغيرة
بجيث لا ترى الا بالظارة المعظمة وهذه الحويصلات عبارة عن
قواقع دقيقة كروية الشكل ثم من تأثير بعضها على بعض تكبر
وتتو فتصير اجساماً ذات اسطحة متعددة بعد ان كانت كروية
ولا ترى بالبصر لصغرها لكن قوة الحياة فيها عظيمة بحيث انها تزداد
في اقرب وقت زيادة عظيمة فينشأ عنها الياف النبات والجزع
والغصون والاوراق وبواسطة النظارة المعظمة وجدوا داخل الخلية
الواحدة مع دقتها جذور اجسام من مواد مختلفة وشاهدوا في
الورق حبات كثيراً ومن الوانه اخذت الاوراق الوانها وبعض
الطبيعيين رأى في بعض النبات المائي حيوانات كالذروف في المنسوج
الخلوي يشاهد غالباً دقيق كالذي يستخرج من الخنطة وهذا الدقيق
يكون في جميع اجزاء النبات سواء كانت جذوراً او غصوناً او فاكهة
وسكان جزيرة تايبي يصنعون الخبز من فاكهة تخرج في
جزيرتهم فياخذونها ويحبسونها على النار ثم ياكلونها

فيجدون طعاما كطعم الخبز ولذا تسمى السباحون هذه الشجرة شجرة
 الخبز ويصل وزن الواحدة منها الى افة مصرية بل اثنين وثلاث
 وكثير من جزائر المحيط كجزيرة جافا وجزائر الملوك وجزيرة بندا
 وغيرها من الجزائر اكثر غذاء اهلها من جنس شجر يزرعونه في
 جزائرهم فتمى بلغ عمره خمسة عشر عاما قطعه واخذوا منه بواسطة
 مغارف يعرفونه بها ثم يضعونه في حياض منحوتة من هذه الاشجار
 ثم يسدون اطرافها بمادة ليفية فاذا امتلأ الحوض من المادة المستخرجة
 من الخ اضافوا عليه ماء وقلبه حتى يترج الماء بالدقيق الموجود
 مع الملح ويمر من المادة اللينة فينزل في حوض اخر فيفعل به ما
 فعل بالاول ويتلقى في حوض غيره فاذا عرف ان مادة الخ
 تخلصت من جميع دقيقتها واجتمعت في الحوض الاخير مع الماء تركت
 فيه لترسب ثم يصفى الماء من فوقها ويؤخذ الدقيق طريا ويحفظ
 في اوعية تصنع في الحال من اوراق هذه الشجرة بسع الوعاء الواحد
 منها من احد عشر كيلو غرام الى اربعة عشر ولا يتركون الاوعية
 الى ان تجف خوفا من تلف ما فيها ومع ذلك فيغسونها في الماء
 مرة بعد مرة واهل جهات الاوسترالي يعرفون جذور نباتات يعاطونها
 فتقوم عندهم مقام الخبز ويخزنونها للقوت

فقالت صاحبة البيت ما من يوم الا ويذكر لي زوجي في
 بعض مسامراته احوالا جديدة للنبات مستفادة من استكشافات
 اهل هذا العصر من العلماء والسباحين الذين جلبوا الارض

وان رأيتم الفرجة على المدرسة ومحل التجربة فما انا مستعدة لخدمتكم
وان رأيتم ان تنظروا باقي البستان الى ان يحضر الخواججا ويربكم
بنفسه فلا بأس

قال الشيخ الرأي ما مرينه وايها تختارين فهو الموافق واني
لاحب الاطلاع على الجهتين وفي وجودي بين جهابذة الفن مثلكم
فرصة لا بد من ان انتهزها واغترف من مجور علمكم الغزيرة ما
تتشعش به روعي من الفوائد الكثيرة التي منها معرفة الحكم التي
اودعها سبحانه في عالم النبات فان هذه المعلومات من نتائج هذا
العصر السعيد الذي هو في اتساع دائرة المعارف البشرية فريدوما
ذكر من ذلك في كتب الاقدمين يوجد منتشرًا في الكتب العربية
فضلاً عن كونه قليل الجدوى لقلته على انه لم تثبت صحة نقله
خصوصاً وان يد الجهل اضافت اليه خرافات كثيرة

قال الخواججا الرأي المناسب ان نظوف في ارجاء البستان ونختار
منه الجهة التي بها المشومات فان في ذلك مناسبة للسنات فتبسبت
ثم قالت هذا هو الرأي الحسن ولكن من الواجب اتباع رأي الشيخ
فقال الرأي ما رآه الخواججا فان النفس الى الروائح الزكية اميل
فساروا قليلاً ثم وقف الخواججا حذاء خطوط الورد وقال قد
جمع المعلم هنا كثيراً من مالوف النباتات ثم مد يده وقطف وردة
وناوھا اياها فطلبنا منه ان يحكم على بعض الازهار ليجمعا بين اللذة
والفائدة فقال لا بأس بذلك والاحسن ان نبدأ بالورد لانه

هو الذي بايدنا فنقول الورد انواع منه ما يزرع بالبلاد الحارة
كالبلاد التي بساحل البحر الابيض من اوروبا وافريقيا وهذا
النوع هو الذي يستخرج منه ماء الورد وعطره الذي تالفه الغيد
والسنتات في جميع بقاع الارض ومنه هذه الوردة التي تراها بيضاء
وزهرتها قليلة الورق وفي نهاية كل ورقة جزء اصفر قد منحها
الله كثرة العطر بدل ما نقص من ورقها وجعل نوعها افضل
الانواع ولذا تختار في استخراج عطر الورد واما اصلها فمن بلاد
المشرق وقد اهدت الينا جبال القوقاز هذه الشجرة العظيمة المسماة
بالورد المثني لكثرة ورق زهرته واما هذا الورد السباعوي الذي
لا يتقطع زهره صيفا ولا شتاء فاصله من دمشق الشام ومنذ ثلثمائة
عام اخذنا من بلاد المشرق هذا الورد المسكي وادخلناه في ضمن
الازهار التي تعلى بها بساتيننا وهذا النوع يكبر كبرا زائدا في
جهة تونس حتى يبلغ عشرة امتار وبالفنن في زرع الورد ظهر
نوع يعرف بالورد المحوز وبلي هذا النوع شجر البنفسج وهو
اوروباوي الاصل ويوجد في الغابات تحت ظل الاشجار وزهره
وان كان عزيزا الا انه لا يتجرد من عطره وقد نعسر عليهم هنا
استخراج عطره كما استخرجوا عطر الورد والياسمين وتبتدى للسائر
روائح ازهاره الزكية ويعطر البساتين والمحدائق من اول شهر فبراير
ويستمر يهدي الينا من طبيبات انفاسه الزكية مدة شهر مارس وابريل
ثم اشار الى شجر الياسمين وقال

واما هذا النوع فلم يوجد باوروبا الا في القرن الساد
واصله من الجهات الحارة الواقعة فيما بين المدارين وهو نوعان
بحري وطبري فكبر زهره ولطف لونه الابيض الوردى واستطالة
شكله السنبل وتجمع ازهاره وحمله حمله فوق ساق وحيد وذبوله
التدرجي المتعاقب الذي يبقى لنا التمتع باستنشاق ريحه الطيب
عدة اسابيع كل ذلك جعل هذا النوع الطبري فاتقا على ما حوله
من الازهار واختاره ابي الحسن على غيره ثم اشار الى نوع
اخر منه وقال

واما هذه الشجرة ذات الوريقات البيضاء المخمسة التي يعطر
الجوشداها فقد نقلها الازور وبابيون من اسيا الكثرية العطريات
فزرعوها باراضهم واستخرجوا دهنها واكثر الموجود منها في
التجارة يستخرج من الياسمين الزنبقي او العربي وهو كثير بالهند ثم
ان احدى السيدات مدت يدها الى شجرة قصيرة ذات وبر شوكي
ولها زهر مجتمع اجتمعا لطيفا ورائحة تشبه رائحة الفانيليا وقطفت
منها زهرة وناولتها للشيخ فرأى لها رائحة زكية وكان لم يسبق له
رويتها فسأل الخواجا عنها فقال له هذه النباتة غريبة واصلها من
اليرو من بلاد الامريقا واسمها في بلادنا الهليزطروب وفسرها في
القاموس بدوار الشمس والصغيرة من هذا النوع تسمى عندنا
تنوم بئناة فوقية فنون ثم وار فميم والكيرة منه تسمى صامر يوما وعلى
ورقها من الجهتين وبر والوبر الذي على الجهة العليا اقصر واحد

وازهاره الصغيرة متجمعة فوق الساق في هيئة صحبة ولونها ازرقي
سجايي وكل زهرة على حدة فوق ساق بمفردها ويكون عن المجموع
فوق الساق الاصلي شكل كالمظلة بهج المنظر تتميز به هذه النبتة
عن غيرها وياوروبا من هذا النوع ما يتبت بنفسه الا ان زهره
ايض قليل الرائحة

ثم التفت الخواجا الى نبات اخر وقال ومن هذا النوع الذي
تسمونه في بلادكم بالتفاح يستخرج بالتقطير من ازهاره البنفسجية
اللون المشكلة في شكل السنبل في اخر الغصون ماء شديد ازرقا
الرائحة في مبداء امره ويقل ذلك تدريجاً بالملكث وطعمه حريف
ولكن اذا اضيف اليه ماء وشرب فانه يترك في الفم رطوبة خاصة
به والمشهور ان التفاح الفلني هذا ورد الينا من بلاد الانكليز
وهو كثير بالبساتين

ثم قال وهذا النوع الذي تسمونه في مصر بالسنبل والخزامي
ونحن نسميه ثوند اصله موجود من قديم الزمن في الجهة الجنوبية
من ارض فرانس ويقال ان له ميلاً الى الحر وهو نبات عطري
طيب الرائحة الى الغاية وفيه حدة ومرارة قليلة وفروعه مستطيلة
مخيفة مربعة بيضاء مزينة في اسفلها بالاوراق وفي اعلاها بالازهار
الصغيرة البنفسجية اللون ويكون في اعلا تلك الازهار اوراق
خضراء

ثم نظر الى نبت فروعه كأنها ذر عليها من تراب الافران

وقال هذه النباثة هي التي تسمونها السعتر ونحن نسميها الثنت ولها
 فروع دقيقة مستديرة مجهلة باوراق صغيرة منضمة اطرافها الى جهة
 اسفل وفي اعلاها تقط ولون اسفلها ابيض وزهرها في اخر السيقان
 على هيئة سنبله دقيقة ومنه البنفسجي والابيض ويستخرج منه ماء
 السعتر وينبت بكثرة في سفح الجبال فيعطر سماها وبطيب هواها

(انتهى الجزء الرابع)

فهرس

الجزء الرابع
من كتاب
علم الدين

في	المسامرة	صفحة
المجمعية المشرقية	٩٧	١١٥٣
البركة في الحركة	٩٨	١١٨٠
الانكليزي والتياترو والكتاب	٩٩	١٢١٠
الجغرافية	١٠٠	١٢١٦
نزهة في باريس	١٠١	١٢٣٥
قصة حكاية يعقوب واخيه	١٠٢	١٢٤١
البورصة	١٠٣	١٢٥٣
بيت الكتب	١٠٤	١٢٦٢
قصه	١٠٥	١٢٧٣
البانكات واوراق المعاملة	١٠٦	١٢٩٥
الهوام والدواب	١٠٧	١٣١٨
الجراد	١٠٨	١٣٢٦

صفحة	المسامرة	في
١٢٢.	١٠٩	نور الغاز
١٢٤٧	١١٠	السلف، والمختلف في الإسلام
١٢٥٢	١١١	الفار
١٢٥٧	١١٢	المستشفى
١٢٦٠	١١٣	التبغ
١٢٧٥	١١٤	البن
١٢٨٠	١١٥	الأنهر
١٢٩٢	١١٦	الأجبار الكروية
١٤٠٠	١١٧	الموآء والمآء
١٤٢٦	١١٨	فصحة خارج باريس
١٤٤٤	١١٩	التطن
١٤٦٢	١٢٠	الثمار
١٤٦٤	١٢١	العنب
١٤٦٧	١٢٢	شراب التفاح والكمثري
١٤٦٩	١٢٣	الكحول
١٤٧٢	١٢٤	البوزة او (البيرا)
١٤٧٥	١٢٥	الأشجار والزهور

